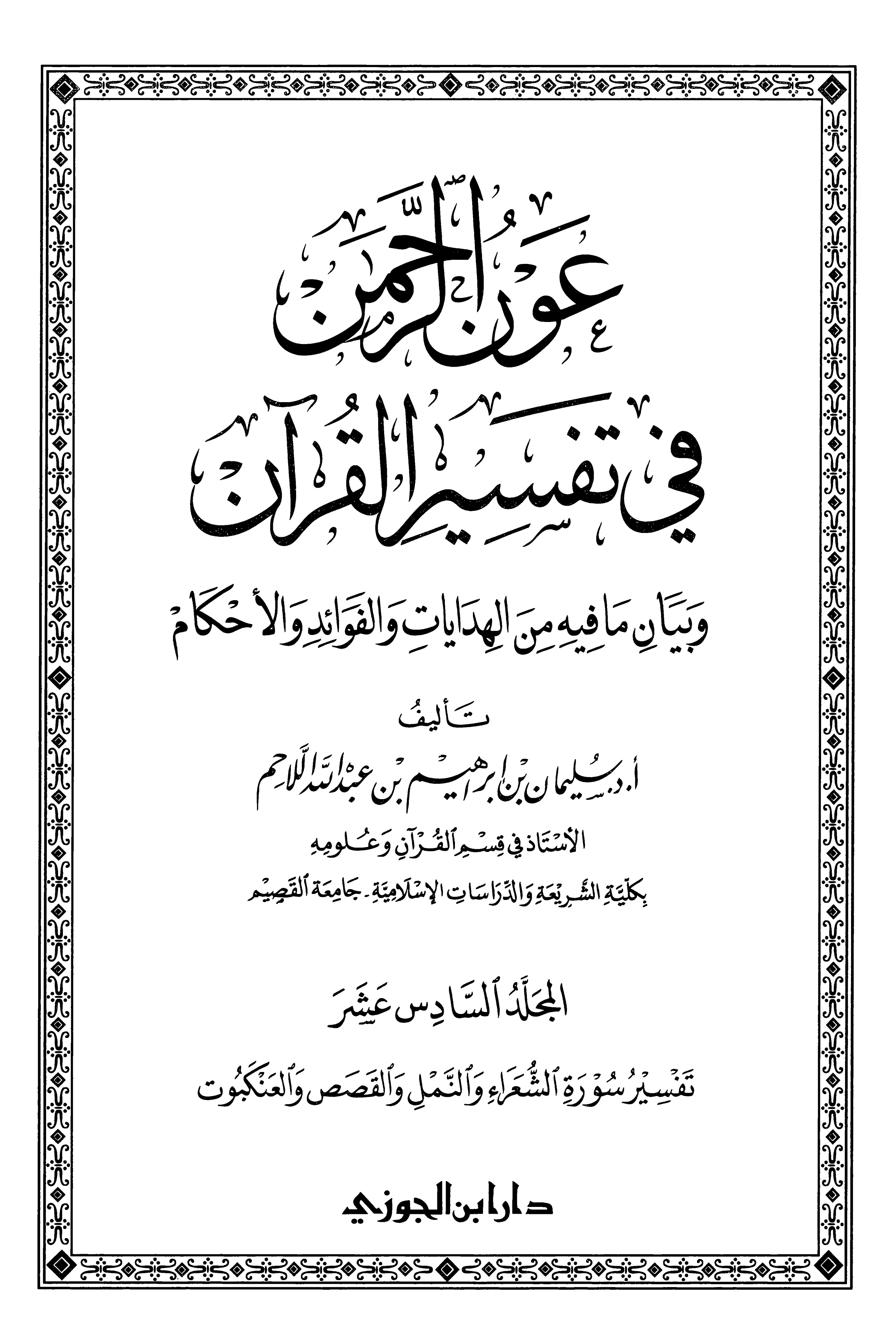


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

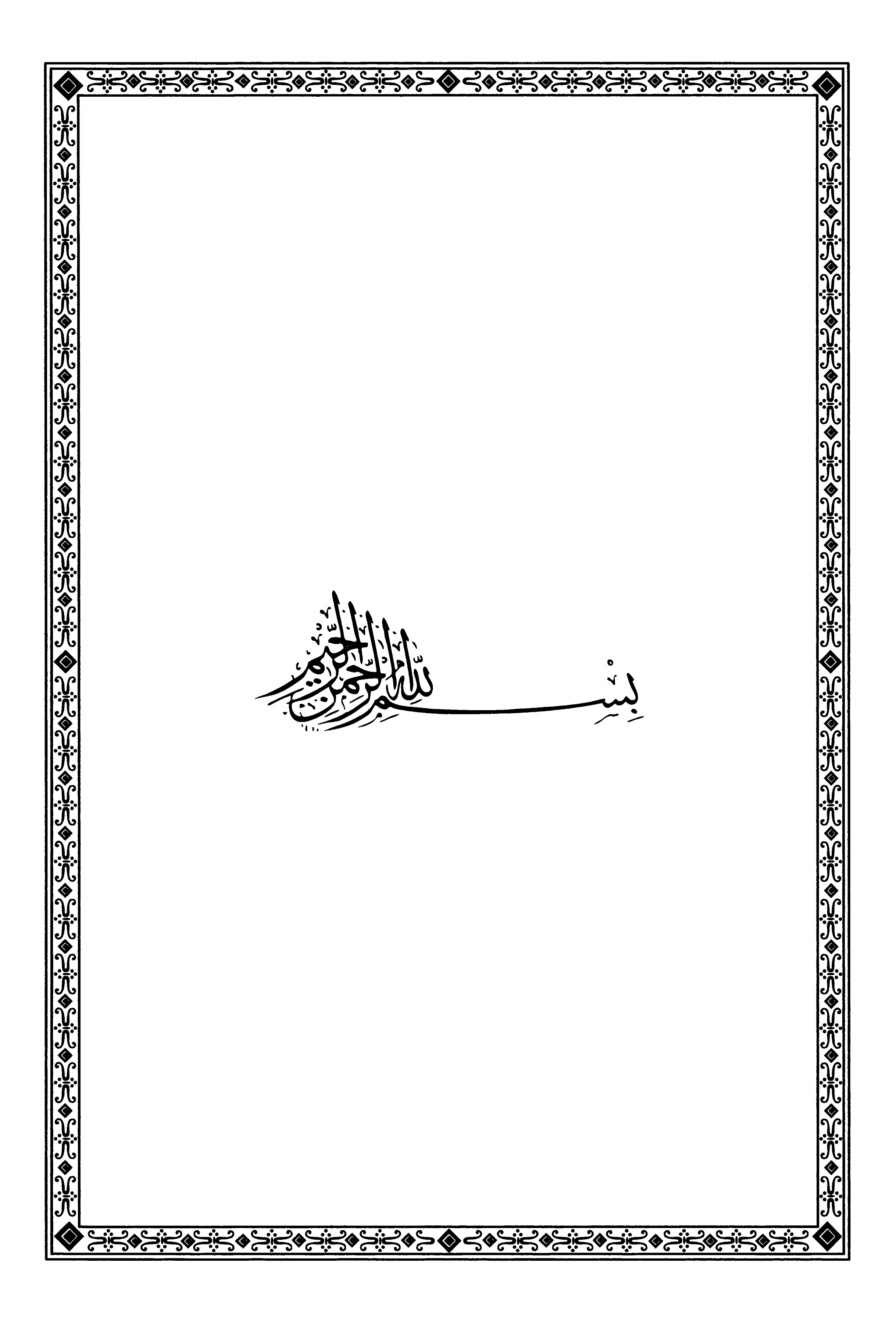
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

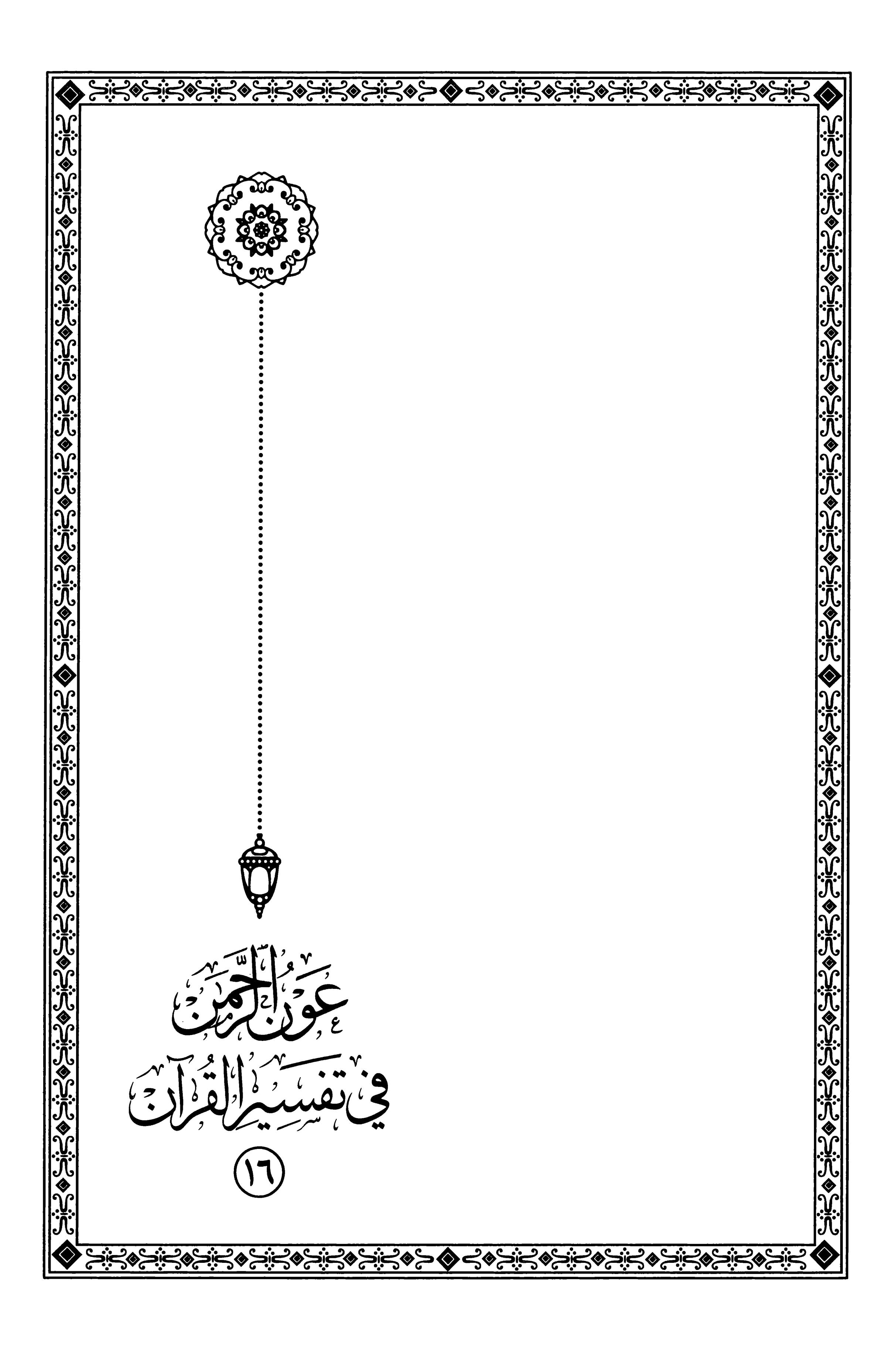
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

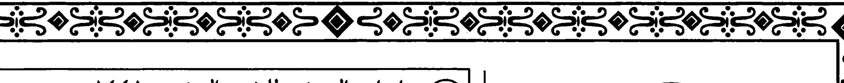
المجلد السادس عشر

تفسير سورة الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


عون الرحمن
في تفسير القرآن
١٦



ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٤٩٣ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ — ١٤٤١/٥٤٤٣



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

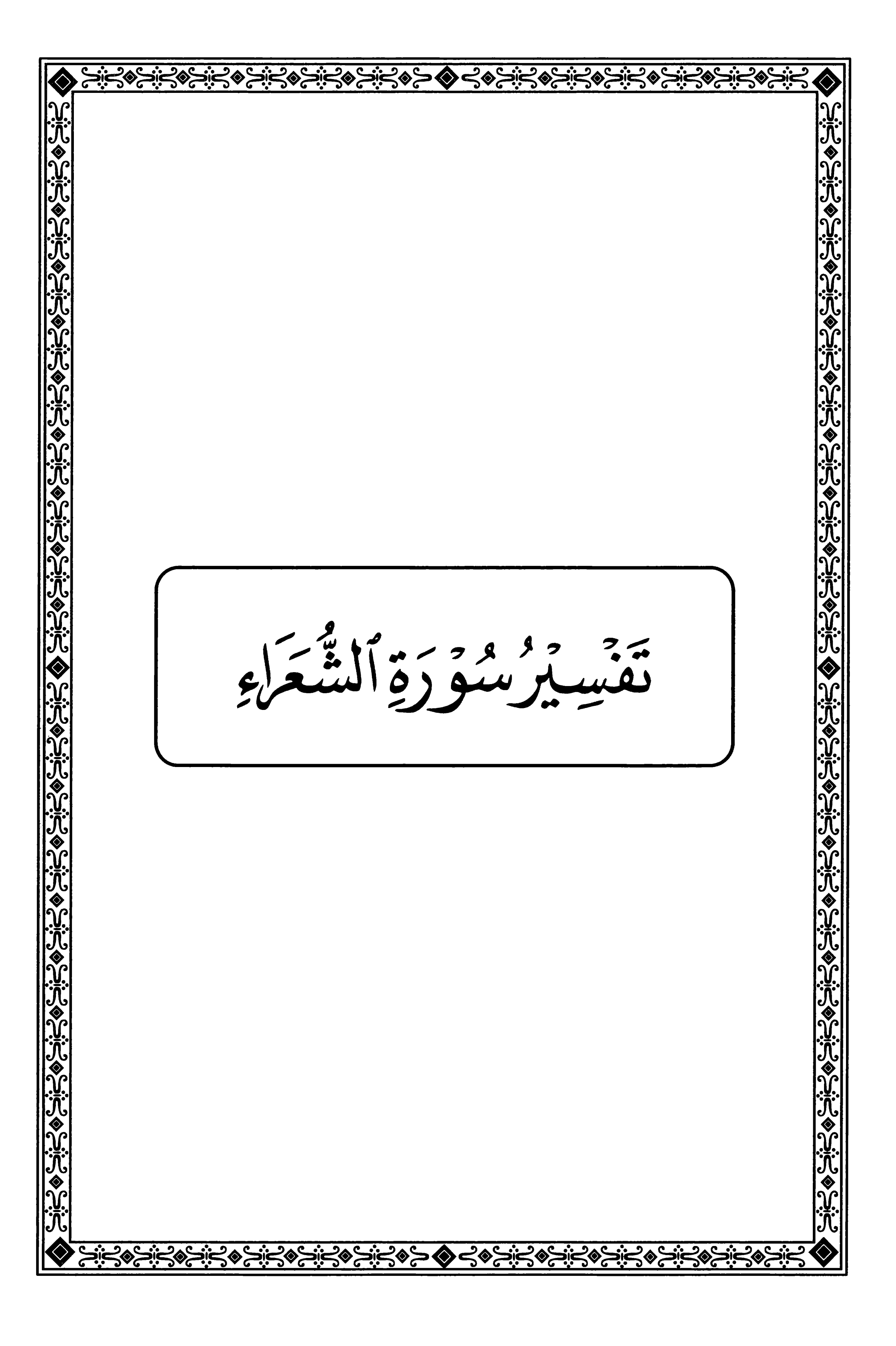
eljawzi

aljawzi.net

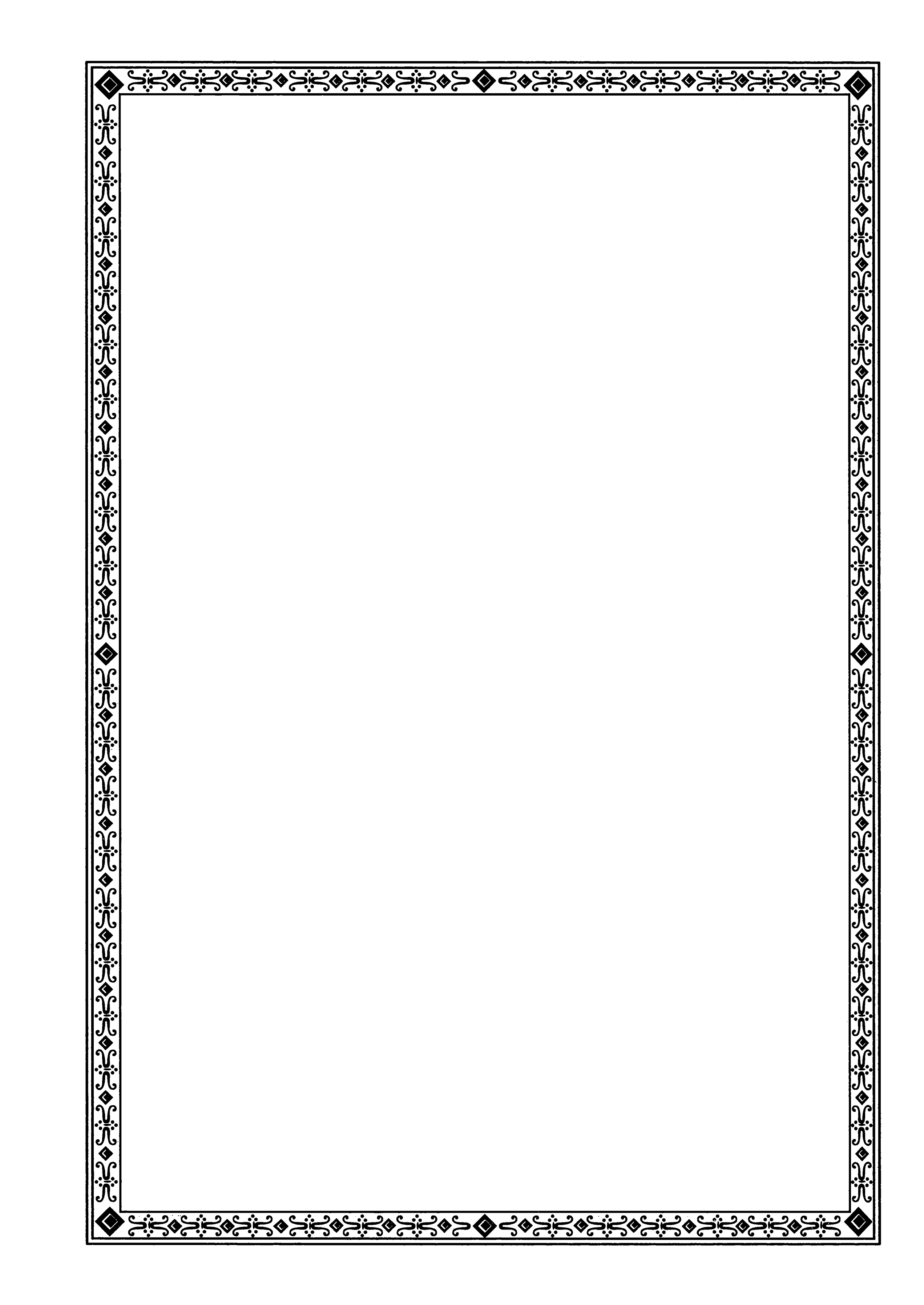
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلشُّعَرَاءِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الشعراء»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الآية:٢٢٤]، ولم يرد ذكر كلمة «الشعراء» في غيرها من السور.

وتسمى: «سورة طسم»، كأنها سميت بهذا؛ لأنها الأولى في ترتيب المصحف، قبل سورة القصص التي افتتحت أيضًا: بـ «طسم».

وتسمى أيضًا: «الجامعة»[1]، وكأنها سميت بهذا؛ لأنها جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن وبيان إعجازه: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٢- تسلية الرسول ﷺ، وتأييده وتقويته أمام موقف المشركين المكذبين المعرضين المستهزئين، وتهديدهم ووعيدهم، وتوبيخهم؛ لعدم تأملهم في الأرض كم أنبت الله فيها من كل زوج بهيج، ونعمة الله على العباد بذلك وغيره.

٣- ذكر نداء الله تعالى موسى عليه السلام، وإرساله وهارون إلى فرعون وقومه، وتأييده عز وجل لهما، ومجيئهما إلى فرعون وقولهما له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾، وتذكير فرعون لموسى بتربيته وليداً، وبقتله القبطي؛ وإعلان موسى له ربوبية الله العامة لجميع الخلق. ورمي فرعون له بالجنون، وتهديده له إن اتخذ إلها غيره بالسجن. وإتيان موسى عليه السلام بالآيات: العصا واليد. واتهام فرعون له بالسحر، وجمعه السحرة؛ ليكيد لموسى وما جاء به من الحق، وغلبة موسى عليه السلام لهم بما معه من الحق، وإيمان السحرة، وتهديد فرعون لهم: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٤٤.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ الآيات.

٤- وحيه عز وجل إلى موسى بالإسراء ببني إسرائيل، وخروج فرعون وقومه على أثرهم، ووحيه عز وجل إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر، فانفلق فأزلف موسى وقومه، ثم أغرق الله فرعون وقومه، وفي ذلك آية من آيات الله، ودلائل على تمام قدرته وعزته ورحمته.

٥- ثم ذكر الله نبأ إبراهيم عليه السلام، ودعوته لأبيه وقومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان استحقاقه وحده للعبادة، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وإعلانه عليه السلام عداوته لها؛ إلا رب العالمين الذي بيده الخلق والهداية والأمر كله، والتجاؤه عليه السلام إليه وضراعته له: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾.

٦- الوعد بتقريب الجنة للمتقين، والوعيد بإبراز الجحيم للغاوين، وما لهم فيها من التقريع والعذاب المعنوي والحسي، والندم والحسرة والتلاوم، وفي ذلك آية من آيات الله الدالة على تمام قدرته وعزته ورحمته.

٧- ثم ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح عليه السلام له حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما كان بينه وبينهم، وتكذيبهم له، وتهديدهم إياه بالرجم، وسؤاله ربه الفتح بينه وبينهم، وإنجائه ومن معه من المؤمنين وإغراقهم: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾.

ثم ذكر تكذيب عاد لنبيهم هود عليه السلام، حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما جرى بينه وبينهم، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم وتخويفهم عذاب يوم القيامة وعتوهم وتكذيبهم له، وإهلاكهم.

ثم ذكر تكذيب ثمود لنبيهم صالح عليه السلام، حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما كان بينه وبينهم، وتذكيره إياهم ما هم فيه من الأمن ورغد العيش،

وإتيانه بالناقة آية لهم، وتكذيبهم له وعقرهم الناقة، وأخذ العذاب لهم.

ثم ذكر تكذيب قوم لوط عليه السلام له حين أمرهم بتقوى الله، وأنكر عليهم إتيان الذكران من العالمين، وتهديدهم له بإخراجه. وإنجائه وأهله إلا عجوزاً في الغابرين، وتدمير الآخرين بمطر الحجارة فساء مطر المنذرين.

ثم ذكر تكذيب أصحاب الأيكة نبيهم شعيب عليه السلام حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته والوفاء بالكيل والوزن بالقسط، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم والإفساد في الأرض. ورميهم له بالسحر، وتكذيبهم إياه، وطلبهم أن يسقط عليهم كسفًا من السماء؛ تكذيبًا له، وأخذهم بالعذاب وفي كل ما ذكر آيات من آيات الله ودلائل على تمام قدرته وعزته ورحمته.

ثم ختم الله الكلام عن الأنبياء ورسالاتهم بالثناء على أفضل كتبه عز وجل، وآخرها نزولاً: القرآن الكريم وأنه نزل من عند الله عز وجل، من أصح طريق، على قلب سيد الخلق، وبأفصح لسان ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

٨- شهادة الكتب السابقة بصحة القرآن الكريم، وعلم علماء بني إسرائيل بذلك وشهادتهم به، وبيان قيام الحجة على العرب بكونه بلسانهم، إذ لو كان أعجميا ما آمنوا به بحجة أنه أعجمي، وبيان عتو المشركين وإجرامهم، وأنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم، الذي يستعجلونه، فيأتيهم بغتة، فلا يمكن إنظارهم، ولا أغنى عنهم ما كانوا يمتعون. وبيان أنه عز وجل ما أهلك من قرية إلا ولها منذرون؛ ذكرى وما كان عز وجل ظالمًا لهم.

٩- حفظ القرآن الكريم من الشياطين: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

١٠- نهيه ﷺ أن يدعو مع الله إلهًا آخر- وحاشاه عن ذلك-وهو نهي له ولأمته وأمره بإنذار عشيرته الأقربين، وخفض جناحه للمؤمنين، والبراءة من عمل من عصاه، والتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراه حين يقوم وتقلبه في الساجدين.

١١- بيان أن الشياطين إنما تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون

وأن الشعراء يتبعهم الغاوون، لكونهم في كل واد يهمون ويقولون ما لا يفعلون ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾.

١٢- التهديد والوعيد للظالمين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾، سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة، وبيان أنها حروف من حروف الهجاء لا معنى لها في حد ذاتها، لكن لها مغزى وحكمة، وهي التحدي وبيان إعجاز القرآن الكريم.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾، أي: هذه آيات القرآن البين الواضح في نفسه، المبين صدق الرسول ﷺ والمرسلين قبله عليهم السلام، والمبين للهدى من الضلال، والحق من الباطل، والحلال من الحرام، ولأهل السعادة من أهل الشقاء، وغير ذلك.

وأشار إلى آيات الكتاب بإشارة البعيد ﴿تِلۡكَ﴾، تعظيمًا لها. والخطاب: لكل من يصلح له.

و«ال» في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم، أفضل كتب الله تعالى وأعظمها، وأعظم الكتب على الإطلاق.

وسمي القرآن بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾ [عبس: ١٣- ١٦]؛ كما أنه مكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿لَعَلَّكَ﴾، «لعل» هنا للإشفاق، أي: لعلك يا محمد.

﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾، أي: قاتلها ومهلكها غمًّا، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنًا وأسفًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من عدم إيمانهم، أو لعدم إيمانهم، واستمرارهم على الكفر.

وفي هذا تسلية له ﷺ، أي: أشفق على نفسك فلا تهلكها، لعدم إيمان هؤلاء الكفار، ولا تحزن عليهم، فالهداية بيد الله تعالى، وما عليك إلا البلاغ، وقد بلغت.

قال ذو الرمة(١):

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ... لشيء نحته عن يديه المقادر

﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتسكين النون الثانية، وتخفيف الزاي: «نُنْزِلْ»، وقرأ الباقون بفتح النون الثانية، وتشديد الزاي: ﴿نُنَزِّلۡ﴾.

أي: إن نشأ ننزل على هؤلاء الكفار ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾، أي: علامة فيها تهديدهم بالعذاب عاجلًا، تهديدًا محسوسًا؛ ولهذا قال:

﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾، أي: فتظل أعناقهم، أي: رقابهم ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾، أي: ذليلين منقادين إلى الإيمان اضطرارًا وقهرًا، لا اختيارًا.

أي: لو شئنا لأنزلنا عليهم من السماء آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنا لا نشاء ذلك؛ ليكون الإيمان اختياريًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩].

ولأن الإيمان عند رؤية العذاب لا ينفع؛ كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾، أي: وما يأتي الكفار المكذبين ﴿مِّن ذِكۡرٖ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما يأتيهم من أيِّ ذكر.

و«الذكر»: القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٤٩)، «أساس البلاغة» للزمخشري (ص٣١).

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

لأنه تذكير للخلق بربهم وأسمائه وصفاته ووحدانيته وعظمته وما يجب له، وتذكير بالأحكام والأدلة والمواعظ والعبر، وغير ذلك، وذكر وشرف له ﷺ ولقومه؛ كما قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، «من»: لابتداء الغاية، أو بيانية، أي: منزل من عند الرحمن، ومن كلامه عز وجل، وفيه إشارة إلى أن إنزال هذا الذكر رحمة منه عز وجل بعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿مُحْدَثٍ﴾ صفة لـ ﴿ذِكْرٍ﴾، أي: ذكر حديث النزول من عنده عز وجل.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كانوا باستمرار عن هذا الذكر معرضين بقلوبهم وأبدانهم؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ﴾ [الأنبياء: ٢- ٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾، الفاء: تعليلية، و«قد» حرف تحقيق، أي: كذبوا بما جاءهم من الذكر والحق.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والسين: حرف استقبال، و«ما»: موصولة، أي: فسوف يأتيهم ويظهر لهم صدق أخبار الذي كانوا به يستهزئون، أي: يسخرون ويكذبون، من الوعيد في القرآن الكريم، وعلى لسان الرسول ﷺ، ويحق عليهم، ويقع بهم، ومن الوعد بنصرة الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

وهذا دأب أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام: التكذيب والاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ [يس: ٣٠].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، الهمزة: للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة، وقدمت الهمزة على الواو؛ لأن الاستفهام له الصدارة، أي: أو لم ينظروا إلى الأرض، ويتأملوا ويتفكروا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾، «كم» خبرية دالة على الكثرة، أي: أنبتنا كثيرًا فيها، ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: من كل صنف ونوع من أصناف وأنواع النباتات والثمار.

﴿كَرِيمٍ﴾، نفيس حسن نافع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إخراج النباتات الكثيرة من الأرض بأصنافها المتعددة وأنواعها المختلفة، وحسنها ومنافعها، ﴿لَأَيَةً﴾، اللام: للتوكيد، وأفرد «آية» لإرادة الجنس، أي: لدلالة عظيمة على كمال قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته، وقدرته التامة على إحياء الموتى بعد موتهم؛ كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر الكفار وأكثر الخلق مؤمنين، بل هم مصرون على الكفر مع بيان الآيات، وقيام الحجة عليهم بالأدلة والبراهين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أو: لكل من يصلح له.

﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، اللام: للتوكيد، و«العزيز» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

ومن عزته عز وجل أنه ينصر رسله وأتباعهم المؤمنين وينجيهم، وينتقم من

أعدائه المكذبين والكافرين ويهلكهم.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، اسم من أسمائه عز وجل، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يرحم بها عباده؛ رحمة خاصة، ورحمة عامة؛ فهو ذو الرحمة التي وسعت كل شيء، يتوب على من تاب وأناب إليه، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

٢- تعظيم آيات القرآن الكريم، والتنويه به وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- أن «الكتاب» إذا أطلق، فالمراد به: القرآن الكريم، أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله عز وجل.

٤- امتداح الله عز وجل لكتابه العزيز بوصفه بالبيان والوضوح في نفسه، وتبيينه الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، وتبيين صدق من جاء به، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٥- عناية الله تعالى بالنبي ﷺ، ودفاعه عنه، وحفظه له، وتسليته له فلا تذهب نفسه حسرات وحزنًا على عدم إيمان كفار قومه؛ فليس عليه إلا البلاغ، وقد بلغ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

٦- حرصه ﷺ على هداية قومه، وشدة ما يعانيه من المشقة والحزن وضيق الصدر بسبب عدم إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [النمل: ٧٠].

٧- ينبغي للدعاة إلى الله والمربين والموجهين- بعد بذل جهدهم- ألا تذهب أنفسهم حسراتٍ وغمًّا وحزنًا، على عدم قبول الناس للحق؛ لأن من اغتم لأجل ذلك انشغل بغيره عن نفسه، وربما صار همه ولاء الناس، فأفسد عليه هذا عبادته ونيته.

٨- قدرة الله تعالى التامة على إنزال آية من السماء تلجئ هؤلاء الكفار للإيمان، وتخضعهم، لو شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأن ماشاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

١٠- إثبات العلو لله تعالى، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات على جميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١١- تهديد هؤلاء المكذبين بإنزال آية تخضعهم وتضطرهم إلى الإيمان.

١٢- أن الله عز وجل شاء وأراد بحكمته أن يكون الإيمان اختيارًا لا اضطرارًا؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

١٣- إعراض الكفار عن كل ما يأتيهم من ذكر من الرحمن حديث النزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾.

١٤- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية، ومن رحمته عز وجل بعباده إنزال الكتاب عليهم، وإرسال الذكر إليهم.

١٥- تكذيب الكفار بما جاءهم من الحق، والوعيد والتهديد لهم؛ بأنه سوف يأتيهم ويظهر لهم صدق الذي كانوا به يستهزئون من القرآن وكلام الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

١٦- الإنكار على هؤلاء الكفار عدم النظر والتأمل في إحياء الأرض بعد موتها بالنباتات الكثيرة ذات الأصناف والأنواع المختلفة؛ وذات الحسن والبهجة والمنافع العظيمة؛ ليستدلوا بذلك على وحدانية الله عز وجل وقدرته التامة على بعث الناس بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾.

١٧- أن في إحياء الأرض بعد موتها بالنباتات الكثيرة المختلفة الأصناف والحسن والمنافع ونحو ذلك؛ دلالة عظيمة على وحدانية الله عز وجل، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

١٨- عدم إيمان كثير من الناس، مع قيام الحجة عليهم بالأدلة والحجج والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٩- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم غير مؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: «العزيز»، وما يدل عليه من صفة العزة التامة له عز وجل، ونصرته عز وجل لرسله وأوليائه، وإنجائهم، وانتقامه من أعدائه المكذبين الكافرين وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى: «الرحيم»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية، ومن رحمته سبحانه توبته على من تاب وأناب إليه، وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾.

٢٣- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة في حقه زيادة كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾.

حذر عز وجل نبيه ﷺ من إهلاك نفسه، لعدم إيمان كثير من المشركين من قومه، وإعراضهم عن الذكر وتكذيبهم، وأنكر عز وجل عليهم، ووبخهم على عدم نظرهم في الآيات الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، وقدرته التامة على بعث الناس بعد موتهم، وتوعدهم وهددهم، ثم أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء وما لقوا من أممهم من التكذيب والأذى؛ ومن ثم إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، تهديدًا للمشركين، وتسلية له ﷺ.

وقد ذكر الله عز وجل هذه القصص مبسوطة في سورة الأعراف وسورة هود؛ كما ذكرها في عدد من السور.

وبدأ هنا بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد بسطها في سورة طه وسورة القصص؛ كما أعادها وثناها في القرآن أكثر من غيرها؛ لما فيها من الحكم والمواعظ والعبر العظيمة، ولا غرو في هذا، فكتاب موسى «التوراة» أفضل الكتب بعد القرآن الكريم، وشريعته أعظم الشرائع بعد شريعة الإسلام، وهو عليه السلام أفضل الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾، أي: واذكر يا محمد حين نادى ربك موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، ودعاه وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم:٥٢].

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿وَإِذْ

نَادَىٰ﴾، أي: اذهب إلى القوم الظالمين، الذين تجاوزوا الحد في الظلم بالشرك والكفر والمعاصي، والاعتداء على عباد الله وظلمهم، وظلم أنفسهم، حتى صار الظلم سجية وصفة ثابتة لهم، وفي وصفهم بالظالمين تهيئة لموسى عليه السلام للاستعداد لهم ولمجادلتهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، بدل من قوله: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: قوم فرعون ملك مصر في عهد موسى عليه السلام، الذي ادعى الربوبية والإلهية، وعبّد قومه لغير الله، فاستخف بهم فأطاعوه.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، «ألا» أداة عرض وتحضيض، وفيها معنى التعجب، أي: قائلًا لهم: ألا يتقون؟ أي: ألا يتقون الله، ويخشون عذابه، فيتركوا ما هم عليه من الظلم؟ وقيل: الهمزة للاستفهام، و«لا» نافية.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: أخاف تكذيبهم لي، فلا يصدقوا أني رسول من عندك إليهم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، قرأ يعقوب بنصب القاف: «وَيَضِيقَ»، «وَلَا يَنْطَلِقَ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿وَيَضِيقُ﴾، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾.

أي: ويضيق صدري بسبب تكذيبهم لي، وكوني وحدي، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾؛ لأنه كان في لسانه عليه السلام لثغة وعقدة؛ ولهذا قال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾، أي: فابعث إلى هارون أخي معي بالرسالة، أي: أرسله معي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص: ٣٤]، ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ [طه: ٢٨- ٣٤].

وقد أجاب الله دعوته، وأعطاه سؤله، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

يَمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦]، إلى قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٢- ٤٣].

ولهذا قالوا: إن أعظم الناس نفعًا لأخيه وشفاعة له موسى مع أخيه هارون عليهما السلام؛ حيث سأل الله أن يجعل أخاه هارون نبيًّا ورسولًا معه، ووزيرًا ومعينًا له، فأجاب الله دعوته، وآتاه ما سأل.

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾، أي: ولهم علي ذنب في قتلي الرجل القبطي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

فعد قتله لهذا القبطي ذنبًا؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٥- ١٦].

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: فأخاف قتلهم إياي قبل تبليغ الرسالة إليهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل له: ﴿كَلَّا﴾، كلمة إبطال ونفي، أي: لا يقتلونك، أو لا تخف أن يقتلوك؛ فإنهم لا يتمكنون من ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى عليه السلام مع منابذته لفرعون غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه.

﴿فَٱذْهَبَا﴾، الخطاب لموسى وهارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، الباء: للمصاحبة، أي: مصاحبين لآياتنا ودلائلنا وحججنا الشرعية بالوحي، والكونية كالعصا واليد؛ الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدقكما وصحة ما أرسلتما به.

﴿إِنَّا مَعَكُم﴾، أي: إنا معكم معية خاصة بالكلاءة والحفظ والنصر والتأييد والتوفيق، ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾، أي: مستمعون لقولكما، وقول فرعون وقومه لكما، و﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أبلغ من «سامعون»؛ لما فيه من الدلالة على العناية بهما؛ ولهذا قالا؛ كما في الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ قال عز وجل: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾، أي: أنا وأخي رسولا رب العالمين، أي: كل منا رسول إليك من رب العالمين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٢-٤٤].

وقوله: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لإشعار فرعون من أول وهلة أن الربوبية ليست له، بل هي لله تعالى وحده.

﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾، «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: أُرسلنا إليك: أن ترسل معنا بني إسرائيل.

ويجوز أن تكون «أن» مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر محذوف، والتقدير: بأن أرسل معنا بني إسرائيل، أي: أطلقهم من أسرك وقبضتك وقهرك وتعذيبك؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ [طه: ٤٧].

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون معرضًا عن دعوة موسى وهارون له وطلبهما منه إرسال بني إسرائيل: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا﴾، الاستفهام: للتقرير أو للتقريع، أي: ألم ننعم عليك بتربيتك في منازلنا ﴿وَلِيدٗا﴾؟ أي: حين كنت وليدًا في مهدك.

﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: أقمت ومكثت فينا وعلى فراشنا من عمرك مدة من السنين أنعمنا عليك فيها.

﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾، الفعلة: المرة الواحدة من الفعل، وأبهم هذه الفعلة؛ للتعظيم، وأضافها إليه للتقرير، أي: قابلت إحساننا إليك، وإنعامنا عليك،

بفعلتك العظيمة التي لم يفعلها سواك؛ بأن قتلت منا رجلًا ظلمًا.

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنك من الكافرين بنا، الجاحدين المنكرين لنعمتنا عليك.

والمعنى: أفبعد هذه النعمة عليك؛ بتربيتك فينا وليدًا، ولبثك فينا من عمرك سنين، وبعد قتلك رجلًا منا- تأتي وتدعي أنك رسول رب العالمين، وتنكر ربوبيتي؟! وكان الأليق بك أن تأتي خاضعًا لنا، معترفًا بإفضالنا عليك، معتذرًا عن خطئك علينا.

﴿قَالَ﴾، موسى عليه السلام: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا﴾، «إذنْ» حرف جواب لا عمل له.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أني من الضالين، أي: من الجاهلين، أي: قبل أن ينعم الله علي بالرسالة والنبوة والوحي، وأعرف طريق الحق والهدى والرشاد؛ كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، أي: لم تهتد إلى هذا الشرع القويم.

وهذا اعتراف من موسى عليه السلام بأن ذلك حصل منه على وجه الضلال والجهل والخطأ، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦﴾ [القصص: ١٦].

﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ﴾، الفاء: عاطفة في الموضعين، أي: فهربت منكم، وخرجت من مصر إلى مدين، ﴿لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾، «لما» ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط.

أي: حين خفتكم، أي: حين خفت منكم أن تقتلوني، والخطاب لفرعون وملئه الذين ائتمروا على قتل موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القصص: ٢٠- ٢٢].

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾، أي: فأعطاني ربي الحكم والعلم والنبوة.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، أي: وجعلني قدرًا وشرعًا من المرسلين، الذين يبلغون رسالاته إلى الناس، وأرسلني إليك، أي: وليس لك أن تعترض وترد رسالتي إليك

بمجرد أنه وقع القتل مني ضلالًا وجهلًا قبل أن يرزقني ربي الحكم والرسالة.

ولم يقل: وجعلني رسولًا؛ لبيان أنه ليس بدعًا من الرسل.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، الواو عاطفة، و«تلك» إشارة إلى مقالة فرعون مانًّا على موسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

وأشار إليها بإشارة البعيد تحقيرًا لها في مقابل ما لحق ببني إسرائيل منه من الأذى؛ ولهذا قال: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾، أي: تُدِلّ بها علي، وتذكرني بها:

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أن» والفعل «عبدت» في تأويل مصدر في محل رفع عطف بيان للمبتدأ «تلك»، أي: تعبيدك بني إسرائيل، أو هو بدل من الهاء في «تمنها»، أو في محل جر بباء أو لام محذوفة، أي: بأن عبدت بني إسرائيل.

أي: جعلتهم عبيدًا لك بإذلالهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو سبب إلقاء أمي إياي في البحر؛ للسلامة من شَرِّك حتى قدر الله وصولي إلى بيتك، فكيف تعتبر تربيتك لي والحال هذه نعمة تُدِلّ بها عليَّ؟! وقدَّر بعضهم همزة استفهام تفيد التوبيخ، أي: أتلك نعمة... أي: ليست بنعمة.

قال ابن كثير[1]: «أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا تصرفهم في أعمالك، ومشاق رعيتك، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئًا بالنسبة إلى ما فعلته بهم».

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بقصة موسى عليه السلام، وما جرى له مع فرعون وقومه، وما لقي منهم من التكذيب والأذى، وإنجاء الله تعالى لموسى وقومه، وإهلاك فرعون وقومه، وفي ذلك تسلية له ﷺ تجاه من كذبه وكفر به من قومه، ووعيد وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ الآيات.

٢- إثبات نداء الله عز وجل، وتكليمه موسى عليه السلام؛ وإثبات نبوته

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٤٧.

ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٤- أن الله عز وجل أرسل موسى إلى فرعون وقومه؛ كما أرسله إلى بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾.

٥- بلوغ فرعون وقومه الغاية في الظلم؛ لوصف الله عز وجل لهم بـ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا أشد ظلمًا من دعوى الربوبية والألوهية، والكفر والشرك بالله، وعدم تقواه.

٦- أمره عز وجل موسى عليه السلام بالعرض على فرعون وقومه، وحضهما على التقوى، واستمالتهما إلى ذلك بالقول اللين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

٧- تخوف موسى عليه السلام أن يكذبه فرعون وقومه؛ لما عرف عنهم من التمرد والعتو والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى﴾.

٩- شكواه عليه السلام إلى ربه؛ خشية أن يضيق صدره بسبب تكذيبهم له وكونه وحده؛ لقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾.

١٠- شكواه عليه السلام إلى ربه عدم انطلاق لسانه؛ لما فيه من لثغة أو عقدة؛ لقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾.

١١- أن شكوى الحال إنما تكون إلى الله تعالى، فهو الذي إليه المشتكى ويرفع البلوى.

١٢- سؤاله عليه السلام ربه أن يرسل إلى هارون أخيه؛ ليكون معه وزيرًا ومعينًا؛ لقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

١٣- اعترافه عليه السلام بما حصل منه من ذنب في قتل القبطي، وخوفه من قوم

فرعون أن يقتلوه بذلك القتيل؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

١٤- جواز الخوف الطبيعي؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

١٥- تكفله عز وجل لموسى عليه السلام بحفظه، وطمأنته إياه بعدم تمكنهم من قتله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا﴾.

١٦- استجابة الله تعالى لموسى، وإرساله إلى هارون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]، وإثبات نبوة هارون عليه السلام ورسالته؛ لأمر الله عز وجل له ولموسى بالذهاب بآياته إلى فرعون وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

١٧- إثبات معيته عز وجل الخاصة لموسى وهارون؛ معية الحفظ والعناية والنصر والتأييد والتوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

١٨- إثبات صفة السمع والاستماع لله عز وجل، واستماعه عز وجل لما يقوله موسى وهارون لفرعون وقومه، وما يقال لهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

١٩- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ بضمير الجمع؛ لأنه سبحانه هو العظيم، ذو العظمة التامة.

٢٠- أمره عز وجل بإتيان فرعون، وإبلاغه أنهما رسولا رب العالمين، أرسلهما إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٢٢- أن مما أرسل به موسى وهارون إلى فرعون مع دعوته وتذكيره؛ مطالبته بإرسال بني إسرائيل، وإطلاقهم من أسره وقبضته وقهره وتعذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

٢٣- عناية الله تعالى ببني إسرائيل، وتخليصهم من إذلال فرعون وتعبيده إياهم.

٢٤- إعراض فرعون عن دعوة موسى وهارون، وسؤالهما إياه بني إسرائيل، إلى تقرير موسى للإدلال عليه بتربيته له وليدًا، وإقامته فيهم سنين من عمره، وقتله القبطي، وكفره نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

٢٥- أن موسى عليه السلام تربى في بيت فرعون حين كان وليدًا، ولبث فيهم من عمره سنين؛ لهذا لم ينكر موسى عليه السلام على فرعون قوله.

٢٦- فضيلة موسى عليه السلام وصدقه؛ لاعترافه على نفسه بقتل القبطي، واعتذاره أنه إنما فعل تلك الفعلة عن ضلال وجهل، قبل أن ينعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ويعرف طريق الهدى والرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

٢٧- عدم جواز القتل بغير حق، وأن من ارتكبه فهو من الضالين.

٢٨- فرار موسى عليه السلام بعد قتله القبطي، وخروجه من مصر إلى مدين خوفًا من فرعون وقومه أن يقتلوه؛ لقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

٢٩- منة الله تعالى على موسى بعد فراره من قوم فرعون، وخروجه من مصر إلى مدين؛ بالحكم والنبوة والرسالة؛ لقوله: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٣٠- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وما كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فموسى عليه السلام لما خرج من مصر خوفًا من فرعون وقومه، عوضه ربه خيرًا من ذلك؛ فوهب له حكمًا وجعله من المرسلين؛ ليعود إليها نبيًّا رسولًا إلى فرعون وقومه وإلى بني إسرائيل.

٣١- تحقير ما من به فرعون على موسى عليه السلام، من تربيته له وليدًا، ولبثه فيهم من عمره سنين، وأن ذلك لا يعد نعمة في مقابل تعبيده لبني إسرائيل وإذلاله إياهم؛ لقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

٣٢- إذلال فرعون لبني إسرائيل وجعلهم عبيدًا له ولقومه يسومونهم سوء العذاب؛ يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: لما قال له موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إنكارًا وجحودًا لربوبية الله تعالى ظلمًا وعلوًّا، أي: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟! أي: أنه لا رب ولا إله للعالمين غيري؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ومع جرأته على الله تعالى وتمرده وطغيانه، فهو يعلم بيقين صحة وصدق ما دعاه إليه موسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ﴾، أي: رب العالمين هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: خالق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه ومدبره، فالجميع عبيده خاضعون له.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: فآمنوا وأيقنوا به وحده، واليقين: التصديق الجازم.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾، أي: قال فرعون لمن حوله من ملئه وجنوده متعجبًا، ومتهكمًا ومستهزئًا، ومكذبًا لموسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي: ألا تستمعون وتعجبون مما يقول هذا في زعمه أن رب العالمين رب السموات والأرض، وأن لكم ربًّا وإلهًا غيري؟! وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم موسى مؤكدًا- في تحد صارخ لفرعون وملئه- عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: هو عز وجل رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما، ربكم ورب آبائكم الأولين، رغم أنوفكم، هو خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، سواء أيقنتم أم تعجبتم وكذبتم.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، «إن» واللام: للتوكيد. وقصد بقوله: ﴿رَسُولَكُمُ﴾- مع تكذيبه برسالته- السخرية والتهكم به، بقرينة قوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾، أي: مصاب بمس من الجنون، يهذي بما لا يدري في دعواه أن ثم ربًّا وإلهًا غيري، وهذا ديدن المكذبين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

وقوله: ﴿رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ دون أن يقول: «رسولنا الذي أرسل إلينا» علو وتكبر منه، وزيادة في التهكم.

﴿قَالَ﴾ موسى مؤكدًا تأكيدًا تامًّا عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، أي: رب مشرق الشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب ومغربها، ورب ما بينهما من جميع المخلوقات، أي: خالق ذلك كله، ومالكه، والمتصرف فيه، فانتقل عليه السلام في إثبات عموم ربوبية الله تعالى من تأكيد إلى آخر، وكما قال تعالى في سورة طه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي عقول تهديكم إلى الحق، وإلى معرفة عموم ربوبية الله عز وجل لجميع الخلق، أي: فآمنوا به وحده.

وفي هذا إيماء وتنبيه إلى أن فرعون وملأه هم الذين لا يعقلون، وأن الذي رموا به موسى من الجنون هو داؤهم، وكما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ۝٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝٣٧﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩﴾:

لما غُلب فرعون، وأسقط في يده، وقامت عليه الحجة بالبيان والعقل؛ عدل إلى التهديد والوعيد لموسى، باستعمال جاهه وقوته وسلطانه، معتقدًا أن ذلك نافع له، ونافذ في موسى عليه السلام، وهذا مسلك العاجزين عن رد الحجة بالحجة والبرهان، يعدلون إلى التهديد بالقوة والسلطان.

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون متهددًا ومتوعدًا موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن اتخذت إلهًا غيري، أي: جعلت وعبدت معبودًا غيري.

﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لأجعلنك من جملة المسجونين على الدوام، ولم يقل: « لأسجننك»؛ زيادة في تهديد موسى، بأن هناك سجناء، وأنه قادر على سجن الناس.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾، الهمزة للاستفهام، وهو مشوب بالإنكار والاستغراب، أي: أتتوعدني بالسجن وترد دعوتي ولو أتيتك ﴿بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾؟ أي: ببرهان بيِّن قاطع واضح مظهر أني رسول الله، ودال على صحة وصدق ما جئت به.

كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

﴿قَالَ﴾ فرعون متحديًا لموسى: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فأت بهذا الشيء المبين إن كنت من الصادقين فيما تقول، وما أظنك صادقًا.

﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ﴾، أي: فألقى موسى عصاه من يده على الأرض.

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾، الفاء عاطفة في الموضعين، و«إذا» في الموضعين هي

الفجائية، و«الثعبان»: الحية، ونكر للتعظيم والتهويل، أي: فإذا هي حية ضخمة طويلة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّن ظاهر واضح لكل أحد، لا لبس فيه ولا تخييل.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، أي: أخرجها من جيب قميصه.

﴿فَإِذَا هِىَ﴾، أي: فإذا هي فجأة ﴿بَيْضَآءُ﴾، أي: تتلألأ بياضًا ونورًا مخالفًا لون جلده، من غير برص؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾، أي: لكل ناظر.

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون مكذبًا ومعارضًا للحق ومن جاء به، ومعاندًا ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾، أي: لجنوده ومرؤوسيه وجلسائه: ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾، يعني موسى عليه السلام ﴿لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، اللام للتوكيد، أي: عليم بالسحر، بارع فيه، فروَّج علهم فرعون أن هذا من قبيل السحر، لا من قبيل الآيات والمعجزات؛ ليصدهم عن التأمل فيها والتفكر، كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف: ١٠٩].

أي: أنهم لما قال لهم فرعون ذلك، قالوه وأعادوه بلفظه للموافقة التامة له.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ«يريد»، أي: يريد إخراجكم من أرضكم، أي: أن قصده التوصل إلى إخراجكم من أرضكم ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾، الباء للسببية، أي: بسبب ما يموه به من سحره على قلوبكم وقلوب الناس؛ ليكثر أتباعه وأعوانه، فيغلبكم على أرضكم، ويخرجكم منها.

ولم يقل: يريد أن يخرجني، أو: أن يخرجنا؛ ترفعًا وتعاظمًا أن يبدو أمام موسى بمظهر الضعيف بل قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾.

وقد عمد في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ إلى تهييجهم وتحريضهم على تكذيب موسى ومخالفته؛ بإثارة حمية الأوطان في نفوسهم؛ لأن حب الأوطان مركوز في الفطر، حتى قيل: إنه من الإيمان. وقد وقف المصطفى عليه السلام على

الحزْوَرَة مخاطبًا مكة قائلًا: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(١).

قال الشاعر:

ولي وطـــن آليـــت ألا أبيعـــه ... ولا أرى غـيري لـه الـدهر مالكـا
عمـرت بـه شرخ الشـباب مـنعمًا ... بصـحبة قـوم أصـبحوا في ظلالكـا
وحبـب أوطـان الرجـال إلـيهم ... مـآرب قضـاها الشـباب هنالكـا
إذا ذكـــروا أوطـــانهم ذكـــرتهمُ ... عهـود الصـبا فيهـا فحنـوا لـذالكا
فقـد ألفتــه الـنفس حتـى كأنــه ... لهـا جسـد إن بـان غـودر هالكـا(٢)

وقال الآخر:

بـلادي وإن جـارت عـلي عزيـزة ... وأهـلي وإن ضـنوا عـلي كـرام(٣)

وقال الآخر:

بـلادي هواهـا في لسـاني وفي دمـي ... يمجـدها قلبـي ويـدعو لهـا فمـي
ولا خـير فـيمن لا يحـب بـلاده ... ولا في حليـف الحـب إن لم يتـيم
ومـن تـؤوه دار فيجحـد فضـلها ... يكـن حيوانًـا فوقـه كـل أعجـم
ألم تـر أن الطـير إن جـاء عشـه ... فـــآواه في أكنافـــه يـــترنم
وليس مـن الأوطـان مـن لم يكـن لهـا ... فـداء وإن أمسـى إلـيهن ينتمـي
عـلى أنهـا للنـاس كالشـمس لم تـزل ... تضـيء لهـم طرًّا وكـم فـيهمُ عمـي
ومن يظلـم الأوطـان أو ينـس حقهـا ... تجئـه فنـون الحادثـات بـأظلم

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب صحيح».

(٢) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/ ١٨٢٦).

(٣) هذا البيت بدون نسبة. انظر: «تفسير المراغي» (٢٨/ ٤٢)، «البلاغة الواضحة» (ص٨٧).

وما يرفع الأوطان إلا رجالها وهل يترقى الناس إلا بسلم؟
«ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم»(١)

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، الفاء عاطفة، و«ماذا»: اسم استفهام، أو: «ما» اسم استفهام، و«ذا» اسم موصول، أي: فما الذي تأمرون به؟ أشيروا عليَّ، ماذا أصنع به؟

﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قال الملأ لفرعون لما استشارهم ماذا يأمرونه أن يصنع بموسى؟ ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، أي: أخره وأخاه، أي: أجل البت في أمرهما.

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾، المدائن: جمع مدينة، أي: وأرسل في مدائن مملكتك وأقاليمها ﴿حَـٰشِرِينَ﴾ جامعين، أي: جنودًا يجمعون السحرة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾ [الآية: ١١١]

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ جواب الأمر: «ابعث»، أي: يأتوك بكل سحار متخصص بالسحر، ممارس له.

﴿عَلِيمٍ﴾، أي: عليم بالسحر، ماهر به متقن له؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الآية: ١١٢].

والمعنى: أجله وأخاه، واجمع السحرة الممارسين للسحر، الماهرين به؛ لكي يغالبوا موسى، ويأتوا بمثل ما جاء به من السحر، فتغلبه أنت، وتكون لك النصرة والتأييد.

الفوائد والأحكام:

١- إنكار فرعون ربوبية الله تعالى للعالمين، زعمًا منه أنه لا رب غيره، ولا إله سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩].

٢- إثبات ربوبية الله تعالى للعالمين، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

(١) هذه الأبيات لمصطفى صادق الرافعي، والبيت الأخير مضمن فيها من شعر زهير. انظر: «ديوان الرافعي» (ص٢٣).

٣- أنه إنما يقر بربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق وإلهيته أهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

٤- تعجيب فرعون لمن حوله من قول موسى لما سأله: وما رب العالمين؟ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾، وتهكمه واستهزاؤه به بقوله لمن حوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي: ألا تستمعون إلى ما يقول هذا في زعمه أن له ربًّا وإلهًا غيري؟

٥- تأكيد موسى عليه السلام عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾.

٦- سخرية فرعون من موسى، ورميه له بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾، وهذا ديدن المكذبين للرسل عليهم السلام.

٧- تأكيد موسى عليه السلام مرة ثانية عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾.

٨- أنه إنما يهتدي إلى الحق، ويعرف عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ ذوو العقول الذين ينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٩- أن فرعون وملأه أحق بوصف الجنون وعدم العقل؛ لعدم إيمانهم بربوبية الله تعالى وإلهيته لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فمفهوم هذا: أن من لم يؤمن بذلك فليس بعاقل.

١٠- لجوء فرعون لما غُلب، وأُسقط في يده، وانقطعت حجته؛ إلى تهديد موسى بأخذه بالقوة، وتوعده بالسجن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾، وهذه حيلة العاجز.

١١- إنكار موسى على فرعون توعده له بالسجن، ورد دعوته مع ما جاء به من الحجة والبيان والبرهان القاطع على أنه رسول الله، وعلى صحة ما جاء به وصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾.

١٢- مبادرة فرعون- لخبث نيته وسوء طويته- إلى التشكيك بما جاء به موسى من

الآيات والمعجزات قبل أن يُظهرها له؛ لقوله: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وكأنه يقول: وما إخالك من الصادقين.

١٣- أن من أعظم الآيات والمعجزات الكونية التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام: انقلاب عصاه حية عظيمة، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء تتلألأ لكل ناظر؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

١٤- اتهام فرعون لموسى عليه السلام بالسحر، وأنه عليم به، بارع فيه؛ ليصد الناس عن التأمل فيما جاء به من الآيات والمعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

١٥- إثارة فرعون في ملئه وقومه حمية الديار والأوطان، بزعمه أن موسى يريد بما جاء به إخراجهم من أرضهم وأوطانهم، بالتمويه على قلوب الناس بذلك؛ ليكثر أتباعه، وتكون له الغلبة عليهم، فيخرجهم من أوطانهم؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾.

١٦- استشارة فرعون ملأه: ماذا يأمرونه أن يفعل في موسى؟ لقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

١٧- إشارتهم عليه بتأجيل البت في أمر موسى وأخيه، وجمع السحرة المهرة من جميع مدائن مملكته؛ ليغالبوه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

١٨- كثرة السحرة، ورواج السحر في عهد موسى عليه السلام؛ ولهذا آتاه الله من الآيات والمعجزات ما هو من جنس ذلك؛ لإبطاله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾:

ذكر الله عز وجل هذه المناظرة بين موسى عليه السلام والسحرة في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وفي هذه السورة.

قوله: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨﴾، أي: فجمع السحرة بأمر فرعون من مدائن مصر وأقاليمها كلها، وكانوا جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا.

﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: لوقت يوم معلوم، وهو يوم زينتهم وعيدهم ضحى؛ كما حدد موسى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه: ٥٩].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩﴾، «هل» للاستفهام، ومعناه الأمر بالاجتماع وطلب الإسراع فيه، أي: وقيل للناس كلهم: اجتمعوا في ذلك اليوم الموعود.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، أي: رجاء أن نتبع السحرة، أو: لأجل أن نتبع السحرة.

﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، «هم»: ضمير فصل للتوكيد والحصر، لا محل له من الإعراب، ولم يقولوا: لعلنا نتبع الحق، بل لم يقولوا: لعلنا نتبع الغالب.

وفي هذا تبييت منهم لعدم اتباع موسى وإن غَلَب، وفيه وفي قولهم: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إشارة إلى ثقتهم العمياء بغلبة السحرة؛ فكأنهم يقولون: اجتمعوا لننظر غلبة السحرة فنتبعهم؛ إذ لو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم ونعرف الصواب.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ لفرعون، أي: وصلوا إليه، واجتمعوا لديه.

﴿قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ﴾ غرورًا منهم وتعاليًا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؛ الهمزة للاستفهام، و«إن» حرف توكيد ونصب، واللام للابتداء والتوكيد، و«أجرًا»: اسم «إن» منصوب، وفي سورة الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: ١١٣] دون همزة الاستفهام.

والمعنى: أتجعل لنا أجرًا وجزاء إن كنا نحن الغالبين بسحرنا لما جاء به موسى؟

﴿قَالَ نَعَمْ﴾، أي: قال فرعون: ﴿نَعَمْ﴾، و«نعم» حرف جواب، أي: نعم، لكم أجر وجزاء وثواب، ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، بحذف «إذنْ»، واللام في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ للتوكيد.

والمعنى: وإنكم لمن المقربين عندي إذا غلبتموه. فوعدهم بالأجر، وتقريبهم عنده، وجعلهم من جلسائه؛ تشجيعًا لهم؛ ليزداد نشاطهم، ويبذلوا جهدهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٥- ١١٦]، وفي سورة طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ [طه: ٦٥- ٦٦].

أي: قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، «ما» موصولة تفيد العموم، أي: ألقوا كل الذي تريدون إلقاءه، وكل ما في جعبتكم، والأمر للإذن لهم مع التحدي؛

لجزمه ببطلان كل ما جاؤوا به لمعارضة الحق.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. والحبال: جمع حبل، والعصي: جمع عصا، وهذه الحبال والعصي يلقونها ليوهموا الناس بسحرهم أنها حيات وثعابين، حتى موسى عليه السلام أوجس منها خيفة، لما رآها تقبل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه:٦٦-٦٨].

﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾، الباء: للقسم، أي: نقسم بعزة فرعون، أي: بقوته وقهره، ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، اللام: للتوكيد.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ بأمر الله تعالى له، ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾، قرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف: «تَلَقَّفُ»، أي: تبتلع بسرعة وتأخذ وتختطف.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: كل الذي يأفكونه، و«الإفك»: الكذب، أي: كل الذي يعملونه من الكذب والتزوير، والتمويه على الناس، والتخييل لهم، أي: كل ما ألقوه من الحبال والعصي؛ لأنها كلها إفك وكذب، وزور وباطل، لا يقاوم الحق، ولا يثبت أمامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٦- ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٦- ١١٩].

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾، لربهم، لما رأوا هذه الآية العظيمة، والمعجزة الباهرة؛ لتيقنهم- وهم أعلم الناس بالسحر- أن ما جاء به موسى ليس بسحر، وإنما هو من الآيات والمعجزات الكونية التي يؤيد الله بها رسله وأنبياءه عليهم السلام.

وفي قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ولم يقل: فسجد السحرة، إشارة إلى قوة

اندفاعهم إلى السجود، وسرعة مبادرتهم إليه، كأنهم ألقوا إلقاء بدون اختيار.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾، أي: صدقنا به، وانقدنا له ظاهرًا وباطنًا، بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا، وهو الله عز وجل، وبهذا أبطلوا ربوبية فرعون، كما يزعم بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]. وآمنوا برب موسى وهارون، وصدقوا برسالتهما.

فكان إيمانهم- في هذا المجمع العظيم- قاصمة الظهر لفرعون وملئه، وحجة دامغة، وبرهانًا قاطعًا على صدق موسى وصحة ما جاء به.

جمعهم فرعون وجاء بهم؛ ليغالب بهم موسى، ويبطل بهم الحق، فإذا هم يؤمنون وينتصر بهم الحق، كانوا في أول النهار يقسمون بعزة فرعون: إنا لنحن الغالبون، وفي آخره سجَّدًا مؤمنين برب العالمين، رب موسى وهارون.

جمع الناس كلهم؛ ليشهدوا غلبته وغلبة سحرته لموسى وما جاء به، فإذا هم يشهدون بطلان أمره، وغلبة موسى وصدقه، وصحة ما جاء به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٤٩- ٥١].

لما آمن السحرة- وهم الذين جاء بهم فرعون لينتصر بهم ويغالب موسى- أُسقط في يد فرعون، وخرج من صوابه، فأرعد وأزبد، وتهدد وتوعد، فقال:

﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الآية: ١٢٣]، أي: آمنتم لموسى وصدقتموه فيما جاء به، وانقدتم له. والاستفهام: للإنكار والتوبيخ.

﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾، «أن» والفعل «آذن» في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى قبل، أي: قبل إذني لكم، وكأنهم عبيده أو عبيد أبيه؛ لأنه قد قهرهم واستذلهم بقولته وسلطانه وظلمه وغشمه.

﴿إِنَّهُۥ﴾، يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: إن موسى هو كبيركم أيها السحرة الذي علمكم السحر.

فيا سبحان الله! بالأمس يجمع السحرة ويشجعهم ليغالبوا موسى، ويفتخر بهم وينتصر، واليوم لما آمنوا بموسى وما جاء به من الحق نكص وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾!

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم، لقسم مقدر، أي: فوالله لسوف تعلمون. وهذا وعيد منه وتهديد لهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ عطف بيان على جملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ متخالفة؛ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ كما في حد الحرابة، أو العكس، و«التقطيع»: المبالغة في القطع، وكونه حتمًا بلا هوادة.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، «الصلب»: أن يربط المصلوب على جذع نخلة أو خشبة قائمًا ممدود اليدين حيًّا ويترك حتى يموت، أو يقتل ثم يصلب؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١].

والتصليب: المبالغة في الصلب بحيث يكون حتمًا وبلا هوادة.

فتوعَّدهم بأعظم العقوبات وأشدها، وهي تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٤]، وقال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ﴾، الضير: الضر، أي: لا ضرر علينا، أي: لا يضرنا وعيدك، ولا نبالي به، افعل ما تريد.

وهذا من أعظم التحدي لفرعون أعتى أهل الأرض؛ وذلك لقوة إيمانهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢]، ولهذا قالوا هنا:

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، تعليل لنفي الضر، أي: لأنا إلى ربنا منقلبون، أي:

راجعون فيجازينا أعظم الجزاء؛ وهذا كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ۝١٢٦﴾ [الآية: ١٢٥- ١٢٦].

﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، «أن» والفعل «يغفر» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نطمع»، أي: إنا نرجو أن يتجاوز لنا ربنا عن ذنوبنا وسيئاتنا ويسترها؛ من الكفر والسحر وغير ذلك؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

وهذا هو المقصود من قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، «أن» للسببية، أي: بسبب أن كنا أول المؤمنين من قومنا القبط، فلم يبالوا بفرعون ولا بوعيده وتهديده؛ لأن مرجعهم إلى الله تعالى، وما عنده خير وأبقى، وطمعًا أن يغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم على سبقهم قومهم للإيمان؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٤- ٧٦].

وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب، قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- جمع السحرة كلهم لوقت معلوم- هو يوم الزينة- لمناظرة موسى عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومغالبته؛ لقوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨﴾.

٢- جمع الناس كلهم ليشهدوا تلك المناظرة، ويشاهدوا غلبة السحرة لموسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾.

٣- أن هدف فرعون وأعوانه بالدعوة إلى هذا الجمع الكبير وهذه المناظرة: إبطال ما جاء به موسى، وإظهار غلبة السحرة، واتِّباعهم، وليس لمعرفة الحق والصواب؛ لقولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾.

٤- اغترار السحرة بادئ الأمر بما معهم من السحر، واعتقادهم أن الغلبة لهم؛ لطلبهم الأجر من فرعون على ذلك؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾.

٥- وعْده لهم بالأجر، وتقريبهم عنده، حفزًا لهم؛ ليبذلوا قصارى جهدهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾.

٦- أمر موسى عليه السلام لهم بدءًا بإلقاء ما هم ملقون من السحر؛ ثقة بأن ما معه من الحق سيبطل كيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ۝٤٣﴾.

٧- إلقاؤهم حبالهم وعصيهم، وإقسامهم بعزة فرعون أن الغلبة لهم؛ غرورًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾.

٨- إلقاؤه عليه السلام عصاه فإذا هي تبتلع كل ما اصطنعوه وموَّهوا به على الناس من السحر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝٤٥﴾.

٩- مبادرة السحرة إلى السجود لربهم تعظيمًا وخضوعًا له؛ لما رأوا هذه الآية العظيمة، والمعجزة الباهرة، الدالة على صدق موسى وصحة ما جاء به، وإعلانهم أمام الملأ، وهذا الجمع العظيم إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾.

١٠- قدرة الله تعالى التامة على تقليب القلوب؛ فهؤلاء أصبحوا كفارًا سحرة، وأمسوا أنقياء وشهداء بررة.

١١- أن الحق يعرف بضده، فهؤلاء السحرة لمعرفتهم بالسحر وضروبه، عرفوا

أن ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات ليس بسحر، وكما قيل:

.... وبضدها تتبين الأشياء[1]

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وربوبيته الخاصة لموسى وهارون وأوليائه المؤمنين؛ لقول السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ وقولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ [طه:٧٣].

١٣- غضب فرعون وسخطه الشديد على السحرة بسبب إيمانهم، وإنكاره ذلك عليهم؛ لقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

١٤- شدة تسلط فرعون على قومه، وقهره لهم، وتعبيدهم له بالقوة؛ لقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فحجر عليهم حتى في معتقدهم.

١٥- خروج فرعون من صوابه وعقله لما سجد السحرة لربهم رب العالمين وآمنوا به؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وهذا لا يقوله عاقل، كيف يكون كبيرهم موسى وهم سحرته، جمعهم؛ ليغالب بهم موسى، وموسى عليه السلام لا يعرفهم، ولم يلتق بهم قبل هذا؟!

١٦- شدة جبروت فرعون؛ لتوعده وتهديده إياهم بأغلظ العقوبات، بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم جميعًا؛ لقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١٧- عدم مبالاة السحرة بوعيده وتهديده؛ لإيمانهم بالبعث، ويقينهم بأنهم راجعون إلى الله، وبعظيم ما عنده لهم من أجر الإيمان والشهادة، وطمعهم بمغفرته خطاياهم، وبأن فرعون إن قتلهم إنما يقضي هذه الحياة الدنيا الفانية؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ

---

(١) هذا شطر بيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ١/ ٢١ والبيت بتمامه:

ونـذيمهم وبهـم عرفنـا فضـله وبضـدها تتبيـن الأشـياء

ومعنى «ونذيمهم»، أي: ونعيبهم.

وانظر: «شرح ديوان المتنبي» (١/ ٢١٤)، «الحماسة المغربية» (١/ ٤٧٣).

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾، وقولهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢].

١٨- أن الحذِر قد يؤتى من مأمنه؛ ففرعون كان معتمدًا على سحرته في مغالبته لموسى، آمنًا منهم مطمئنًا إليهم، فإذا هم يؤمنون، ويُسقَط في يده.

١٩- أن مرد الخلائق ومنقلبهم إلى الله تعالى؛ إليه إيابهم، وعليه حسابهم.

٢٠- أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب هان في سبيله كل شيء، فهؤلاء السحرة لما آمنوا أعلنوها صريحة، ولم يبالوا بفرعون مع شدة بطشه وظلمه، بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢].

٢١- إثبات صفة المغفرة لله تعالى، وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

٢٢- ينبغي للمؤمن إحسان الظن بربه، والتعلق به، ورجاء مغفرته ورحمته، مع إحسان العمل؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، وهذا يدل على رجائهم بالله.

٢٣- أن السبق إلى الإيمان من أسباب المغفرة، وأن هؤلاء السحرة هم أول المؤمنين من قوم فرعون «القبط»؛ لقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٤- حكمة الله تعالى ومشيئته النافذة ورحمته وتوفيقه لمن أراد هدايته، فقد كان هؤلاء السحرة في أول النهار يقسمون بعزة فرعون، وفي آخره سجدوا مؤمنين برب العالمين.

٢٥- فضل المبادرة إلى الإيمان والأعمال الصالحة؛ لأنها سبب لمغفرة الذنوب، وستر العيوب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر: «أَنِ اسْرِ» بهمزة وصل، فعل أمر من «سَرَى»، وبكسر نون «أنِ» لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بهمزة القطع: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾، و«أن»: تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن أسر، أو في محل نصب مفعول لـ«أوحينا».

أي: وأوحينا إلى موسى وأمرناه أن سر ليلًا ببني إسرائيل من أرض مصر؛ لإخفاء أمرهم، وذلك لما أراد الله تخليصهم من قهر فرعون، وإهلاكه وقومه.

والمراد بالعبودية في قوله: «عبادي»: العبودية الخاصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، أي: إن فرعون وجنوده سيتبعونكم، ويسيرون على إثركم؛ طلبًا لكم؛ للانتقام منكم وعقابكم.

وفي هذا ما يشبه التعليل لكون السير أول الليل، وفيه ما يوحي بالحث على الإسراع في السير؛ خوفًا من الطلب؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ [طه: ٧٧-٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؛ ليجمعوا له الجيش؛ ليخرج بهم في طلب بني إسرائيل ويتبعهم ويوقع بهم، لما أخبر بسيرهم.

وقد جعل هؤلاء الحاشرين كالفزَّاعة، فبالأمس بعثهم ليجمعوا له السحرة ليُغالب بهم ما جاء به موسى من الحق ويبطله، ثم جمع الناس ليشهدوا غلبته وسحرته، فخاب ظنه، وبطل سعيه.

واليوم يرسلهم ليجمعوا له الجيش؛ ليخرج بهم في أثر بني إسرائيل، فيكون ذلك سببًا في هلاكه وجنوده.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾، أي: وقال لهؤلاء الحاشرين، أو لجنوده، أو لهما معًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني موسى وبني إسرائيل، ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾، اللام: للتوكيد، أي: إن هؤلاء لطائفة حقيرة ضعيفة.

﴿قَلِيلُونَ﴾، أي: قليل عددهم. وهذا من باب الإغراء، والتشجيع للخروج لطلبهم؛ لأنهم ضعيفون حقيرون من حيث الكيفية، وقليلون من حيث الكمية.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، اللام في قوله: ﴿لَغَآئِظُونَ﴾ لام الابتداء للتوكيد، و«غائظون»: جمع «غائظ»، والغيظ: أشد الغضب، قال تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أي: فاعلون ما يغيظنا بين وقت وآخر، وفي خروجهم من مصر، فلا بد من التخلص منهم.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن ذكوان عن عبدالله بن عامر بألف بعد الحاء: ﴿حَٰذِرُونَ﴾: جمع «حاذر» اسم فاعل، وقرأ الباقون بحذف الألف: «حَذِرُونَ»، جمع «حَذِرٍ» على وزن «فَعِلٍ» صيغة مبالغة.

أي: وإنا لجميع متيقظون مستعدون للحوادث، فطنون مما عسى أن يكون من سيئ العواقب، وهكذا يجب أن نكون على حذر كل وقت من هؤلاء، فهم أعداء

للجميع، والمصلحة مشتركة.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾، أي: فأخرجنا فرعون وقومه بأمرنا الكوني، وقدرتنا التامة، بسبب كفرهم وعتوهم وعنادهم وتكذيبهم موسى عليه السلام وما جاء به من الآيات البينات.

﴿مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: من بساتين مصر، وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة على ضفاف النيل..

﴿وَكُنُوزٍ﴾، أي: خزائن أموال كثيرة من الذهب والفضة.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي: إقامة في منازل حسان تعجب الناظرين، في مجتمع طيب حسن كثير الخير والنعم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: إخراجنا كذلك كما وصفنا.

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: وأورثنا هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل بعد إغراق فرعون وقومه؛ كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥- ٦].

ولا منافاة بين قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩﴾، وبين قوله ﷺ في الغنائم: «ولم تحل لأحد قبلي»[1]؛ لأن هذا توريث قدري لم يحصل بحرب، وإنما

(١) سبق تخريجه.

أهلك الله فرعون وقومه، فبقيت ديارهم لبني إسرائيل، ولا يسمى هذا غنيمة شرعًا.

وقد قيل: إن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها، وعليه يكون المعنى: أورثناهم جنات وعيونًا وكنوزًا ومقامًا كريمًا مثل ذلك في بلاد الشام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾، أي: فأتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل، وساروا في أثرهم، ولحقوهم، ﴿مُّشْرِقِينَ﴾؛ حال، أي: وقت شروق الشمس وطلوعها، متجهين إلى المشرق جهة البحر.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾، أي: رأى كل فريق منهم الآخر، والمراد: جمع موسى، وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾، أي: بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: سيدركنا فرعون وجنوده، ويلحق بنا، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سِيفِ البحر الأحمر «بحر القلزم»، فصار البحر أمامهم، وفرعون وجنوده من ورائهم؛ ولهذا قالوا شاكِينَ لموسى ومتخوفين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بالتأكيد.

﴿قَالَ﴾؛ موسى بلسان المتوكل على ربه تمام التوكل، الواثق كل الثقة بمعيته له وهدايته ونصره، مثبتًا أصحابه ومطمئنًا لهم: ﴿كَلَّا﴾، حرف ردع وزجر، ومفادها هنا: النفي، أي: إنكم لن تُدرَكوا.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، تعليل لقوله: ﴿كَلَّا﴾، أي: لأن معي ربي بمعيته الخاصة، بالنصر والتأييد والتوفيق، ﴿سَيَهْدِينِ﴾، أي: سيدلني إلى ما فيه نجاتي ونجاتكم، ويحفظني وإياكم، والسين للتحقيق والقرب.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾؛ «أن» تفسيرية، أو مصدرية،

أي: بأن اضرب.

﴿فَٱنفَلَقَ﴾، أي: فضربه، فانفلق، أي: انفرق اثني عشر طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾؛ الفِرق بكسر الفاء وسكون الراء: الجزء المفروق منه، أي: فكان كل جزء وقطعة من البحر.

﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: كالجبل العظيم؛ لكبره وارتفاعه، ولعمق البحر، أي: وصار ما بين هذه الطرق من المياه كالأطواد، أي: كالجبال اليابسة، وصار كل ما بين كل فِرقين كالفج بين الجبلين يابسًا.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾، أي: قربنا وأدنينا، ﴿ثَمَّ﴾ هناك مكان انفلاق البحر، ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾؛ فرعون وقومه، أي: قربنا فرعون وجنوده إلى مكان انفلاق البحر.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾، أي: وأنجينا موسى من الغرق والذين معه أجمعين، فلم يغرق منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾، أي: ثم بعد إنجاء موسى ومن معه وخروجهم من البحر سالمين أجمعين أغرقنا الآخرين؛ وهم فرعون وقومه، بعد أن اكتملوا في البحر داخلين، ارتطم عليهم البحر، فلم ينج منهم أحد من الغرق؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: ٢٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في فلق البحر، وإنجاء موسى ومن معه من المؤمنين، وإغراق فرعون ومن معه من الكفار المكذبين بإطباقه عليهم.

﴿لَءَايَةً﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على تمام قدرته تعالى وعظمته ووحدانيته، وصدق موسى عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها تحذير للمكذبين، وبشارة للمؤمنين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر الناس والخلق مؤمنين، بل

أكثرهم كفار ضلال، مع قيام الحجة عليهم، وبيان المحجة لهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾، اللام: للتوكيد، أي: وإن ربك يا محمد لهو العزيز الرحيم، فبعزته أهلك فرعون ومن معه، وبرحمته أنجى موسى ومن معه.

الفوائد والأحكام:

١- وحي الله عز وجل إلى موسى عليه السلام- بعد أن طال مقامه بمصر، وأقام على فرعون وملئه الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، ولم ينجع ذلك فيهم- بالخروج ببني إسرائيل من مصر؛ إرهاصًا لإهلاك فرعون وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾.

٢- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾.

٣- إعلام الله عز وجل لموسى وإخباره بأن فرعون سيتبعهم بجنوده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، وفي هذا حث لهم على الإسراع.

٤- حشر فرعون جميع جنوده؛ ليتبع بهم موسى وبني إسرائيل وينتقم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

٥- تحقير فرعون لبني إسرائيل، وتقليله لهم؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴿٥٤﴾﴾.

٦- إغاظة بني إسرائيل لفرعون من وقت لآخر، وفي خروجهم من مصر وشدة غضبه عليهم؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٧- امتداح فرعون لنفسه وجنوده وملئه بالحذر، وتحريضهم عليه، وإيصاؤهم به؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ولم ينفعه ذلك.

٨- إخراج فرعون وجنوده مما هم فيه في مصر من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، وتوريث ذلك بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

٩- عقوبة الله تعالى للطاغين بإزالة النعم عنهم، أو إزالتهم عنها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾.

١٠- أن العقوبة بعد التنعيم أشد وقعًا، وأعظم ألمًا؛ لذكره عز وجل ما كان فيه فرعون وقومه من النعيم قبل أخذهم.

١١- اتباع فرعون وجنوده بني إسرائيل عند شروق الشمس، أو باتجاه جهة المشرق؛ للإيقاع بهم والانتقام منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

١٢- تخوّف أصحاب موسى لما تراءى الفريقان أن يدركهم فرعون وجنوده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

١٣- قوة توكل موسى عليه السلام على ربه، وتمام ثقته به وبمعيته له وهدايته ونصره، وطمأنته أصحابه، ونفيه بشدة أن يدركهم فرعون وجنوده؛ لقوله: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

١٤- إثبات معية الله تعالى الخاصة، وربوبيته الخاصة لموسى عليه السلام، وهدايته له؛ لقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

١٥- وحيه عز وجل إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر؛ لينفلق بقدرة الله تعالى طريقًا يابسًا لبني إسرائيل، كل فرق كالجبل العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾.

١٦- عظم قدرة الله تعالى في فلق البحر، وجعله في وسطه طرقًا يابسة.

١٧- عظم ما أعطاه الله لموسى من المعجزات؛ منها: فلق البحر.

١٨- إثبات الأسباب؛ فإن الله عز وجل قادر على فلق البحر دون أن يضربه موسى بعصاه.

١٩- تقريب فرعون وجنوده إلى مكان انفلاق البحر تمهيدًا لإغراقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٠- إنجاء الله عز وجل موسى ومن معه جميعًا من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

٢١- إغراق فرعون وجنوده ومن معه، فلم ينج منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٢٢- أن في فلق البحر وإنجائه عز وجل موسى ومن معه من المؤمنين، ومن ثم إطباقه وإغراق فرعون وجنوده ومن معه من الكافرين؛ دلالة على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعلى صدق موسى وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها تحذير للمكذبين، وبشارة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

٢٣- أن أكثر الخلق كفار ضلال غير مؤمنين ولا مهتدين، حكمة بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا يغتر بذلك.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٦- أنه عز وجل بعزته أغرق فرعون وجنوده، وبرحمته أنجى موسى وقومه.

٢٧- باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الرحيم» وصفتي العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾:

سبق التماس الحكمة في تقديم ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون في هذه السورة، وقد أتبعها هنا بذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وقدِّمت هنا على قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام على خلاف المعتاد في ذكر قصصهم في القرآن، قيل: لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام، وفي تمسكهم بضلال آبائهم، وفي أن قوم إبراهيم لم يسلط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على أقوام الأنبياء المذكورين، فأشبهوا قريشًا في إمهالهم.

قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: واتل يا محمد على أمتك وعلى الناس، ﴿نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، أي: نبأ عبده ونبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام، والنبأ: الخبر الهام.

أي: اقرأ عليهم خبره الهام جدًّا؛ لما تضمنه من المناظرة في التوحيد والجزاء؛ ليقتدوا به في التوحيد لله تعالى وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ

وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الممتحنة: ٤].

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه، منكرًا عليهم منذ صغره عبادة الأصنام.

والضمير في ﴿وَقَوۡمِهِۦ﴾ يحتمِلُ أن يعود إلى إبراهيم؛ لأنه المتحدَّث عنه، ويمكن عوده على أبيه، أي: وقوم أبيه؛ كما في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ «ما»: اسم استفهام: للإنكار والتعجب؛ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥﴾ [الآية: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

﴿قَالُواْ﴾؛ متباهين متبجحين بعبادتهم، ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾ «أصنام» جمع: صنم، وهو ما نحت وعبد من دون الله، وقد يطلق على كل ما عبد من دون الله من شجر أو حجر أو غير ذلك.

﴿فَنَظَلُّ﴾ أي فندوم ونستمر في كثير من أوقاتنا، ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

وفي هذا ابتهاج منهم وافتخار بهذا الفعل الذميم، فافتخروا بعبادتها، وبدوامهم على ذلك.

﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم عليه السلام مبينًا لهم عدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم؟ وهل يستجيبون لكم لو سمعوا؟

أي: إنهم لا يستطيعون هذا ولا هذا؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾؛ أو: عاطفة في الموضعين، أي: أو ينفعونكم بجلب الخير لكم ودفع الشر عنكم؟ أي: إنهم لا يملكون شيئًا من ذلك.

﴿أَوۡ يَضُرُّونَ﴾، أي: أو يضرونكم؟ أي: إنهم لا يملكون جلب الضر لكم، ولا

دفعه عنكم.

ويحتمل أن المعنى: أو ينفعونكم إن عبدتموهم، أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ ولم يقل: أو يضرونكم؛ مراعاة للفواصل.

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾، أي: أقروا أنهم لا يسمعونهم حين يدعون، ولا ينفعونهم ولا يضرون، وإنما عبدوهم لأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، أي: وجدنا آباءنا كذلك يعبدون هذه الأصنام، فنحن نعبدها اتباعًا وتقليدًا لهم، واقتداء بفعلهم؛ كما قال تعالى عن مشركي قريش: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٣].

﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾، الهمزة للاستفهام، أي: أأبصرتم ﴿مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي كنتم تعبدونه من الأصنام.

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾؛ قبلكم، وأجدادكم وإن علوا.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾، أي: معبوداتكم. وأطلق عليهم ضمير العقلاء هنا وقبله حسب زعمهم: أن هذه المعبودات تنفع وتضر.

﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾، «عدو» يطلق على المفرد وعلى الجمع، أي: فإنهم أعداء لي، أبغضهم، وأكشف عوارهم، وأُبيّن أنهم لا يستحقون العبادة، وأحذر من عبادتهم، وأتبرأ منهم، وأتحداهم أن يَخْلُصوا إليَّ بشيء من الضرر؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗا﴾ [الأنعام: ٨١].

وكما قال نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ

ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤- ٥٦].

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو منقطع، أي: لكن رب العالمين ليس بعدو لي، بل هو وليٌّ لي، وهو معبودي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]؛ يعني: لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

هذا بيان من إبراهيم عليه السلام أنه لا يستحق العبادة والإلهية إلا رب العالمين؛ لاختصاصه بصفات الربوبية، أي: استدلال بوحدانيته عز وجل بالربوبية على وحدانيته في الألوهية، وثناء عليه عز وجل وامتداح له بتلك الصفات.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾، «الذي» اسم موصول مبني، وهو وما عطف عليه من الموصولات في محل نصب صفات لرب العالمين، وهي صفات كاشفة، أي: لا أعبد إلا الذي خلقني ويهدين، ومن صفته هذه الصفات الدالة على كمال ربوبيته، واستحقاقه وحده الإفراد بالعبودية والإلهية.

أي: الذي أوجدني وأنشأني، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي: فهو يهديني، أي: يدلني ويرشدني إلى الحق، ويوفقني إليه وفيه، وإلى ما قدر لي، والذي خلق الخلائق كلهم، وقدر لهم أقدارًا، وهدى كل مخلوق لما قدر له؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣].

وحذفت الياء من الأفعال مراعاة للفواصل.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

أي: المتكفل بطعامي وشرابي، عليه رزقي ورزق جميع الخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾، أي: وإذا أصابني مرض فهو وحده الذي يشفيني ويعافيني.

وأسند المرض إلى نفسه- وإن كان بقدر الله وقضائه- تأدبًا مع الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «**والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»[(١)].

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾، أي: والذي يميتني ويميت جميع الخلائق، ثم يحيينا، أي: بيده الموت والحياة، لا يقدر على ذلك أحد سواه.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ﴾، أي: أرجو وآمل ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ لأنه لا يغفر الخطايا والذنوب إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

و«أن» والفعل «يغفر» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن يغفر لي.

أي: أطمع أن يتجاوز لي عن خطيئتي ويسترها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، يوم القيامة، يوم يحاسب الخلائق ويدانون بأعمالهم خيرها وشرها.

وقوله: ﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾، أي: ذنبي، قيل: المراد به قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله عن سارة لما سأله فرعون مصر عنها: «إنها أختي»[(٢)]، وذلك مخافة أن يقتله لو قال: إنها زوجتي؛ لأنه قد طمع فيها، ولكن حفظها الله منه، ورد كيده عنها.

ويجوز أن يكون المراد بقوله: «خطيئتي» الجنس، أي: خطاياي.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) روي هذا عن مجاهد، أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٣، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٠.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

لما بين إخلاصه العبادة لرب العالمين المختص بصفات الربوبية كلها، الموجبة إفراده بالألوهية، أتبع ذلك بالدعاء لنفسه في الدنيا والآخرة، وسؤال المغفرة لأبيه.

قوله: ﴿رَبِّ هَبْ﴾، أي: يا رب أعطني وامنحني ﴿حُكْمًا﴾، أي: علمًا وفهمًا وحكمة أحكم بها بين الناس.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، أي: واجعلني ألحق بالصالحين وأكون منهم، في الدنيا والآخرة، من الأنبياء والمرسلين، المخلصين لك، المتبعين لشرعك، المصلحين للناس؛ كما قال ﷺ: «**اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين**»(١).

وكما قال ﷺ عند الاحتضار: «**الرفيقَ الأعلى**» قالها ثلاثًا(٢).

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾، أي: ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا في الدنيا فيمن يأتون بعدي إلى يوم القيامة أُذكر به، ويقتدى بي في الخير، ويثنى علي به.

والذكر الحسن للمرء بعد الموت محصلة لما قدم في حياته، واستمرار لثوابه، وقد أحسن القائل:

وإنــما المــرء حــديث بعــده ... فكــن حــديثًا حسنًا لمن وعــى(٣)

وقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لكنني أسـأل الـرحمن مغفـرة ... وضربـة ذات فـرع تقـذف الزبـدا

أو طعنـة بيـدي حـران مجهـزة ... بحربـة تنفـذ الأحشـاء والكبـدا

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤ من حديث عبدالله الزرقي، عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في السلام، فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (١/ ١٩٤)، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣٣٥).

حتى يقال إذا مروا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشدا[1]

وقال الآخر:

قد مات ناس وما ماتت مآثرهم ومات قوم وهم في الناس أحياء[2]

وقد استجاب الله دعاءه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨- ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وأمرنا نبينا ﷺ أن نقول في التشهد: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد**»[3].

﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، أي: واجعلني في الآخرة من ورثة جنة النعيم، أي: من الذين تورثهم جنة النعيم.

فاستجاب الله دعاءه فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾، أي: واغفر لأبي ذنوبه وما كان عليه من الشرك والكفر، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ تعليل لطلب المغفرة له، أي: لأنه كان من الضالين المشركين.

وهذا كقوله عليه السلام في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [الآية: ٤١].

وهذا الدعاء من إبراهيم بسبب وعده لأبيه بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ

---

(١) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١٣/ ١٧٩)، «حلة الأولياء» (١/ ١١٩)، «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (١/ ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ٩٧٦، والنسائي في السهو ١٢٨٨، والترمذي في الصلاة ٤٨٣؛ من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد ترك إبراهيم عليه السلام الدعاء لأبيه، ورجع عنه لما تبين له عداوته لله، وموته على الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾، أي: أجرني من الخزي والفضيحة، واستر علي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق كلهم للحساب والجزاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين**»(١).

وفي رواية: «**يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ(٢)، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار**»(٣).

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾، «يوم»: بدل من قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: يوم لا ينفع مال مهما كثر، فلو افتدى بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تقبل منه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿وَلَا بَنُونَ﴾، «لا»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى.

---

(١) أخرجها البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٦٩.

(٢) الذيخ: الذكر من الضباع؛ كأنه مسخ آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته، فيلقى في النار كذلك.

(٣) أخرجها البخاري في أحاديث الأنبياء، قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ ٣٣٥٠.

أي: ولا ينفع بنون مهما كثروا، فلا يملكون لوالدهم نفعًا، ولا يدفعون عنه ضرًّا.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا من أتى الله، أي: وافاه ولقيه بقلب مؤمن مخلص العبادة لله تعالى وحده، سليم من جميع أمراض القلوب، من الشرك والشك، والنفاق والرياء، والشح والكبر، وحب الدنيا، وحب الرياسة، وغير ذلك.

ومن الغل والحقد، والحسد والعداوة والضغينة على عباد الله، يحب لهم ما يحب لنفسه، وينصح لهم؛ كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1].

وكما قال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم**»[2].

قال ابن القيم: «والقلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والغل، والحقد والحسد، والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادًا لا تنحصر[3]».

وسلامة القلب ليست بالأمر السهل، بل هي بعيدة المنال، إلا على من وفقه الله؛ لأنها تحتاج إلى مجاهدة عظيمة، فإن الإنسان قد يستطيع أن يقوم الليل، ويصوم النهار، ويبذل النفس والمال، والغالي والرخيص، ويهون عليه ذلك، لكن قد لا يستطيع علاج

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٠١٥، وابن ماجه في المقدمة من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٧، ومسلم في الإيمان ٥٦، والنسائي في البيعة ٤١٥٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٢٧.

قلبه إلا بجهد جهيد؛ ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»[١]. وهو معنى قول سفيان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي؛ لأنها تنقلب علي»[٢].

وقال عبدالله بن أبي مُلَيكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»[٣].

وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً. فقال: «لو كنت منافقاً ما خفت أن تكون منافقاً، إن المنافق قد أمن النفاق»[٤].

وقال بعضهم: «ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه»[٥].

وقيل للحسن: «يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف»[٦].

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل للنبي صلى الله عليه أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم عليه السلام وخبره الهام في إخلاص التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ ليقتدوا ويتأسوا به في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ الآيات.

٢- فضيلة إبراهيم عليه السلام، حيث جعله الله قدوة وإمامًا في الدين، وأسوة في إخلاص التوحيد، واجتناب الشرك والبراءة منه وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]، وحكى عز وجل عن إبراهيم قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

٣- إنكاره عليه السلام على أبيه وقومه ما هم عليه من عبادة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾.

---

(١) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» لابن عثيمين (١/ ٦٦).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧٠).

(٣) ذكره البخاري في الإيمان، خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر، «فتح الباري» ١/ ١٠٩.

(٤) انظر: «قوت القلوب في معاملة المحبوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٢٢٩) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٢٣).

(٥) انظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص٢١).

(٦) انظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» (ص٢١)، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٦).

٤- تباهيهم بما هم عليه من عبادة الأصنام، وافتخارهم بملازمتهم العكوف عليها، جهلًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾.

٥- بيانه عليه السلام لهم أن معبوداتهم لا تستحق العبادة؛ فهي لا تسمع ولا تجيب، ولا تنفع ولا تضر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾.

٦- إقرارهم واعترافهم بأنها لا تسمع ولا تجيب، ولا تنفع ولا تضر، وأنهم إنما عبدوها اقتداءً بآبائهم، وتقليدًا لهم على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾.

٧- بيانه عليه السلام عداوة معبوداتهم له، وبراءته منها، وبغضه لها، وكشفه عوارها، وتحذيره من عبادتها، وتحديه لها أن تَخْلُص إليه بسوء؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾.

٨- إثبات ربوبيته تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٩- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لمفهوم قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾، أي: فهو وليٌّ لي؛ كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦].

١٠- بيانه عليه السلام أنه لا يستحق العبادة إلا رب العالمين وحده، المختص بصفات الربوبية؛ من الخلق والهداية، والرزق والشفاء، والإماتة والإحياء، ومغفرة الخطايا والذنوب وسترها؛ لقوله عليه السلام: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾، وفي هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

١١- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بصفات الربوبية التامة، وامتداحه بها، وإثباتها له.

١٢- أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه، في إسناده المرض إلى نفسه، مع أن ذلك كله بقضاء الله وقدره؛ لقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾.

١٣- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين من الأخطاء والصغائر، لكنهم لا يقرون عليها وسرعان ما يتوبون منها؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾.

١٤- إثبات يوم الدين، وما فيه من الحساب والجزاء ومجازاة الخلق بأعمالهم؛ لقوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾.

١٥- سؤاله عليه السلام ربه أن يهب له ﴿حُكْمًا﴾، أي: علمًا وفهمًا وحكمة، وأن يلحقه بالصالحين من الأنبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣﴾.

١٦- أن سؤال الله العلم والفهم والحكمة والصلاح في الدين من أفضل المطالب؛ لأنه مطلب الأنبياء والرسل عليهم السلام.

١٧- سؤاله عليه السلام ربه أن يجعل له في الدنيا ذكرًا حسنًا فيمن يأتون بعده إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤﴾.

١٨- سؤاله عليه السلام ربه أن يورثه في الآخرة جنة النعيم، التي هي أعظم وأغلى المطالب، وأرفع وأعلى المراتب؛ لقوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝٨٥﴾.

١٩- إثبات الجنة، وأنها معدة لأهلها.

٢٠- سؤاله عليه السلام المغفرة لأبيه لما هو عليه من الضلال والشرك، وذلك قبل أن يتبين له أنه عدو لله بموته على الكفر؛ لقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝٨٦﴾.

٢١- عظم حق الأب، لهذا خص إبراهيم أباه بالدعاء له دون غيره.

٢٢- أن الشرك من أعظم الضلال؛ كما أنه من أعظم الظلم.

٢٣- سؤاله عليه السلام الستر وعدم الفضيحة يوم بعث الخلائق؛ لقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧﴾.

٢٤- أن في ذلك اليوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من وافى الله ولقيه بقلب مؤمن،

مخلص العبادة لله تعالى وحده، سليم من جميع أمراض القلوب من الشرك والشك والنفاق، والغل والحقد والحسد، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قال ابن القيم[1]: «ولا تتم سلامة القلب حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى نفس يناقض التجرد من شهوات الدنيا، وهذه الخمسة حجب عن الله تعالى، لا بد للمسلم من التخلص منها، بالاستعانة بالله عز وجل».

٢٥- فضيلة القلب السليم، والإغراء بالحرص على سلامة القلب.

عن سفيان بن دينار قال: «قلت لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قال سفيان: ولم ذاك؟ قال أبو بشر: لسلامة صدورهم»[2].

وقال ابن رجب[3]: «فأفضل الأعمال: سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم، أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه».

ومن أهم أسباب سلامة القلب ما يلي:

أولًا: الإقبال على الله تعالى والتعلق به وحده والإخلاص له، ودعاؤه والتضرع إليه وسؤاله الهداية وانشراح الصدر، وسلامة القلب؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ثانيًا: إفشاء السلام؛ قال ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى**

(١) في «الداء والدواء» ص١٥٢.

(٢) انظر: «الزهد لهناد بن السري ٦/ ٢٠٠.

(٣) في «لطائف المعارف» ص١٣٩.

تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم»[١].

ثالثًا: محبة الخير للمسلمين، قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١].

رابعًا: التماس الأعذار، وإقالة العثرات، والتغاضي والتغافل عن الزلات.

خامسًا: حسن الظن بالآخرين، وحمل ما يصدر منهم على أحسن المحامل، كما جاء في الأثر: «لا تحملن كلمة من أخيك على محمل السوء وأنت تجد لها في الخير محملًا»[١].

٢٦- حاجة الأنبياء عليهم السلام وافتقارهم إلى الله تعالى وسؤاله، وغيرهم من الخلق أحوج إلى سؤاله عز وجل من باب أولى.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾:

قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، أي: قربت وأدنيت يوم القيامة.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله، واتقوا سخطه وعذابه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه- تكريمًا لهم- كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ [التكوير: ١٣].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾، أي: أظهرت وكشفت ﴿لِلْغَاوِينَ﴾، أي: لأهل الغي والشرك والكفر والضلال، تخويفًا وترهيبًا لهم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾، أي: وقيل لأهل الغي والكفر والشرك: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: قيل لهم تقريعًا وتوبيخًا: أين الذي كنتم تعبدونه غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد، وتعتقدون فيهم النفع ودفع الضر؟

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾، فيدفعون عنكم عذاب النار، ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾، أي: أو هل ينتصرون بأنفسهم فيدفعون عنها الأذى والضرر والعذاب، والاستفهام: للنفي، أي: لا هذا ولا هذا، فلا هم ينصرونكم ولا ينتصرون لأنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩].

وقال تعالى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ

ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦].

﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾، أي: كبوا على وجوههم بعضهم على بعض فيها، أي: طرحوا وألقي بعضهم على بعض، وجمعوا في الجحيم.

﴿هُمۡ﴾، أي: المعبودون من دون الله، ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾، أي: العابدون لها، ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: أتباعه في الغواية والضلال والدعوة إلى ذلك، من الإنس والجن.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال الغاوون من المشركين وجنود إبليس أجمعين لمعبوداتهم من دون الله، ﴿وَهُمۡ فِيهَا﴾، أي: وهم في الجحيم ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾، أي: يتجادلون ويتنازعون: العابد والمعبود، التابع والمتبوع، نادمين متحسرين حين رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب.

﴿تَٱللَّهِ﴾، التاء: للقسم، جيء بها دون الواو؛ لأنها تختص بالقسم في شيء متعجب منه، ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، جواب القسم، و«إن» مخففة من الثقيلة مهملة، واللام: للتوكيد، أي: إن كنا لفي ضلال بيِّن واضح.

﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم﴾، أي: حين نسويكم، ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: نجعلكم مثله في العبادة والمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه.

فتبين لهم حينئذٍ ضلالهم البين، وجهلهم، وظلمهم غاية الظلم، وأقروا باستحقاقهم ما هم فيه من العذاب، وعدل الله تعالى فيهم.

وقولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، يدل على إقرارهم بربوبيته عز وجل، وأنهم لم يسووا معبوداتهم به في الربوبية، وهو حجة عليهم؛ لأن من لازِمِ توحيد الربوبية: الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾، أي: وما أضلنا عن طريق الهدى والحق والرشاد ﴿إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا السادة والكبراء في الإجرام والكفر والضلال من شياطين الإنس والجن، فاغتررنا بهم وأطعناهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ

﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١﴾ [القصص: ٤١].

وقال ﷺ لما قال له حذيفة رضي الله عنه في حديثه الطويل: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال ﷺ: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»(١).

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠﴾، أي: فما لنا حينئذٍ من شافعين فيشفعون لنا لينقذونا من النار؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

و«من»: للتأكيد، أي: فما لنا من أي شافعين؛ وذلك لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له، وهؤلاء كفرة غير مرضيين عند الله. و«الشافع» في الأصل: من يتوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ معطوف على ما قبله، و«لا»: مؤكدة، و«صديق»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا لنا من أيِّ صديق قريب مشفق يهتم بأمرنا ويواسينا؛ كما هي الحال في الدنيا، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال بعضهم: وفي جمع ﴿شَافِعِينَ﴾ وإفراد ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إشارة إلى قلة الصديق الحميم؛ كما هو الواقع، قال الشاعر:

ولقد فحصت بني الزمان فلم أجد ... خلًّا وفيًّا للمكارم أصطفي

فعلمت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخل الوفي(٢)

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾، «لو» حرف تمنٍّ، أي: ليت لنا ﴿كَرَّةً﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، و«الكرة»: مرة من «الكر» وهو الرجوع.

ولم يقولوا: «ليت لنا كرة» صراحة، بل قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، وهذا تمنٍّ فيه شيء من اللين واللطف والعرض، وذلك لما هم فيه من الخوف والذل، وقد صرحوا

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) البيتان بدون نسبة. انظر: «الهدية الهادية» ص٥٩.

بالتمني في سورة الأنعام؛ بقولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الآية:٢٧]. وذلك بحسب اختلاف الأحوال والمواقف.

﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ الفاء: للسببية، و«نكون»: منصوب على التمني بأن مضمرة بعد الفاء، أي: فنكون من المصدقين المنقادين، أي: لو رجعنا إلى الدنيا لآمنا، وهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في محاجة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه وإقامته الحجج على وحدانية الله تعالى، ووجوب إخلاص العبادة له، وبطلان الشرك، والتحذير منه، والبراءة منه ومن أهله ومن معبوداتهم، والبشارة بالجنة للمتقين، والتهديد بالجحيم للغاوين.

﴿لَأٓيَةٗ﴾، أي: لدلالة واضحة جلية على وجوب توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وعظة وعبرة للمعتبرين؛ فيها بشارة للمتقين، وتحذير للغاوين.

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم إبراهيم، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم ضلال كافرون، مع وضوح الأدلة وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾؛ فبعزته عز وجل ورحمته جازى الخلائق بأعمالهم، فأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين.

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات وجود الجنة وتقريبها للمتقين؛ إكرامًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾.

٢ - الترغيب بتقوى الله تعالى؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

٣ - أن من إكرام الضيف تقريب الضيافة إليه؛ كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام في إكرامه لضيوفه: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الذاريات: ٢٧]، وليس من إكرام الضيف- بل من إهانته- أن يوضع الطعام في إناء؛ ليأتي الضيوف كل واحد يغترف لنفسه كما يفعل أدعياء المدنية الحديثة بزعم الاقتصاد في الطعام.

٤ - إثبات وجود النار، وإبرازها للغاوين من أهل الشرك والكفر والمعاصي إرهابًا

وتخويفًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾.

٥- التحذير من الغواية بالشرك والكفر والمعاصي.

٦- تقديم الترغيب بالجنة على الترهيب بالنار؛ لأن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.

٧- تقريع المشركين الغاوين وتوبيخهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينصرهم، ولا ينتصر لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

٨- جمع المشركين الغاوين ومعبوداتهم، وطرح بعضهم على بعض في النار، هم وجنود إبليس وأتباعه أجمعون من الإنس والجن؛ إغاظة لهم، ونكاية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

٩- تخاصم أهل النار ومعبوداتهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٤].

١٠- إقرار المشركين واعترافهم بضلالهم المبين، في تسويتهم معبوداتهم برب العالمين، وندمهم وتحسرهم على ذلك، حيث لا ينفع الندم؛ لقولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

١١- أن الشرك أعظم الضلال وأبينه؛ لما فيه من جعل الأنداد لله، وتسويتهم مع الله الذي لا يماثله شيء، وصرف حقه تعالى لهم.

١٢- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية؛ لقولهم: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم ينفعهم ذلك؛ لأنهم لم يقروا في الحياة بلازمه، وهو توحيد الألوهية، وإنما أقروا بذلك لما كبكبوا في النار، وليس ذلك بنافعهم.

١٣- أن سبب ضلال كثير من الناس: اتباعهم دعاة الضلال من السادة والكبراء المجرمين؛ لقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾، مما يوجب الحذر منهم.

١٤- انتفاء الشفاعة عن أهل النار، فما لهم من شافعين يشفعون لهم برفع العذاب أو تخفيفه، ولا صديق حميم يواسيهم؛ لقولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

١٥- شدة ندمهم وتمنيهم الرجوع ليستدركوا ويؤمنوا؛ لقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً

﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٢﴾، وهيهات لهم ذلك، مع أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما ذكر الله عز وجل.

١٦- أن في محاجة إبراهيم لأبيه وقومه، وإقامته الحجج على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، وبطلان ما هم عليه من الشرك في عبادة الله تعالى- دلالة واضحة على وجوب توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها بشارة للمتقين، ونذارة للغاوين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾.

١٧- أن أكثر الخلق غير مؤمنين، مع بيان الآيات والأدلة والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر: ٥].

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٩- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم» وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾.

٢٠- أنه عز وجل بعزته ورحمته جازى الخلائق بأعمالهم، فأزلفت الجنة للمتقين وأدخلوا فيها، وبرزت الجحيم للغاوين، فكبكبوا فيها هم ومعبوداتهم وجنود إبليس أجمعون.

٢١- في اقتران العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝١١٥ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾:

ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام، وقدمها لما فيها من الآيات والعبر والعظات، والحكم العظيمة، ثم أتبعها بذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومحاجته لأبيه وقومه؛ لما فيها من إقامة الدلائل والحجج على وحدانية الله عز وجل، في ربوبيته وإلهيته، وعلى بطلان الشرك، وتقليد الآباء على جهل وضلال، ثم أتبع ذلك بقصة نوح أول الرسل، وقصص الأنبياء بعده: هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

ونوح هو أول الرسل، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣].

وفي حديث الشفاعة: «**ولكن ائتوا نوحًا؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض**»(١).

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾، أي: كذبوا نبيهم نوحًا عليه السلام، فصاروا بتكذيبهم له مكذبين لجميع الرسل بعده؛ لأن من كذب رسولًا كمن كذب جميع الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك،

---

(١) سبق تخريجه.

والدعوة لكل خير، والتحذير من كل شر.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ﴾، أي: حين قال لهم أخوهم نوح، أي: أخوهم نسبًا؛ لأنه منهم؛ كما هو حال كثير من الرسل؛ لكي يطمئنوا إليه وينقادوا له.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، «ألا» أداة عرض وتحضيض، أي: ألا تتقون الله، بفعل ما يأمركم به من توحيده وعبادته، وترك ما ينهاكم عنه مما أنتم عليه من الشرك، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما لا يخفى من التلطف في الخطاب؛ لاستمالة قلوبهم إلى الحق.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

تعليل لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وقدم المتعلِّق «لكم» للدلالة على الاختصاص، أي: إني لكم خاصة رسول من عند الله، فاشكروه وتلقوا رسالته بالقبول.

﴿أَمِينٌ﴾، أي: أمين على ما بعثني به إليكم، أبلغكم رسالة ربي، لا أزيد فيها ولا أنقص منها؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وكما قال عز وجل في وصف رسله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، تأكيد لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: فاتقوا الله بترك ما نهاكم عنه والخوف من عذابه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

لما ذكر السبب الموجب لطاعته- وهو أنه رسول لهم خاصة من عند الله، أمين على ما بعثه الله به- أتبع ذلك بذكر انتفاء المانع؛ فقال:

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾، أي: وما أسألكم على إبلاغكم رسالة ربي إليكم ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾، «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: من أيّ أجر دنيوي مقابل ذلك، فتستثقلون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري وجزائي وثوابي- على تبليغكم رسالة ربي- إلا على رب العالمين،

أحتسب ذلك وأدخره عنده، وأرجو به منه الثواب الجزيل.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾، كرر؛ لزيادة التأكيد، بعد أن بين الموجب لذلك، وذكر انتفاء المانع منه، وبيّن لهم صدقه وأمانته ونصحه، فهو أشبه بالتأسيس.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾:

قوله: ﴿۞ قَالُوٓا۟﴾، أي: قال كبراء المكذبين من قوم نوح وساداتهم.

﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يمكن أن نؤمن لك ونصدقك وننقاد لك.

﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، قرأ يعقوب: «وَأَتْبَاعُكَ» بقطع الهمزة، وإسكان التاء مخففة، وضم العين، وألف قبلها، على الجمع.

وقرأ الباقون بوصل الهمزة، وتشديد التاء مفتوحة، وفتح العين، من غير ألف: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾.

والجملة حالية، أي: كيف نؤمن لك، ونصدقك فيما جئت به وننقاد لك، والحال أنه قد اتبعك، أو أن أتباعك هم الأرذلون؟ أي: أراذل الناس وأنقصهم وسفلتهم وسقطهم. يَصِمون بذلك من آمن من الفقراء والضعفاء منهم؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

أي: أنؤمن لك ونتبعك ونتساوى مع هؤلاء الأراذل؟! وهذا كما يدل على شدة تكبرهم يدل على عدم صدقهم في تحري الحق، وأنه لا قيمة له عندهم، إذ كيف يعدلون عنه، ويأنفون من اتباع نوح؛ لمجرد أن الفقراء والضعفاء اتبعوه؟!.

وما علم هؤلاء المتجبرون المتكبرون أن الذين بادروا إلى تصديق نوح، والإيمان بما جاء به، وأمثالهم من اتباع الرسل هم الأكرمون، وأن من ردوا دعوة الرسل وكذبوهم هم الأرذلون، ولكن كما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، «ما» في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ موصولة،

أو مصدرية، أي: وما علمي بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم، في الماضي والحاضر والمستقبل، في الظاهر والباطن.

كما قال ﷺ حين سئل عن أولاد الكفار: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»(١).

أي: إن ما هم عليه من عمل ليس عليَّ أمر التمحيص فيه، والبحث عنه، ما عليَّ إلا قبول ظاهرهم، والله يتولى أعمالهم وسرائرهم.

وأيضًا أيُّ شيء يلحقني بعملهم وإن كانوا هم الأرذلين في زعمكم فلا يضرني ذلك ولا تبعة عليّ منه؛ ولهذا قال:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما حسابهم على أعمالهم إلا على ربي يجازيهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦]، وليس عليَّ من حسابهم شيء، وإنما عليَّ البلاغ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: لو تعلمون حقيقة أنه ليس عليّ تمحيص أعمالهم، ولا تبعة علي فيما يعملون، وأن حسابهم على الله، أي: لَـمَا قلتم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، والمراد: اعلموا ذلك.

كما قال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل**»(٢).

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾، كأنهم لكبرهم وتجبرهم طلبوا منه أن يطرد من آمن به من الفقراء والضعفاء؛ ليتبعوه، وهذا فحوى قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤، والنسائي في الجنائز ١٩٤٩، والترمذي في القدر ٢١٣٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في الجهاد٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأن هؤلاء يستحقون على سبقهم التحية والإكرام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، «إن»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أي: محذر ومخوف، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بين واضح.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك وترك آلهتنا.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، جملة جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لتكونن من المقتولين رجمًا بالحجارة، أي: لنرجمنك بالحجارة فنقتلك شر قِتلة.

ولم يقولوا: لنرجمنّك،بل قالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، مبالغة في التخويف، أي: أنت لست أول من يرجم، بل هناك من رجم قبلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

بعد أن طال مكث نوح عليه السلام فيهم، يدعوهم إلى الله تعالى بشتى الوسائل، وينوّع لهم في أساليب الدعوة، ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، مجتمعين وفرادى، وكلما كرر عليهم الدعوة، وطال عليهم الأمد، ازدادوا إصرارًا على كفرهم وتكذيبًا واستكبارًا، دعا عليهم فاستجاب الله دعوته.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، قال نوح عليه السلام بعد أن أيس كل اليأس من إيمان قومه بعد طول لبثه فيهم يدعوهم إلى الله: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، في هذا ما يشعر بتحسره وحزنه عليهم.

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، الفتح: الحكم، و«فتحًا» مفعول مطلق، أي: فاحكم بيني وبينهم حكمًا، أي: أهلكهم واستأصلهم؛ كما قال في سورة نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

وكما قال في سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: وأنقذني وخلصني ومن معي من المؤمنين من العذاب، ومن هؤلاء القوم الكافرين.

وهذا يدل على أن مراده بقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: أهلكهم واستأصلهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، من المؤمنين وهم قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود:٤٠].

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفينة التي صنعها نوح عليه السلام بأمر الله عز وجل له؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾، المملوء بالناس والدواب والمتاع من كل زوجين اثنين؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾، أي: ثم أغرقنا بعد إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في الفلك ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾، وهم جميع قومه عدا من كان معه في السفينة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في دعوة نوح عليه السلام قومه، وتكذيبهم له، مع طول لبثه فيهم، ومن ثم دعاؤه عليهم، وسؤاله النجاة له ولمن معه من المؤمنين، واستجابة الله دعوته، وإنجائه ومن معه، وإغراق المكذبين.

﴿لَآيَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وعلى صدق نوح عليه السلام وجميع رسل الله تعالى، وصحة ما بعثهم الله به، وبطلان ما عليه المكذبون لهم، وعظة وعبرة لمن يعتبر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٢١﴾، أي: وما كان أكثر قوم نوح، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كفار ضالون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾، أي: ذو العزة التامة، والرحمة الواسعة، فبعزته أغرق بالطوفان المكذبين، وبرحمته نصر أولياءه، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٢- تكذيب قوم نوح له عليه السلام مع طول لبثه فيهم يدعوهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾.

٣- أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾، ومعلوم أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض؛ وذلك لأن دين الرسل كلهم واحد، وهو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فمن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل.

٤- أن نوحًا عليه السلام من قومه، ونسيب فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾.

٥- حثه عليه السلام قومه على تقوى الله تعالى بعبادته وحده، وترك ما هم عليه من الشرك؛ لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- بيانه لهم أنه رسول لهم خاصة، أمين على ما بعثه الله به إليهم؛ لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ

﴿رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾، وفي هذا جواز وصف الإنسان نفسه بالأمانة ونحو ذلك، إذا كان على سبيل الإخبار الصادق، ولمصلحة، لا الافتخار، كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»(٢).

٧- تأكيده أمرهم بتقوى الله، وحثهم على طاعته؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

٨- نفيه أن يسألهم أجرًا دنيويًّا مقابل تبليغه إياهم رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، لئلا يعتبروا ذلك غرمًا، فيمتنعون من الإيمان بسبب هذا الأجر والغرم.

٩- إخلاصه عليه السلام وبيانه أن أجره في تبليغ رسالة ربه على الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهكذا جميع الرسل يحتسبون أجرهم في ذلك على الله، لا على غيره.

١٠- وجوب إخلاص العمل لله تعالى طلبًا لثوابه، وابتغاء مرضاته.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

١٢- تأكيده ثالثة أمرهم بتقوى الله وطاعته، بعد أن بين لهم السبب الموجب لذلك، وانتفاء المانع؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

١٣- امتناعهم من الإيمان، ونفيهم أن يؤمنوا لعلة واهية باطلة؛ وهي أنه قد اتبعه الأرذلون، يعنون: الفقراء والضعفاء؛ لقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

١٤- عتو قوم نوح وتجبرهم وتكبرهم عن قبول الحق، وعلى فقرائهم وضعفائهم.

١٥- مبادرة الفقراء والضعفاء إلى الإيمان بالرسل واتباعهم، وتأخر ذوي الأموال والمناصب والجاه، بل وامتناع كثير منهم عن الإيمان، حكمة بالغة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، القراء من أصحاب رسول الله ﷺ ٥٠٠٢، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما ٢٤٦٣.

١٦- بيان نوح عليه السلام أنه ليس عليه التمحيص في أعمال من آمن به واتبعه، وإنما عليه قبول الإيمان الظاهر منهم، والله يتولى السرائر؛ لقوله: ﴿وَمَا عِلۡمِى بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

١٧- أن حساب الخلائق على الله تعالى إليه إيابهم، وعليه حسابهم، وليس على الرسل إلا البلاغ؛ لقوله: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّيۖ﴾.

١٩- الإشارة إلى جهل قومه، وعدم علمهم؛ لقوله: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾.

٢٠- نفيه عليه السلام أن يطرد المؤمنين؛ لأجل هؤلاء المتجبرين المتكبرين من قومه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾.

٢١- وجوب التواضع للمؤمنين، وتقريبهم وموالاتهم ومحبتهم، وعدم سماع القالة فيهم.

٢٢- بيانه عليه السلام أنما هو نذير محذر من عذاب الله تعالى، بيِّن النذارة؛ لقوله: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾.

٢٣- تهديدهم له إن لم ينته عن دعوتهم بالرجم والقتل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾.

وهذه طريقة المكذبين المستكبرين من أعداء الرسل وغيرهم من دعاة الحق، إذا أيسوا من إبطال الحق، لجؤوا إلى التهديد بالقوة.

٢٤- يأسه عليه السلام كل اليأس من إيمانهم بعد طول لبثه فيهم، ودعاؤه عليهم بالهلاك والاستئصال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِى كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِى وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾.

٢٥- سؤاله ربه النجاة له ولمن معه من المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢٦- استجابة الله عز وجل له، وإنجاؤه ومن معه من المؤمنين في السفينة، وإغراق الباقين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ

أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

٢٧- نصرة الله تعالى لرسله وأوليائه ولو بعد حين، وإهلاك أعدائهم.

٢٨- أن في دعوة نوح عليه السلام لقومه وتكذيبهم له مع طول لبثه فيهم، ومن ثم دعاؤه عليهم، وسؤاله النجاة له ولمن معه من المؤمنين، واستجابته عز وجل له، وإنجاؤه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين- دلالةً عظيمة على تمام قدرة الله تعالى، ونصرته لرسله وأوليائه، وإهلاك أعدائه، وفي ذلك تسلية له ﷺ وتهديد للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾.

٢٩- أن أكثر قوم نوح، وأكثر الخلق غير مؤمنين، مع ظهور الحق، وقيام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٣١- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة، وأنه سبحانه بعزته أغرق المكذبين من قوم نوح، وبرحمته أنجى نوحًا ومن معه من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

ذكر الله تعالى قصة نوح وقومه، ثم أتبعها بذكر قصة هود وقومه؛ لأن زمانهم كان بعد قوم نوح، وقد جعلهم الله خلفاء من بعد قوم نوح؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، لتكذيبهم نبيهم هودًا عليه السلام، وكانت منازلهم في الأحقاف جنوب الجزيرة، وهي جبال الرمل قريبًا من حضر موت، متاخمة لليمن، وقد أعطاهم الله من القوة، وكبر الأجسام، وشدة الخلق والبطش ما لم يكن لغيرهم، فاغتروا بقوتهم وبأسهم، وكذبوا هودًا عليه السلام، وأصروا على عبادة الأوثان، فسلط الله عليهم الريح، ألطف مخلوقاته، فجعلها أعتى شيء عليهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، والريع: الطريق والمدخل والفج بين الجبال، وقيل: الشرف والمكان المرتفع.

﴿ءَايَةً﴾، أي: علامة ومَعْلمًا وبناء مشهورًا، دلالة على قوتكم وقدرتكم.

﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: تبنون ذلك عبثًا، ولهوًا ولعبًا، واستعراضًا للقوة، وإظهارًا لها، وتضييعًا للزمان، وإتعابًا للأبدان، بلا حاجة، ومن غير فائدة، ولا مصلحة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، بروجًا مشيدة، وقصورًا رفيعة، وحصونًا منيعة، ومصانع كثيرة، ومخازن كبيرة للمياه تحت الأرض.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم، فنادى: «يا أهل دمشق»، فاجتمعوا إليه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «ألا تستحيون؟ ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلًا وركابًا، من يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟!»[1].

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ﴾، البطش: الأخذ بشدة قتلًا وضربًا، وأخذًا للأموال، وغير ذلك، ﴿جَبَّارِينَ﴾ حال، والجبار: الشديد في البغي والظلم بغير رأفة.

والمعنى: وتبطشون بطش جبارين بشدة وبغي وظلم من غير رأفة.

فاغتروا بما أعطاهم من القوة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٣٧٩٩، وذكره ابن كثير ٦/ ١٦٢- ١٦٣.

وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، بترك ما أنتم عليه من عبادة غير الله، وتكذيب الحق، والعبث والانشغال بما لا ينفعكم، والظلم والجبروت، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما آمركم به.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾، تأكيد للأمر بتقوى الله، مع التذكير بنعم الله، ﴿بِمَا﴾، «ما»: موصولة، أي: اتقوا الذي أعطاكم وزودكم بالذي تعلمونه، وبما لا يجهل ولا ينكر؛ من النعم العظيمة، والآلاء الجسيمة، التي لا تحصى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾، الجملة بدل من جملة: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾وتفصيل لها، وكرر الفعل «أمدكم» للتوكيد وزيادة الاهتمام بذلك الإمداد.

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ﴾، أي: أعطاكم وزودكم بأنعام كثيرة؛ من إبل وبقر وغنم، وغير ذلك من بهيمة الأنعام، ﴿وَبَنِينَ﴾، أي: وأمدكم بـ«بنين» كثير، يخدمونكم، وبهم عزكم وفخركم، وهم زينة الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وخص البنين؛ لأنهم هم وأبناؤهم وإن نزلوا يكونون عصبة وقبيلة دون أولاد البنات، فهم من غيرهم؛ قال الفرزدق[(١)]:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا … بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقدم الأنعام وأخر «بنين» لمراعاة الفاصلة.

﴿وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: وبساتين وعيون تنبع من الأرض وتجري.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾، الجملة: تعليل لإنكاره عليهم عدم تقواهم، ولأمره إياهم بالتقوى.

أي: إني أخاف وأشفق أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم في الدنيا، أو عذاب يوم

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢١٧).

القيامة الذي لا أعظم ولا أشد ولا أكبر منه، بسبب كفركم وبطشكم وتجبركم وتكبركم، فدعاهم أولًا بالترغيب، ثم بالترهيب، فما نفعهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾:

قوله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا معاندين للحق، مكذبين لهود عليه السلام، مؤيسين له من قبول ما يدعوهم إليه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾، أي: يستوي عندنا ﴿أَوَعَظۡتَ﴾، أي: أخوفت وحذرت ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، أي: أم لم تكن من المخوفين والمحذرين.

أي: إننا لن نترك عبادة آلهتنا، ولن نؤمن لك لمجرد قولك؛ كما قالوا في الآية الأخرى في سورة هود: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وكما قال تعالى عن كفار هذه الأمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وهذا غاية العتو والقسوة والشقاء؛ أن تبلغ الحال إلى أن تصير مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها كعدمها على حد سواء، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي بفتح الخاء وإسكان اللام: «خَلْقُ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿خُلُقُ﴾.

والجملة: تعليل لقولهم: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، وخلق الأولين: عادتهم ودينهم.

أي: إن هذا الإمداد والنعم، وتغير الأحوال وتقلبها، من شدة إلى رخاء، ومن فقر إلى

غنى، أو العكس، ما هي إلا عادات الأولين؛ من الآباء والأجداد، وأحوال جرت عليهم، وتجري علينا مثلهم، ولا بعث ولا حساب ولا عذاب، فلِمَ تُخوِّفنا؟ كما قال المشركون الدهريون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويحتمل أن المعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، وافتراءاتهم وكذبهم وأساطيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾، الباء: للتوكيد، أي: وما نحن بمعذبين أبدًا، وهذا إنكار منهم للبعث والحساب والجزاء على الأعمال، أو اغترار بما هم فيه من النعم في الدنيا، وأنه إن كان ثمة بعث، على سبيل الفرض، فلن نعذب، بل سننعم؛ كما هي حالنا في الدنيا.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فأصروا واستمروا على تكذيب هود عليه السلام فيما دعاهم إليه، وفيما خوفهم منه.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فاستأصلناهم ودمرناهم بريح صرصر عاتية؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: ٤١- ٤٢].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، ودعوته إياهم إلى

تقوى الله وطاعته، وإنكاره ما هم عليه من عبادة غير الله، والبطش والجبروت، وغير ذلك، وتذكيرهم بنعم الله، وتحذيرهم من عذابه، وعنادهم، وإنكارهم البعث والعذاب، وتكذيبهم، ومن ثم إهلاكهم وتدميرهم.

﴿لَآيَةً﴾، أي: لعظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وعلى صدق هود وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والبطش والجبروت، وتسلية له ﷺ وتهديد للمكذبين له.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم هود، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كافرون ضالون مع بيان الأدلة، وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾، فبعزته عز وجل ورحمته نصر هودًا ومن اتبعه، وأهلك المكذبين من قومه.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب عاد جميع المرسلين بتكذيبهم هود عليه السلام؛ لأن دين الرسل واحد، فمن كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٢- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه عاد خاصة، وأنه ذو نسب فيهم، وأمين على ما بعثه الله به إليهم، وإنكاره عليهم ما هم عليه من عبادة غير الله، وأمره لهم بتقوى الله وطاعته، وترك ما هم عليه من الشرك ومخالفة أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾.

٣- نفيه عليه السلام أنه يسألهم أجرًا على تبليغهم رسالة ربه فيستثقلوا ذلك، وأن أجره كغيره من المرسلين على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥- إنكاره عليه السلام عليهم اشتغالهم عبثًا ببناء المعالم على الطرق، مما لا فائدة فيه، ولا حاجة بهم إليه؛ استعراضًا لقوتهم وقدرتهم واتخاذهم المصانع والقصور؛ كأنهم يخلدون؛ لقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

٦- إنكاره عليهم اغترارهم بما هم عليه من القوة والشدة في الخلق، وبطشهم وجبروتهم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

٧- تأكيده لهم الأمر بتقوى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

٨- تذكيرهم بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم مما لا يخفى عليهم؛ من الأنعام والبنين والعيون وغير ذلك؛ ليتَّقوه؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾.

٩- إن الإمداد بالنعم والأرزاق كله من الله عز وجل؛ مما يستوجب شكره وتقواه وطاعته، وذكر تلك النعم، والتذكير بها، وشكرها، وعدم كفرها.

١٠- شفقته عليه السلام وخوفه عليهم إن أصروا على ما هم عليه من الشرك والبطش والجبروت من عذاب يوم عظيم في الدنيا أو الآخرة؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾﴾.

١١- جمعه عليه السلام لهم بين الترغيب والترهيب، ولكن ذلك لم ينجع فيهم. وهكذا ينبغي أن يُجمع في الدعوة إلى الله بين الترغيب والترهيب.

١٢- شدة عتو عاد، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر، ورفضهم وعظ هود لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

١٣- جهلهم ومكابرتهم، وظنهم الباطل: أن ما هم فيه من النعم، وتقلب الأحوال، وانتقالها من شدة إلى رخاء، ومن رخاء إلى شدة، إنما ذلك عادة الأولين من الآباء والأجداد، فتجري عليهم كما جرت على الأولين قبلهم. وفي هذا جمع بين كفر نعمة الله تعالى، والأمن من عقابه لهم بزوالها؛ لقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

١٤- إنكارهم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، واغترارهم أنه إن كان ثمة بعث فسيُنَعَّمون كحالهم في الدنيا، ولن يعذبوا؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

١٥- إصرارهم واستمرارهم على تكذيب هود عليه السلام، وإهلاكهم واستئصالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾.

١٦- إثبات الأسباب، وأن سبب إهلاك قوم هود هو تكذيبهم له عليه السلام.

١٧- أن في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد ودعوته لهم وما جرى بينه وبينهم، وإصرارهم على ما هم عليه من الشرك والبطش والعناد، وتكذيب هود، ومن ثم إهلاكهم وتدميرهم عظةً وعبرة- دلالةً على عظمة الله وتمام قدرته ونصرته لرسله وأوليائه، والانتقام من أعدائه وإهلاكهم، وفيها وعد له ﷺ وللمؤمنين، ووعيد وتهديد للكافرين.

١٨- أن أكثر عاد، وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي «العزة» و«الرحمة» له عز وجل، وأنه سبحانه بعزته ورحمته ينصر أولياءه، ويهلك أعداءهم؛ ولهذا نصر نبيه هودًا وأهلك عادًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

أتبع عز وجل قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام بقصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام؛ لأنهم بعد عاد في الزمن؛ كما قال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ولأنهم أيضًا كلهم في جزيرة العرب؛ فعاد في جنوبها بالأحقاف، وثمود في شمالها في «العُلا» قرب تبوك، مساكنهم الحجر المعروفة الآن بـ«مدائن صالح».

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾، سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، والتحذير، والتقريع والتوبيخ، أي: أتظنون أنكم ستتركون ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾، أي: في بلادكم، وفيما أنتم فيه

من النعم، سدًى، لا تؤمرون ولا تنهون، ولا تتبدل هذه النعم ولا تتغير، ولا تفارقكم، ولا تفارقونها، أي: لا تظنوا ذلك، فدوام الحال من المحال؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

﴿ءَامِنِينَ﴾، حال، بدأ بالامتنان بنعمة الأمن؛ لأنها من أعظم النعم، ولا يُتذوق طعم النعم الأخرى إلا بها؛ ولهذا امتن الله بها على قريش، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣- ٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال ﷺ: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»(١).

وليت من يغترون بنباح الكلاب من حسّاد هذه البلاد على ما هي فيه من نعمة الأمن يعون هذا المعنى، ويعلمون أن بلادهم مستهدفة من جميع أعداء الإسلام من الرافضة الصفويين واليهود والنصارى والكفرة الملحدين والمنافقين، وغيرهم.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾، أي: بساتين مليئة بالأشجار والثمار، وعيون نابعة بذاتها بالمياه العذبة تجري من غير كلفة.

﴿وَزُرُوعٍ﴾، تثمر أنواع الحبوب التي هي من أهم الأغذية.

﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، أي: ثمرها يانع لين نضيج، مهضوم، من أطيب الثمار.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، قرأ حمزة وعاصم وابن عامر بألف بعد الفاء: ﴿فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١؛ من حديث سلمة بن عبيدالله بن محصن الخطمي، عن أبيه رضي الله عنه.

وقرأ الباقون بغير ألف: «فَرِهِينَ»، أي: ماهرين بنحتها حاذقين عارفين، متقنين لها، أشرين بطرين؛ كما قال هود لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٢٩].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾، تأكيد للأمر بتقوى الله وطاعته شكرًا له بعد أن ذكرهم بنعمه.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾، الإسراف: مجاوزة الحد، أي: ولا تطيعوا أمر المسرفين بالشرك، المتمادين في الكفر والمعاصي.

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ صفة للمسرفين، وهي صفة كاشفة، أي: الذين وصفُهم ودأبهم وديدنهم الإفساد في الأرض بالشرك والكفر والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، تأكيد لشدة إفسادهم في الأرض؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

وبين قوله: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ وقوله: ﴿يُصْلِحُونَ﴾، طباق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا من المسحرين، أي: من المسحورين، المغلوب على عقولهم بكثرة السحر، فأنت تهذي بما لا معنى له، وبما لا تدري.

﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا بشر مثلنا، فكيف

أوحي إليك دوننا؟! كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٥- ٢٦].

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ تدل على صحة ما جئت به وقصدهم بهذا التحدي؛ ولهذا قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ بأنك مرسل إلينا.

وكون الرسل من البشر لا بد منه؛ ليتمكنوا من تبليغ رسالات الله إلى بني جنسهم، وليس ذلك بقادح في رسالتهم؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾، أي: قال لهم صالح: هذه ناقة هي لكم آية؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٧٣]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٦٤].

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾، أي: ترد ماءكم وتشربه يومًا، وتشربون من لبنها في ذلك اليوم.

﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، تردون فيه الماء وتشربونه أنتم، وفي ذلك ابتلاء وامتحان لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ۝٢٨﴾ [القمر: ٢٧- ٢٨].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، أي: ولا تصيبوها بعقر أو غيره.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، الفاء: للسببية، أي: فيأخذكم بسبب ذلك عذاب يوم عظيم في الدنيا، وفي هذا وعيد وتهديد وتحذير لهم.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: قتلوها؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٧٧]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ [الآية: ٦٥].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ۝١٥٧﴾ على قتلها لما ينتظرهم من العذاب الذي تُوعدوا به،

وما فاتهم من شرب لبنها.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي توعدهم به هود عليه السلام بقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥].

وهي صيحة عظيمة أرجفت بهم، وصعقتهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم، فهلكوا عن آخرهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١- ١٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام، ودعوته لهم إلى تقوى الله تعالى وطاعته، وتذكيره إياهم بنعم الله تعالى عليهم، ونهيهم عن طاعة المفسدين. واتهامهم إياه بالسحر، ومطالبتهم له عنادًا منهم أن يأتيهم بآية، وإرسال الناقة لهم آية، وتكذيبهم له وعقر الناقة، ومن ثم أخذهم بالعذاب وإهلاكهم.

﴿لَأَيَةً﴾، أي: لعظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على صدق صالح عليه السلام وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى ونصره لرسله وأوليائه، وانتقامه من المكذبين لهم وإهلاكهم، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر ثمود، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كفار مكذبون ضالون، مع وضوح الحق وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾، فبعزته عز وجل ورحمته أنجى صالحًا والذين آمنوا معه، وأهلك المكذبين له بالصيحة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۞ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۞﴾ [هود: ٦٦- ٦٧].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب ثمود جميع الرسل؛ لتكذيبهم صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞﴾.

٢- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود خاصة، وأنه ذو نسب فيهم، أمين على ما بعثه به إليهم، وإنكاره عليهم ما هم عليه من الشرك، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۞﴾.

٣- أنه عليه السلام لم يسأل قومه ثمود أجرًا على إبلاغهم رسالة ربه، وإنما أجره- كغيره من المرسلين- على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥- تذكير قومه بنعم الله تعالى العظيمة عليهم، وتخويفهم وتحذيرهم من زوالها، أو زوالهم عنها؛ لقوله: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۞ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۞ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ۞ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ۞﴾.

٦- أن نعمة الأمن من أعظم النعم؛ لهذا قدمها في الذكر على غيرها من النعم، ولا يعرف قدرها تمامًا إلا من فقدها.

٧- وجوب شكر النعم، ومن أهمها: نعمة الأمن في الأوطان، والصحة في الأبدان، والرزق، وقبل ذلك كله نعمة الإسلام.

٨- أن طلع النخل وثمرها من أطيب الثمار وأنفعها؛ لأن الله امتدحه فقال: ﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ۞﴾؛ ولهذا سأل ﷺ أصحابه عن الشجرة التي تشبه

المسلم، فقال لهم: «**هي النخلة**»[١].

٩- منة الله على ثمود بما أعطاهم من القوة والقدرة والمهارة في نحت البيوت من الجبال وإتقانها؛ وبطرهم وأشرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢].

١٠- تأكيد الأمر لهم بتقوى الله وطاعته، شكرًا لله تعالى بعد تذكيرهم بنعمه؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾.

١١- نهيه إياهم عن طاعة أمر المسرفين، الذين دأبهم الإفساد في الأرض، بلا إصلاح؛ لقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

١٢- نصح صالح عليه السلام لقومه، فأمرهم بتقوى الله وطاعته، وحذرهم من طاعة المسرفين المفسدين، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ كما قال ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم»[٢].

١٣- مكابرة ثمود وعنادهم، واتهامهم صالحًا عليه السلام بأنه مسحور، قد غلب السحر على عقله، يهذي بما لا يدري؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، وهذا شأن المكذبين للرسل.

١٤- قدحهم في رسالته، وتكذيبهم إياه بعلة أنه بشر مثلهم، وليس بملك، فكيف يوحى إله دونهم؟! لقولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، وقد ردت الرسل عليهم السلام على هذا بقولهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

١٥- اقتراحهم وطلبهم منه إتيانهم بآية تدل على صدقه؛ لقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٣١، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦).

كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

١٦- إخراج الله لهم الناقة آية ودلالة بينة على صدقه عليه السلام، وابتلاؤهم بأن يكون لها شرب ولهم شرب يوم معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

١٧- تحذيره إياهم من أن يمسوها بسوء أو يتعرضوا لها بأذى، في بدنها أو شربها، فيصيبهم عذاب عظيم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

١٨- مخالفتهم وتكذيبهم له، وإقدامهم على عقرها وقتلها وأخذهم بالعذاب وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

١٩- أن في قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، ودعوته لهم، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم إياه، وعقرهم الناقة، وإهلاكهم- عبرةً وعظة، ودلالة على صدق صالح، وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى ونصرته لرسله وأوليائه، وإهلاك أعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾، وفي هذا تهديد للمكذبين للنبي ﷺ وتسلية له.

٢٠- أن أكثر ثمود وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطابه عز وجل، وإضافة اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٢- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾:

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾، «لوط»: هو لوط بن هارون بن آزر، وهو ابن أخ إبراهيم الخليل عليه السلام، بعثه الله في حياة إبراهيم، وقومه كانوا يسكنون «سدوم» التي قلبها الله عليهم بسبب كفرهم وارتكابهم فاحشة اللواط، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

وقد سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: كيف تأتون الذكران، أي: الذكور فيعلو الذكر منكم الذكر، وترتكبون الفاحشة العظيمة فاحشة اللواط، التي هي أعظم الفواحش؛ لمخالفتها للفطرة؟!

﴿مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: شاذين ومخالفين في هذه الفعلة القبيحة الشنيعة جميع العالمين، حتى العجماوات! فإنه لا يوجد في الحيوانات كلها أن الذكر منها يعلو الذكر؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الآية: ٨٠]، وقال في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: من الناس.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ اللام في قوله: ﴿لَكُمۡ﴾: للإباحة، أو التعليل، أي: وتتركون نكاح الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من النساء اللاتي أباحهن الله لكم بعقد الزوجية الصحيح.

وفي قوله: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ إشارة إلى أن الله هيأ الزوجة للرجل يتمتع بها كما يشاء إلا ما حرم الله من الدبر، كما قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦﴾ [المؤمنون:٥، ٦، المعارج:٢٩، ٣٠].

وبين قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ﴾، و﴿تَذَرُونَ﴾ طباق إيجاب.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾، «بل» للإضراب الانتقالي. و«العادي»: من تجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، أي: بل أنتم قوم معتدون، متجاوزون ما أباح الله لكم من الحلال إلى الحرام، وفيه انتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذم؛ تغليظًا للإنكار عليهم.

وفي قوله: ﴿قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ دون أن يقول: «بل أنتم عادون» إشارة إلى أن هذا العدوان قد صار سجية فيهم، وعادة لهم.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته يا لوط عن دعوتنا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإنكار ما نحن عليه من الشرك وارتكاب الفاحشة والمعاصي.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾، جملة جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم،

أي: لتكونن من المخرجين من البلاد المنفيين المطرودين عنها، أي: لننفينك ونخرجنك من بين أظهرنا ومن بلدنا؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

وفي قولهم: ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ دون أن يقولوا: ﴿لنخرجنك﴾ زيادة في التهديد بأن لنا سلطانًا وقوة، وقد أخرجنا غيرك، وستكون أنت من جملة المخرجين.

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم﴾، أي: لما أنتم عليه من الكفر وفعل الفاحشة.

﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، أي: من المبغضين له بغضًا شديدًا، الناهين عنه، المحذرين منه، البريئين منه، وممن يعمله.

وفي هذا تحدٍّ لهم؛ أي : أني أبغض عملكم هذا، وأتبرأ منه، مهما كانت التبعة، ولا يهمني إن أخرجتموني.

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، أي: يا رب نجني وخلصني وأهلي من الذي يعملونه أو من عملهم، أي: من عملهم وعقوبته.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾، الفاء: عاطفة، أي: فاستجبنا له، فنجيناه وأهله أجمعين، أي: كلهم، بأمرنا له بالإسراء بهم؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«عجوزًا»: منصوب على الاستثناء.

﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: في الباقين في العذاب، وهي امرأته؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الآية: ٨٣]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [الآية: ٨١]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الآية: ٦٠].

وكانت امرأة سوء كافرة تدل قومه على أضيافه، وتخونه؛ كما قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ

عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الآية: ١٠].

﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾، أي: ثم بعد أن أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين بخروجهم من قرية قومهم، ﴿دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾، أي: أهلكنا الآخرين، وهم قومه الكافرين.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، من السماء من الحجارة بعد قلب ديارهم وجعل عاليها سافلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَسَآءَ﴾، أي: فبئس وقبح ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، مطرهم الذي أُمطروه بعد الإنذار لهم، وهي الحجارة.

وقوله: ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ دون أن يقول: مطرهم؛ لبيان أنهم قد أنذروا وحذروا وقامت عليهم الحجة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في إرسال لوط إلى قومه، ودعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته وعبادته وحده، وإنكاره ما هم عليه من الشرك وفعل الفاحشة، وتكذيبهم وتوعدهم إياه بالإخراج، وسؤاله ربه نجاته وأهله من فعلهم وعقوبتهم، واستجابته عز وجل له، وإنجائه وأهله المؤمنين وتدمير وإهلاك الكافرين.

﴿لَأٓيَةٗۖ﴾، أي: لدلالة على صدق لوط وصحة ما جاء به، وعلى كمال قدرة الله تعالى، حيث أنجى لوطًا وأهله المؤمنين، وأهلك قومه المكذبين الكافرين، وفي ذلك عظة وعبرة للمعتبرين، ووعيد وتهديد للمعاندين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم لوط مؤمنين، بل أكثرهم كافرون؛ إذ لم يؤمن به إلا أهله، عدا امرأته؛ كما أن أكثر الخلق غير مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾، فبعزته عز وجل ورحمته أنجى لوطًا وأهله المؤمنين، وأهلك قومه الكافرين.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب قوم لوط له عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾، ومن كذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل.

٢- إثبات رسالة لوط إلى قومه خاصة، وإنكاره عليهم ما هم عليه من عبادة غير الله، وارتكاب الفاحشة، وبيان أمانته على ما بعثه الله به إليهم، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾.

٣- أنه عليه السلام كغيره من الرسل لم يسأل قومه أجرًا على تبليغهم رسالة ربه، وإنما أجره على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّكُم﴾.

٥- إنكاره على قومه إتيانهم الذكران، وارتكابهم فاحشة اللواط؛ وأنه ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾.

٦- إنكاره عليهم رغبتهم عما خلق الله لهم من الزوجات الحلال إلى المحرم شرعًا، والشاذ فطرة؛ لقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾.

٧- أن منهج التشريع الرباني إذا حظر شيئًا وحرمه أباح ما يغني عنه؛ ولهذا لما أنكر لوط عليه السلام على قومه إتيان الذكران، بين لهم ما يغني عنه من الحلال، وهو ما خلق الله لهم من الأزواج.

٨- تغليظه عليه السلام الإنكار عليهم، وذمهم بتجاوزهم الحلال إلى الحرام، وكون ذلك سجية لهم؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وفي هذا دلالة على أن من تجاوز الحلال إلى الحرام فهو عادٍ ظالم.

٩- شدة عتوهم وعنادهم، فبدل أن يجيبوا دعوته هددوه وتوعدوه بالإخراج من بلده إن لم يكف عن دعوتهم، وترك الإنكار عليهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾.

١٠- أن منهج المكذبين للرسل ولدعاة الحق واحد، فإذا عجزوا عن معارضة الحق بالحجة لجؤوا إلى التهديد بالقوة؛ بالإخراج أو القتل ونحو ذلك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

١١- إعلانه عليه السلام بغضه الشديد لعملهم، ونهيه عنه، وتحذيره منه وتحديه لهم في ذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾.

١٢- يجب على كل مؤمن أن يبغض هذا العمل؛ لأن الله شدد في تحريمه وغلَّظ عقوبته، وأبغضه رسله عليهم السلام.

١٣- سؤاله ربه نجاته وأهله من عمل قومه وعقوبته؛ لقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه لوط عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

١٥- استجابة الله تعالى لدعاء لوط، وإنجاؤه وأهله من العذاب إلا امرأته؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

وهذا يتضمن إثبات علمه عز وجل وقدرته ورحمته.

١٦- أن القرب من الرسل والصالحين نسبًا أو مصاهرة مع الكفر والبعد عن الله، لا يغني صاحبه شيئًا، فهذه امرأة لوط هلكت مع من هلك.

١٧- تدمير المكذبين من قومه وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

١٨- أن تدمير قوم لوط وإهلاكهم كان بإمطارهم حجارة من السماء بعد قلب ديارهم، وجعل عليها سافلها، وبئس المطر الذي أمطروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾. وقد استدل أهل العلم بالآية على أن حد اللوطي هو القتل.

١٩- أنهم قد أنذروا وحذوا وقامت الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُنذَرِينَ﴾.

٢٠- أن في رسالة لوط عليه السلام إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وإنكاره ما هم عليه من الشرك، وارتكاب الفاحشة والمعاصي، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم وتهديدهم له، وإنجائه وأهله المؤمنين وتدمير الكافرين- دلالةً على صدقه، وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى، وعظةً وعبرة للمعتبرين، وتهديدًا للمعاندين، وتحذيرًا من ارتكاب عملهم الشنيع.

٢١- أن أكثر قوم لوط غير مؤمنين، بل ما آمن معه إلا بعض أهله؛ كما أن أكثر الخلق عامة غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

٢٣- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

٢٤- أنه عز وجل بعزته أهلك المكذبين الكافرين من قوم لوط، ويهلك أمثالهم، وبرحمته أنجاه وأهله المؤمنين، وينجي غيرهم من المؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠﴾:

قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦﴾ الآيات؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بلام مفتوحة من غير ألف وصل، ولا همزة بعدها، وبفتح تاء التأنيث في الوصل: «لَيْكَةَ»، وقرأ الباقون بألف وصل مع إسكان اللام وهمزة مفتوحة بعدها وخفض تاء التأنيث: ﴿الأَيْكَةِ﴾.

والأيكة: الشجرة، أو الشجر الملتف؛ كالغيضة.

وأصحاب الأيكة: هم أهل «مدين» قوم شعيب عليه السلام، وكان شعيب عليه السلام منهم نسبًا، وإنما لم يقل هنا: «أخوهم شعيب»- والله أعلم- قيل: لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، ولهذا نسبه إليهم في سورة الأعراف وهود والعنكبوت، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤،، العنكبوت: ٣٦]، كما وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، ونهاهم عن الإفساد في الأرض كما في قصة مدين، سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة، واختار هذا ابن كثير(١).

---

(١) في «تفسيره» (٦/ ١٦٨).

وقال بعض المفسرين: إن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، وإنهما أمتان، وإن شعيبًا أرسل إليهما جميعًا، واستدل من قال هذا بأنه لم يقل أخوهم، وقالها في قصة «مدين»، كما استدل من قال: إنهما أمتان باختلاف عذابهما، فمدين أخذوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة أخذوا بعذاب يوم الظلمة. واختار هذا ابن عثيمين[1]؛ وقد سبق الكلام على نظير هذه الآيات في الكلام على قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤﴾.

بعد أن أنكر عليهم عدم تقوى الله، وما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، أمرهم بإيفاء الكيل والوزن بالعدل، ونهاهم عن نقصهما، وبخس الناس حقوقهم، وعن الإفساد في الأرض؛ لأن تخسير الكيل وبخس الوزن، وقطع الطريق كان ظاهرًا مشتهرًا فيهم.

قوله: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾، أي: أتموا الكيل إذا كلتم للناس، وأكملوه.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾، تأكيد لما قبله، و«المخسرين»: جمع «مخسر»، وهو فاعل الخسارة لغيره، أي: المنقص، أي: ولا تكونوا من المطففين في الكيل، المخسرين المنقصين للناس.

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بكسر القاف: ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «بِالقُسْطَاسِ»، أي: بالميزان العدل السوي.

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، أي: ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم وأموالهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أي: ولا تسعوا في الأرض مفسدين بقطع الطريق، بالقتل وأخذ الأموال والصد عن سبيل الله؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَلَا

---

(١) في «تفسير القرآن الكريم» سورة الشعراء (ص٢٧٤).

تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية: ٨٦].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: والخلق الأولين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، أي: خلقًا كثيرًا.

وهذا تأكيد للأمر بتقوى الله، مع تذكيرهم بأنه سبحانه الذي خلقهم وخلق من قبلهم من الأمم، وذلك موجب لتقواه عليهم وشكره، وهذا كقول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، الله أكبر، إنها السنن، شابهوا بهذا جواب ثمود لنبيهم صالح بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٤].

أي: وما أنت يا شعيب إلا من المسحورين، وما أنت إلا بشر مثلنا، فما الذي فضلك بالرسالة دوننا، وقد سبق الكلام على الآيتين.

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، الواو عاطفة، و«إن» مخففة من الثقيلة مهملة، واللام: للتوكيد، أي: وإن نظنك لمن الكاذبين في زعمك أنك مرسل إلينا.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قرأ حفص بكسر الكاف وفتح السين: ﴿كِسَفًا﴾، وقرأ الباقون بسكون السين: «كِسْفًا»، أي: أسقط علينا قطعًا من العذاب من السماء تهلكنا، وتستأصلنا. وهذا أشد من قول قوم صالح: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ [الشعراء:١٥٤].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في زعمك أنك رسول الله إلينا، وهذا تأكيد لتكذيبهم، ومكابرة وعناد منهم، وجهل وغرور؛ كما قال كفار قريش: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢]، وكما قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨﴾، أي: ربي أعلم بعملكم، أو بالذي تعملونه، فيجازيكم عليه بما تستحقون في الدنيا والآخرة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فأصروا واستمروا على تكذيبه.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فأصابهم وأهلكهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم ووجدوا تحتها برْدًا، بعد حر شديد أصابهم، فلما اجتمعوا أحرقتهم بنارها، ورجفت بهم الأرض؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الآية: ٩١]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾ [الآية: ٣٧].

وجاءتهم صيحة عظيمة من السماء أسكتتهم؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ [الآية: ٩٤].

وهذا جنس ما سألوا من إسقاط كسف من السماء عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، اجتمع عليهم فيه حر النار وإحراقها، والرجفة، والصيحة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: في قصة شعيب وأصحاب الأيكة، وإنكاره عليهم ما هم عليه من الشرك؛ وتطفيف الكيل والوزن، وتخسير الناس وبخسهم أشياءهم، والإفساد

في الأرض، ودعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته، وتكذيبهم إياه، وأخذهم بعذاب يوم الظلة العظيم.

﴿لَآيَةً﴾، أي: لدلالة على صدق شعيب عليه السلام، وصحة ما جاء به، وعلى كمال قدرة الله تعالى في إهلاك المكذبين، والانتصار لرسله وأوليائه، وفي ذلك عظة وعبرة للمعتبرين، ووعيد للمعاندين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم شعيب ولا أكثر الخلق مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فبعزته أهلك أصحاب الأيكة بالعذاب العظيم، وبرحمته انتصر لشعيب ونجاه ومن معه من المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب أصحاب الأيكة المرسلين بتكذيبهم نبيهم شعيبًا عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾.

٢- إثبات رسالة شعيب عليه السلام، وأن الله أرسله إلى أصحاب الأيكة، وهم أهل مدين، فدعاهم إلى تقوى الله وترك ما هم عليه من عبادة غير الله، وبيّن لهم أمانته على ما أرسله الله به إليهم، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾.

٣- بيانه عليه السلام لقومه أنه لا يسألهم أجرًا مقابل تبليغهم رسالة ربه، وإنما أجره على رب العالمين؛ كغيره من الرسل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥- أمره عليه السلام لقومه بالوفاء بالكيل والوزن بالعدل، ونهيهم عن نقصهما، وبخس الناس حقوقهم؛ لقوله: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

٦- نهيه إياهم عن الإفساد في الأرض بقطع الطريق والصد عن سبيل الله؛ لقوله:

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٧- تأكيده أمرهم بتقوى الله، مع تذكيرهم بأنه خلقهم وخلق من قبلهم من الأمم، استدلالًا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٨٤﴾.

٨- شدة عتوهم وعنادهم واتهامهم شعيبًا عليه السلام بأنه مسحور، قد غلب السحر على عقله، فلا يدري ما يقول؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

٩- قدحهم في رسالته، وتكذيبهم إياه؛ لأنه بشر مثلهم، فكيف خص بالرسالة دونهم؟! لقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦﴾.

١٠- شدة تكذيبهم ومكابرتهم وجهلهم؛ لسؤالهم العذاب بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾.

١١- تفويضه عليه السلام أمر العلم بأعمالهم، وما يستحقون عليها من عقاب في الدنيا والآخرة إلى ربه؛ لقوله: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه شعيب عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّيٓ﴾.

١٣- إثبات علم الله تعالى بجميع أعمال العباد؛ لقوله: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٤- إصرار قوم شعيب على تكذيبه، واستمرارهم على ذلك، وأخذهم بعذاب يوم الظلة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾.

١٥- شدة عذاب ذلك اليوم وعظمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، اجتمع عليهم فيه حر النار التي أحرقتهم، ورجفة الأرض بهم، والصيحة التي أسكتتهم.

١٦- أن في قصة شعيب عليه السلام وقومه، ودعوته إياهم إلى توحيد الله تعالى وتقواه، وإنكاره ما هم عليه من الشرك، ونقص الكيل والوزن، وتخسير الناس وبخسهم أشياءهم، والإفساد في الأرض، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، وتكذيبهم إياه، وأخذهم بعذاب يوم الظلة- دلالةً على صدق شعيب وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى، وعظةً وعبرة للمعتبرين، ووعيدًا وتهديدًا للمعاندين؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

١٧- أن أكثر قوم شعيب، وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾.

١٩- إثبات اسمي الله تعالى: «العزيز»، و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

٢٠- أنه عز وجل بعزته أهلك الكفار المكذبين من قوم شعيب، ويهلك غيرهم من الكافرين، وبرحمته انتصر لشعيب والذين آمنوا معه، وينتصر لغيرهم من أوليائه من رسله وأتباعهم المؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾:

ذكر الله عز وجل قصص عدد من الأنبياء، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وتكذيب كثير من أولئك الأقوام لرسلهم، وإنجاء الله تعالى لرسله، وإهلاك المكذبين، ثم ختم عز وجل بامتداح القرآن الذي ختمت الرسالات به، والثناء عليه، والتنويه به؛ كما افتتح هذه السور بذلك.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾، الواو: استئنافية، وضمير الهاء يعود إلى القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ، فهو عود إلى ما افتتحت به السورة من التنويه في قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾، بكون القرآن الآية العظمى، وذم المشركين المعرضين عنه، المكذبين به، ووعيدهم وتهديدهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

لتختتم السورة بإطنابِ التنويهَ بالقرآن؛ كما ابتدأت بإجمال التنويه به، والتنبيه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين، وبتأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين به في ختام السورة لما سبق في أولها.

أي: وإنه، أي: القرآن العظيم الذي هو أفضل كتب الله تعالى المهيمن على جميع الكتب قبله.

﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، اللام: للتوكيد، وفي إضافته إلى رب العالمين تعظيم له. وإشارة إلى أنه من مقتضى ربوبيته للعالمين تنزيله هذا الكتاب عليهم، كما أن فيه إشارة إلى أنه تشريع عام على العالمين.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾، قرأ يعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بتشديد الزاي ونصب «الروح الأمين»: «نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ».

وقرأ الباقون بتخفيف الزاي، ورفعهما: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾.

أي: نزل بهذا القرآن من عند الله عز وجل ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، «الروح»: جبريل عليه السلام أفضل الملائكة وأشدهم وأقواهم؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ٢٠].

و﴿ٱلْأَمِينُ﴾ صفة لـ«جبريل»؛ لأن الله أمنه على وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢١].

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي: على قلبك يا محمد؛ لتعيه وتحفظه، ويثبت ويرسخ، وهذا من تمام عنايته عز وجل بالقرآن، وبحفظه ﷺ له.

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فإسناد نزوله أصح الأسانيد: أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل وبلغه إلى النبي ﷺ.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكون من المنذرين، أي: من الرسل المنذرين للناس من عذاب الله، المحذرين منه.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾، الباء: للملابسة، و«اللسان»: اللغة، أي: بلسان العرب ولغتهم.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيّن واضح الدلالة على المعاني أتم الوضوح، مفصح عنها أتم الإفصاح؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ كما قال حافظ إبراهيم على لسان

اللغة العربية(١):

وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

فجمع هذا القرآن العظيم الفضائل كلها؛ فهو أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الرسل، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين، على أفضل الأمم، خير أمة أخرجت للناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، الواو: عاطفة، وضمير الهاء يعود إلى القرآن، واللام: للتوكيد، و«زبر الأولين»: كتبهم.

والمعنى: وإنه، أي: القرآن؛ يعني: ذكره والتنويه به، لموجود في كتب الرسل الأولين؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما، أخذ الله الميثاق على النبيين ليؤمنن به، وبشروا به أممهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾، قرأ ابن عامر: «تَكُنْ» بالتاء على التأنيث، و«آيةٌ» بالرفع فاعل، وقرأ الباقون بالياء على التذكير ﴿يَكُن﴾ ونصب ﴿ءَايَةً﴾ خبرًا لـ﴿يَكُن﴾.

والاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ. والمعنى: أولم يكن لهؤلاء المشركين المكذبين للقرآن وللنبي ﷺ ﴿ءَايَةً﴾، أي: علامة ودلالة على صحة القرآن، وأنه تنزيل

(١) انظر: «ديوانه» (ص٦٦).

من رب العالمين، وعلى صدق نبوتك؟

﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «يكن»، أي: أولم يكن لهم آية علم بني إسرائيل به؟ أي: العدول المنصفون منهم؛ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وورقة بن نوفل، وغيرهما؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾، جمع «أعجم»، وهم الذين لا يتكلمون العربية ولا يفهمونها، ولا يقرؤون بها.

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾، أي: فقرأه الرسول المرسل به على هؤلاء الأعجمين.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لعدم فهمهم له.

والمراد: أن هؤلاء المشركين؛ لشدة كفرهم وعنادهم، وتكذيبهم لهذا القرآن مع بيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ كحال الأعجمين الذين لا يفهمونه بسبب عجمتهم؛ كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

وفي الآية تذكير لهؤلاء المكذبين بنعمة الله؛ أن جاء هذا القرآن باللسان العربي المبين على لسان أفصح الخلق، ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا

مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾، أي: كذلك سلكنا الكفر والتكذيب والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، فتوارثوه جيلًا بعد جيل، فصاروا وصفًا وسمة لهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: لا يؤمنون بما جاء من الحق على ألسنة الرسل.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، أي: إلى غاية أن يروا العذاب، فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، أي: فيأتيهم العذاب فجأة، وعلى حين غفلة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، الجملة حالية، أي: وهم غافلون لا يشعرون بإتيان العذاب، ولا يحسون به؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم، والنكال بهم، كما قال ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١).

﴿فَيَقُولُوا۟﴾ حين رؤيتهم العذاب: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، الاستفهام بمعنى: التحسر والتمني وطلب المحال، أي: هل نحن ممهَلون مؤخَّرون؟ أي: يتمنون ويطلبون حين يشاهدوا العذاب أن لو أنظروا وأمهلوا؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحًا بعد فوات الأوان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى

(١) سبق تخريجه.

عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾، الاستفهام للإنكار والتهديد والتوبيخ، أي: أفبعذابنا الأليم الشديد العظيم ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾، إنكارًا له، وتكذيبًا به، واستبعادًا له.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾، الهمزة للاستفهام، أي: أخبرني إن أنظرناهم وأمهلناهم سنين طويلة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾، أي: ثم جاءهم الذي كانوا يوعدونه من العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، «ما»: اسم استفهام يفيد النفي، ويجوز كونها نافية. والأول أولى؛ لأنه أبلغ، ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: أيُّ شيء يغني عنهم، أي: يدفع عنهم الذي كانوا يمتعونه أو تمتيعهم بالنعم سنين، أي: لا يغني ذلك عنهم شيئًا؛ لا في دفع العذاب عنهم، ولا في رفعه، ولا في تخفيفه ؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل**

النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له، يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(١).

قال ابن كثير(٢): «أي: ما كأن شيء كان؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنك لم تُوتَر من الدهر ليلة … إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما أهلكنا ودمرنا أيَّ قرية من القرى، وأيَّ أمة من الأمم المكذبة.

﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بعد الإنذار لهم والإعذار إليهم، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب، وقيام الحجة عليهم عدلًا منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ذِكۡرَىٰ﴾، مفعول لأجله، أي: الإنذار، أو المنذِرون، لأجل الذكرى، أي: تذكيرًا وموعظة لهم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فنهلك القرى قبل إنذارهم، وقبل إقامة الحجة عليهم، وما كنا ظالمين في إهلاكهم بعد إنذارهم بسبب كفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾:

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨٠٧، والترمذي في الزهد ٤٣٢١، وأحمد ٣٢٠٣، ٢٣٥.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ١٧٥. وانظر: «سيرة عمر» لابن الجوزي (ص١٣٥)، «سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٤٢)، «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١/ ٦٩)، «التذكرة الحمدونية» (٧/ ٨٣)، «خزانة الأدب» (٣/ ٣٠). والشطر الأول في أكثر هذه المصادر: «كأنك لم تسبق»، وفي بعضها: «كأنك لم تنصب...» وليس فيها: «توتر».

لما امتدح عز وجل القرآن وبيَّن كماله وجلالته، بيَّن حفظه له وقت نزوله وبعد نزوله، من شياطين الجن والإنس، فقال:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾، أي: وما تنزلت بالقرآن الشياطينُ، بل هو محفوظ منهم وقت نزوله، وبعد نزوله؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾، أي: ليسوا أهلًا له، ولا يصلح لهم، ولا يليق أبدًا أن ينزلوا به؛ لأنه الداعي إلى كل خير، وهم دعاة لكل شر، فبينه وبين الشياطين أعظم المنافاة، وأشد النفرة.

﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ التنزل به، وما يمكنهم ذلك.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾، الجملة تعليل لما قبلها، أي: إنهم عن استماع القرآن من السماء، وعن سماع الملأ الأعلى ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لمحجوبون ممنوعون، مرجومون بالشهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٦- ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٧- ١٠].

وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٨- ٩].

الفوائد والأحكام:

١- تعظيم القرآن الكريم والتنويه بشأنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾.

٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ

﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع لخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥- أن الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل هو الروح الأمين «جبريل عليه السلام»، أفضل الملائكة وأقواهم وأشدهم خَلقًا، نزل به على قلب النبي ﷺ، وبلغه إياه، وأوحاه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

٦- فضيلة جبريل عليه السلام؛ لأن الله وصفه بـ«الأمين»، وجعله أمينًا على وحيه.

٧- أن الحكمة من إنزال القرآن على قلب النبي ﷺ: بعثه وإرساله به لإنذار الخلق من عذاب الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾.

ومن لازم ذلك تبليغهم ما أرسل به من التكاليف؛ ليمتثلوا ذلك فينجوا مما حذروا منه من العذاب، وتحصل لهم البشرى بالثواب.

٨- تشريف اللغة العربية بإنزال القرآن بها، والتنويه بها؛ لأنها أفصح اللغات وأبينها وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾.

٩- شهادة الكتب السابقة بصدق القرآن؛ لما فيها من أخذ الميثاق على النبيين بالإيمان بالرسول ﷺ والقرآن المصدق لما معهم، ومن البشارة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾.

١٠- الإنكار على المشركين، وتقريعهم على تكذيبهم الرسول ﷺ والقرآن، مع علم بني إسرائيل وشهادة المنصفين منهم بصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾.

١١- فضيلة العلم وأهله الصادقين العاملين به؛ لأن الله جعل علم علماء بني إسرائيل بالقرآن آية ودلالة على صدقه، كما جعل العلماء شهداء على وحدانيته، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ

ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[آل عمران:١٨].

١٢- شدة كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم للقرآن، وبعدهم عن الإيمان به، وأنهم في ذلك كحال ما لو أنزل القرآن على بعض الأعجمين الذين لا يفهمون العربية فإنهم لا يؤمنون به؛ لعدم فهمهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

١٣- تذكيرهم بنعمة الله تعالى بمجيء القرآن الكريم باللسان العربي المبين، وعلى لسان أفصح الخلق، مما ييسر عليه فهمه؛ بخلاف الأعجمين؛ فإنهم لا يستطيعون فهمه.

١٤- أن نعمة الله تعالى على العرب في إنزال القرآن بلغتهم أعظم من غيرهم، والواجب عليهم في تصديقه والانقياد له وتعليمه والدعوة إليه أكثر من غيرهم.

١٥- إدخاله عز وجل الكفر والتكذيب والعناد قدرًا في قلوب المجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

١٦- إثبات القدر، وأن الله عز وجل قدّر مقادير كل شيء؛ من الكفر والإيمان وغير ذلك.

١٧- شدة كفرهم وعتوهم، وعدم إيمانهم إلا بعد رؤية العذاب الأليم، وفوات أوان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾.

١٨- أن الإيمان بعد رؤية العذاب لا ينفع صاحبه؛ لأنه إيمان اضطرار، لا اختيار.

١٩- أن العذاب يأتي بغتة وفجأة دون أن يشعر به المعذبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾، وذلك أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

٢٠- تمنيهم الإنظار والإمهال وتأخير العذاب عنهم؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحًا، بعد فوات الأوان؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾، وهم كاذبون في ذلك، فلو أنظروا لما آمنوا وعملوا صالحًا؛ كما أخبر الله عنهم.

٢١- تقريعهم والإنكار عليهم في استعجالهم العذاب؛ إنكارًا له، وتكذيبًا به، واستبعادًا له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

٢٢- أنهم لو أنظروا وأمهلوا ومتعوا في الأرض سنين طويلة، ثم جاءهم ما توعدوا به من العذاب لم يغن عنهم ما متعوا به، ولم يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾.

٢٣- كمال عدل الله عز وجل، وإقامته الحجة على المكذبين قبل تعذيبهم وإهلاكهم، بإرسال الرسل والنذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾.

٢٤- أن إرسال الرسل والنذر للتذكير والموعظة، والتحذير من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

٢٥- انتفاء الظلم عن الله عز وجل كلية؛ لكمال عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ ولهذا لا يعذب أحدًا إلا بعد الإعذار إليه وإنذاره.

٢٦- حفظ الله عز وجل للقرآن وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن والإنس، وأنه ما ينبغي لهم ولا يليق بهم ولا يناسبهم. والحيلولة بينهم وبين استماع القرآن وخبر السماء، ومنعهم برميهم بالشهب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: فلا تعبد مع الله معبودًا آخر، وهذا نهي له ﷺ ولأمته.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فتكون- إن دعوت مع الله إلهًا آخر- من المعذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥- ٦٦].

وهذا النهي له ﷺ، والتحذير من العذاب؛ تأكيد على نهي أمته عن الشرك، وتحذير لها منه، ووعيد للمشركين.

أما هو ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فإنهم معصومون عن الخطأ في التبليغ مطلقًا، ومعصومون عن الوقوع في الكبائر أيضًا، وقد غفر له ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

عن عائشة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه،

فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!**»(١).

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، أي: وحذر وخوف من عذاب الله ﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أي: الأدنين إليك، أي: الأقرب منهم فالأقرب، فكل من كان منهم أقرب فحقه في الإنذار والدعوة أعظم.

وأَمَرَه عز وجل بإنذار الأقربين خاصة؛ لأنهم أولى، وحقهم أعظم، ولئلا يظن ظان أن قرابتهم له ﷺ تخلصهم من عذاب الله تعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «**يا صباحاه!**» فاجتمع إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فإني نذير لكن بين يدي عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا، وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا، فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب، يا بني عبدالمطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: «**يا معشر قريش**»، أو كلمة نحوها، «**اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ، سليني من مالي ما شئت، لا**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٧٠، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، وأحمد ١/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٥، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٠، وأحمد ٦/ ١٨٧.

أغني عنك من الله شيئًا»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعمّ وخص، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها**[٢]»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبدالمطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله؛ لا أملك لكما من الله شيئًا، سلاني من مالي ما شئتما**»[٤].

وعن قبيصة بن مخارق، وزهير بن عمرو رضي الله عنهما، قالا: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل فعلا أعلاها حجرًا، ثم نادى: «**يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه!**»[٥].

وهذا لا ينافي دعوته وإنذاره لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، أي: ألن جانبك، وتواضع، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للذي اتبعك منهم.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٧١.

(٢) أي: سأصلها.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان٢٠٤ والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في تفسير سورة الشعراء ٣١٨٥، وأحمد ٢/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٢٧، وأحمد ٢/ ٤٤٨، ٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٧، وأحمد ٥/ ٦٠.

﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فإن عصاك عشيرتك وغيرهم ممن أنذرتهم ودعوتهم ولم يطيعوك.

﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: فقل لهم: إني بريء من عملكم، أو من الذي تعملونه من الشرك والمعاصي.

ولم يقل: فقل إني بريء منكم؛ لأن معصيتهم لا تمنع من الاستمرار على نصحهم ووعظهم، ومن صلتهم لأجل الرحم؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث السابق: «**وإن منكم رحمًا سأبلها ببلالها**»؛ كما لا تمنع من خفض الجناح لهم ولين الجانب إن كانوا مؤمنين.

قال السعدي[1]: «فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلًّا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؟

قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد، وتعطل من المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرًا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل يعد هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له؟».

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾.

أي: اعتمد وفوّض في جميع أمورك، ﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، أي: على ذي العزة التامة، وذي الرحمة الواسعة ربك عز وجل؛ فإنه ناصرك ومؤيدك، وحافظك وموفقك ومسددك.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾، أي: حين تقوم تصلي الليل وحدك.

﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾، أي: ويرى تقلبك، أي: انتقالك من حال إلى حال في الصلاة ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أي: في جمع المصلين، أي: يراك حين تقوم تصلي الليل وحدك، وحين تصلي في الجمع.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٥٥٢- ٥٥٣.

كما يراك في جميع مقاماتك وتقلباتك، وهو معتن بك وحافظك؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

وإنما خص مقام الصلاة لشرفها وفضلها، وحثًّا على الخضوع والخشوع فيها، واستحضار قربه عز وجل من العبد فيها.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾، تعليل لما قبله، والضمير المنفصل «هو» للتوكيد.

أي: السميع المجيب للدعاء ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [طه: ٩٨].

فهو عز وجل السميع لدعاء عباده، ولجميع الأقوال والأصوات، العليم بأحوال عباده، وجميع الحركات والسكنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ [يونس: ٦١].

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾:

مناسبة هذا- والله أعلم- أن المشركين اتهموا النبي ﷺ بأنه كاهن، أو شاعر، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: ٣٠]، وكما قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

قوله: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١﴾، الاستفهام للإخبار والتشويق، والخطاب لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ أتاه به رَئِيٌّ من الجن، أو أنه قول شاعر، أو كاهن، ونحو ذلك.

أي: هل أخبركم الخبر اليقين، على من تنزل الشيطان؟

﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾، أي: على كل كذاب كثير الإفك والكذب، وقول الزور والباطل، ﴿أَثِيمٍ﴾، كثير الإثم والفسوق والفجور؛ كالكهان والسحرة والمشعوذين ونحوهم، ممن هم إخوان الشياطين وأشباههم، والطيور على أشباهها تقع.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، أي: يلقي الشياطين ما يسترقونه من السمع من السماء من كلمة من علم الغيب بعد أن يزيدوا معها مئة كذبة إلى أوليائهم من الكهان من الإنس، فيحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدق تلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾، أي: أكثر ما يلقونه كذب، وإنما يُصدَّقون بسبب تلك الكلمة، فيختلط الحق بالباطل.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «**إنهم ليسوا بشيء**»، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: «**تلك من الحق يخطفها الجني، فيقرقرها في أذن وليه، كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مئة كذبة**»(١).

وفي لفظ عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**إن الملائكة تتحدث في العنان- والعنان الغمام- بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن؛ كما تقرّ القارورة، فيزيدون معها مئة كذبة**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا** ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ **قالوا للذي قال:** ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ **فيسمعها مسترق السمع- ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فَحَرَّفَها، وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها،**

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، قراءة الفاجر والمنافق ٧٥٦١، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، صفة إبليس وجنوده، باب ذكر الملائكة ٣٢٨٨.

وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء»(١).

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾، الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، أي: يتبعهم في شعرهم الضالون من الإنس والجن، فيقولون به ويروونه عنهم.

والغواية: الضلالة الشديدة عن طريق الهدى. ووصف الأتباع بالغواية يقتضي وصف المتبوعين بها من باب أولى. ففيه ذم لهم جميعاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد وتعلم وتسمع؛ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛لشدة ضلالهم وغوايتهم ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، أي: في كل واد من أودية الكلام وموضوعاته، وفي كل غرض من أغراض الشعر وفنونه الباطلة، من اللهو واللغو والسب والهجاء والمدح تزلفًا بالكذب، وغير ذلك.

﴿يَهِيمُونَ﴾، يمضون، ويخوضون بالباطل، ويجاوزون الحد مدحاً وقدحاً.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، «ما»: موصولة، أي: يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا يستطيعونها؛ كما يبالغون في المدح لأنفسهم، أو لغيرهم، بما يخالف الواقع، ويقذعون بالسب والهجاء للآخرين بما ليس فيهم، وربما ذموا من كانوا يمدحونه، ومدحوا من كانوا يذمونه تبعًا لأهوائهم ومصالحهم؛ ولهذا قيل: «أصدق الشعر أكذبه»، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف الرجل قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا**»(٢).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء من «الشعراء»، أي: إلا الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، في كلامهم وشعرهم، وكان شعرهم لهذا الغرض، أي:

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٨٠٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٥٥، ومسلم في الشعر ٢٢٥٧، وأبو داود في الأدب ٥٠٠٩، والترمذي في الأدب ٢٨٥١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لإقامة ذكر الله؛ في الدعوة إلى الله تعالى والثناء عليه، وتحبيب الناس في الخير ومحاسن الأخلاق والآداب ونحو ذلك، وتحذيرهم من ضد ذلك.

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾؛ الجملة معطوفة على «ذكروا»، و«ما»: مصدرية، أي: من بعد ظلمهم.

أي: وانتصروا في شعرهم لدين الله ولأنفسهم وللمؤمنين؛ بالرد على المشركين من بعد ما ظلموهم بالسب والشتم والهجاء والمحاربة لهم بالقول والفعل وأنواع الأذى.

كما قال ﷺ لحسان رضي الله عنه: «**اهجهم- أو هاجهم- وجبريل معك**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «**اهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رشق النبل**».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله**».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هجاهم حسان فشفى واشتفى**»(٢).

وعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه؛ أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل**»(٣).

فالشعراء المذمومون: ما كان شعرهم مذمومًا لأغراض سيئة تتنافى مع أحكام الشريعة وآداب الإسلام.

والشعراء المحمودون: ما كان شعرهم محمودًا لأغراض حميدة من الدعوة إلى الإسلام، والمنافحة عن الرسول ﷺ، وعن دين الله، والحث على مكارم الأخلاق والآداب.

وقد كان الشعر في عهد النبوة من أعظم وأهم وسائل الدعوة إلى الله والدفاع عن

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ذكر الملائكة ٣٢١٣، ومسلم في فضائل الصحابة وفضائل حسان بن ثابت ٢٤٨٦؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٩٠، والترمذي في الأدب ٢٨٤٦.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٨٧.

الإسلام، وكان شعر حسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم أشد على المشركين من وقع النبل.

وناهيك بقول حسان رضي الله عنه، ينافح عن الرسول ﷺ، ويرد على أبي سفيان في هجائه للنبي ﷺ[١]:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوَّف نخب هواء
وإن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء
كأن سبيئة من بيت رأس ... تعفيها الروامس والسماء
هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فخيركما لشركما الفداء
هجوت مباركًا برًّا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

وبقول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

يا هاشم الخير إن الله فضلكم ... على البرية فضلًا ما له غير
إني تفرست فيك الخير أعرفه ... فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم ... في حل أمرك ما ردوا ولا نصروا
أنت النبي ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أزرى به الكثر
فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذي نُصروا[٢]

---

(١) انظر: «ديوان حسان» (ص١)، «البداية والنهاية» (٤/ ٣١٠).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣٤)، «أحاديث الشعر» لعبد الغني المقدسي (ص١٠٨).

وبقول كعب بن مالك رضي الله عنه مناقضًا لقول ضرار بن الخطاب بن مرداس من بني محارب، ينافح عن قتلى بدر من المشركين:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر	عليهم غدًا والدهر فيه بصائر
وفخر بني النجار أن كان معشر	أصيبوا ببدر كلهم ثَم صابر[1]

قال كعب رضي الله عنه:

عجبت لأمر الله والله قادر	على ما أراد ليس لله قاهر
قضى الله بدرًا أن تلاقي معشرًا	بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم	من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا	بأجمعها كعب جميعًا وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله	له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه	يمسون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد	لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره	وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف كأنها	مقابس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا	وكان يلاقي الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعًا لوجهه	وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمي غادرن في الوغى	وما منهم إلا بذي العرش كافر
فأمسوا وقود النار في مستقرها	وكل كفور في جهنم صائر
تلظى عليهم وهْي قد شب حميها	بزبر الحديد والحجارة ساجر

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٣)، «البداية والنهاية» (٣/ ٣٤١).

وكان رسول الله قد قال: أقبلوا فولوا وقالوا: إنما أنت ساحر

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمَّه الله زاجر[(١)]

ولهذا لما قدم الأعشى ليعلن إسلامه قابله- فيما قيل- بعض المشركين أو اليهود والمنافقين، وعرضوا عليه مئة ناقة ليعود ليسلم بعد سنة- أي: مِن قابلٍ- فأخذها ورجع، وسقط من ناقته في رجوعه على رقبته فمات.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، تهديد شديد ووعيد أكيد للظالمين، والسين للاستقبال، ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، أي: أيّ مرجع يرجعون إليه بعد الموت، وأيَّ مصير يصيرون إليه، أي: أن مصيرهم بئس المصير، إلى النار وبئس القرار.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم: الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهو نوعان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالاعتداء عليهم بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وهو أيضًا ظلم للنفس.

وقد توافرت النصوص من الكتاب والسنة على الوعيد للظالمين، والتحذير من الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ [النساء: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

وقال ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[(٢)].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل؛ أنه قال: «**إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»[(٣)].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٤)، «البداية والنهاية» (٣/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٧، ومسلم في البر ٣٥٧٩، والترمذي في البر ٢٠٣٠، وأحمد ٢/ ٩٢، ١٠٥، ١٠٦، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم أيضًا ٣٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم ٣٥٧٧؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله له ﷺ عن دعوة غير الله، وتحذيره من العذاب، وفيه تأكيد لنهي أمته عن ذلك، وتحذيرهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾، وحاشاه ﷺ من ذلك؛ لأنه معصوم من الوقوع في الكبائر، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

٢- أمره بإنذار عشيرته الأقربين، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى؛ لعظم حقهم، وكونهم أولى من غيرهم، ولئلا يُظن أن قرابتهم منه ﷺ تغني عنهم من الله شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

٣- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾، وغيره من المواضع في الآيات.

٤- أن الأقربين أولى بالمعروف، وبالإنذار والدعوة وغير ذلك، الأقرب منهم فالأقرب.

٥- أمره عز وجل له ﷺ بخفض جناحه للمؤمنين، ولين جانبه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

وهكذا كان ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولنا فيه ﷺ أسوة وقدوة، توجب علينا خفض الجناح ولين الجانب فيما بيننا.

٦- أن الإيمان إنما يتحقق باتباعه ﷺ.

٧- البراءة من عمل من عصى وخالف أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

٨- أنه ﷺ لا يملك هداية أقاربه ولا غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٩- أن المعصية لا تمنع من الاستمرار على نصح العاصي ووعظه، ولا تمنع من

صلته لأجل الرحم، ولا من خفض الجناح له إذا كان مؤمنًا.

١٠- وجوب التوكل على الله عز وجل، وتفويض الأمور كلها إليه؛ مع تمام الثقة به في جلب النفع ودفع الضر؛ لقوله تعالى له ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، ولنا به أسوة وقدوة.

١١- إثبات اسمي الله تعالى: «العزيز» و«الرحيم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل.

١٢- إثبات رؤية الله عز وجل له ﷺ حين يقوم في صلاته، وفي تقلبه في الساجدين، وفي جميع أحواله؛ كما يرى سبحانه جميع الخلق، لا تخفى عليه منهم خافية.

١٣- تثبيت الله عز وجل للنبي ﷺ، وتقوية قلبه، وطمأنته وتسليته له، وإظهار عنايته به وحفظه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.

١٤- شرف الصلاة وفضلها، والترغيب في الخضوع والخشوع فيها؛ لأن الله خصها بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.

١٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي السمع والعلم الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

١٦- أن الشياطين إنما تنزل على كل أفاك أثيم؛ من الكهان والسحرة والمشعوذين، ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

١٧- كذب الكهان والسحرة ونحوهم في كل ما يدعونه من علم الغيب، وإنما تلقي إليهم الشياطين الكلمة يسترقونها من السماء، فيكذبون معها مئة كذبة؛ لقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

١٨- ذم الشعراء الذين هم أبواق بشعرهم للغواية والضلال والكفر والفسوق والفجور؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾، وإذا كان الأتباع غاوين، فالمتبوعون أشد غواية وأعظم.

١٩- تقرير شدة ضلالهم وغوايتهم بكونهم في كل وادٍ من أودية الشعر وفنونه الباطلة يخوضون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

٢٠- مخالفة أفعالهم لأقوالهم، وشدة كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

٢١- استثناء الشعراء المؤمنين الذاكرين الله كثيرًا، المنتصرين ممن ظلمهم، من الشعراء المذمومين، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

٢٢- الانتصار ممن ظلم المسلمين بهجائه وسبه لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة:١٩٤].

٢٣- لا بد من الجمع بين إيمان القلب واللسان، وعمل الأعمال الصالحات بالجوارح.

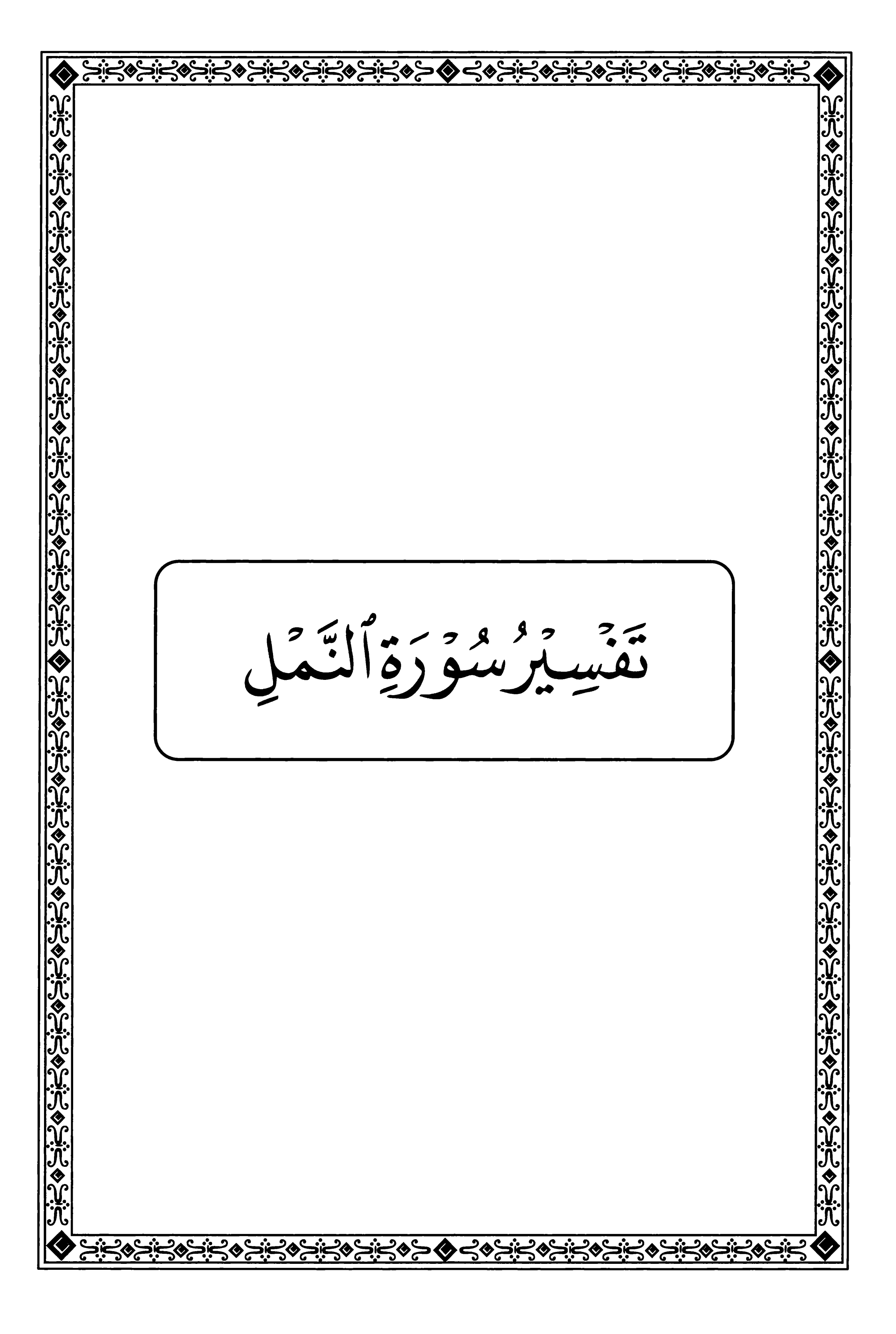
٢٤- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٥- الترغيب في الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله تعالى كثيرًا.

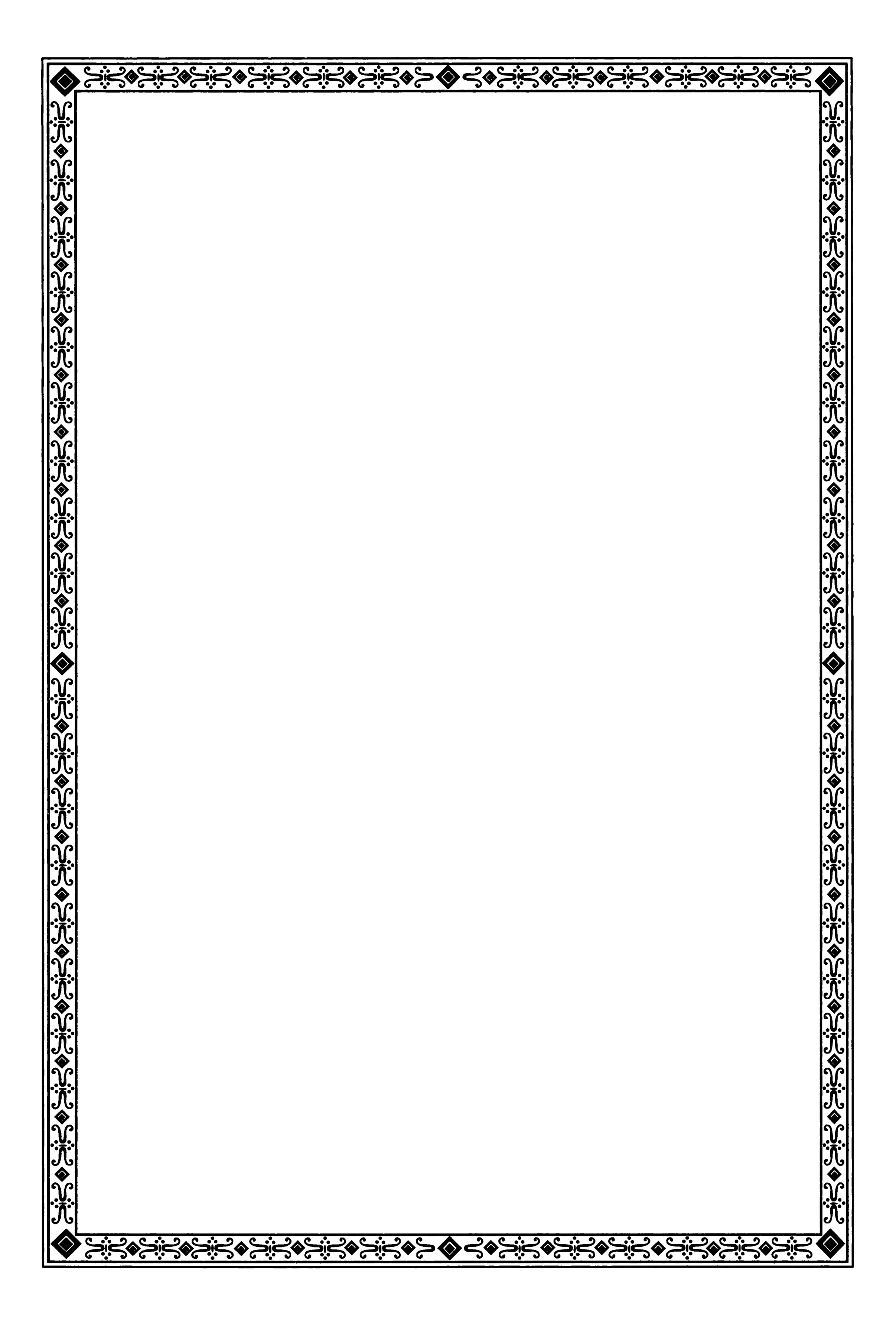
٢٦- جواز الانتصار من الظالم بالشعر والقول باللسان، أو بالسنان، وقد يندب ذلك أو يجب، إذا كان في سبيل الدفاع عن الحق، ونصرة الإسلام.

٢٧- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، للذين ظلموا بالشرك والكفر، والاعتداء على العباد، بسوء المنقلب والمصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلنَّمۡلِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة النمل» وهو أشهر أسمائها؛ لقوله تعالى فيها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الآية: ١٨].

وتسمى أيضًا «سورة الهدهد»، لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [الآية: ٢٠].

كما تسمى: «سورة سليمان»؛ لأن ما ذكر فيها مفصلاً من ملك سليمان لم يذكر مثله في غيرها.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢- ثم ثنّت بالثناء على المؤمنين بجمعهم بين الإيمان والعمل الصالح من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإيقانهم بالآخرة.

٣- ذم الذين لا يؤمنون بالآخرة وتهديدهم ووعيدهم بسوء العذاب والخسران في الآخرة.

٤- إثبات أنه ﷺ يُلَقَّى القرآن من عند الله تعالى حقًا: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

٥- ذكر قصة وحيه عز وجل لموسى عليه السلام وما أيده به من الآيات، وتكذيب فرعون وقومه لما جاءهم به من الآيات، وزعمهم أنها سحر مبين، وجحودهم لها مع استيقان أنفسهم لها ظلمًا منهم وعلوا، وذكر عاقبتهم السيئة بإهلاكهم بسبب فسادهم.

٦- ذكر ما أمتن الله به على داود وسليمان من العلم وحمدهما الله على ما فضلهما به

على كثير من عباده المؤمنين ووارثة سليمان لعلم داود، وتعليمه منطق الطير، وإيتائه من كل شيء، وحشر جنوده له من الجن والإنس والطير، وذكر ما كان بينه وبين النملة، وما كان بينه وبين الهدهد، وما كان بينه وبين ملكة سبأ، وعظم ما أعطاه الله من العلم والملك والخير والفضل.

٧- ذكر إرساله عز وجل إلى ثمود أخاهم صالحًا ودعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، وانقسامهم إلى فريقين فريق آمنوا به، وفريق كذبوه، وتطيروا به. وذكر ما جرى بينه وبينهم، ومحاولتهم المكر به وقتله، ومكر الله عز وجل بهم، وإهلاكهم، وإنجاؤه ومن معه من المؤمنين.

٨- ذكر تكذيب قوم لوط عليه السلام له وإنكاره عليهم فعل الفاحشة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، وجهلهم ومحاولتهم إخراجه وآله من قريتهم؛ لأنهم أناس يتطهرون، وإنجائه وأهله إلا امرأته وإهلاكها وقومه بمطر الحجارة.

٩- حمدا لله والسلام على عباده ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١٠- إثبات وتقرير ربوبية الله تعالى والاستدلال بذلك على وحدانيته في الألوهية، فلا رب غيره ولا إله سواه؛ خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأخرج به النبات والحدائق، وجعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسيًا، وجعل بين البحرين حاجزاً، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويستخلف عباده في الأرض، ويهديهم في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده، ويرزق عباده من الأرض والسماء، ويختص بعلم الغيب فلا يعلمه أحد سواه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

١١- إنكار المشركين للبعث بعد الموت، وأمرهم بالسير في الأرض والنظر والتأمل كيف كان عاقبة المجرمين، وتسليته ﷺ، فلا يكن في ضيق من مكرهم واستعجالهم العذاب؛ استبعاداً له وتكذيبًا به. وتهديدهم بقربه.

١٢- بيان عظيم فضله عز وجل على الناس، وعلمه بما تكن صدورهم وما

يعلنون، وإحصائه كل غائبة في السماء والأرض في كتاب مبين.

١٣- قصص القرآن الكريم على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون، وكونه هدى ورحمة للمؤمنين.

١٤- تسليته ﷺ وتقوية قلبه وطمأنته، بوعده عز وجل بالقضاء بين العباد بحكمه العدل ومحاسبتهم، وأمره بالتوكل عليه، وأنه على الحق المبين، وبيان أن الهداية ليست إليه، فلا يسمع الصم، ولا يهدي العمي، ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٥- إثبات خروج الدابة عند وقوع القول على المكذبين وغلق باب التوبة، تسم الناس وتكلمهم: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

١٦- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته بجعل الليل مظلمًا؛ ليسكنوا فيه والنهار مبصراً مضيئًا؛ ليعملوا فيه.

١٧- ذكر علامات الساعة وأهوال القيامة من النفخ في الصور، وفزع من في السموات والأرض، وتسيير الجبال ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

١٨- عظم فضل الله تعالى بمجازاة من جاء بالحسنة بخير منها، وتأمينهم من فزع يوم القيامة، وتمام عدله بمجازاة من جاء بالسيئة بما كانوا يعملون.

١٩- بيان مهمته ﷺ وما أمره الله تعالى به، وهو عبادة الله تعالى وحده الذي حرم مكة، وله كل شيء، وأن يكون من المسلمين، وأن يقرأ القرآن على الناس، ويتبعه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فما هو ﷺ إلا من المنذرين.

٢٠- ختم السورة بأمره ﷺ بحمد الله تعالى، والتهديد للمكذبين. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾.

قوله: ﴿طسٓۚ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور، في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾؛ كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: ١].

أي: هذه الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾؛ وأشار إليها بإشارة البعيد: «تلك» تعظيمًا لها؛ فهي أعظم ما أنزل الله تعالى من الآيات، وأعلاها قدرًا، وأفضلها وأرفعها شأنًا، وأوسعها دلالة على الخير، وتحذيرًا من الشر، وأعدلها أحكامًا، وأصحها أخبارًا.

﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾، أي: بين واضح لمن تدبره وتفكر فيه أنه من عند الله، ومبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والرشد من الغي؛ في العقائد والأعمال، والأخلاق والآداب، وغير ذلك.

﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾؛ حالان، ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، اللام: للتخصيص، أي: حال كونه هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به ويتبعونه، ويصدقون ما وعدوا به من الجزاء، فيهديهم إلى الصراط المستقيم، ويبشرهم بالسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بجنات النعيم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾؛ «الذين»: نعت للمؤمنين، أي: الذين من صفتهم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة.

أي: يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها وسننها، ويعطون الزكاة المفروضة لمستحقيها- وهم الأصناف الثمانية- من غير منٍّ ولا أذى.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، ﴿هُمۡ

يُوقِنُونَ﴾ ضمير الفصل: للتوكيد، أي: يصدقون تصديقًا جازمًا، يحملهم على العمل لتلك الدار.

وخص بالذكر هذه الصفات الثلاث: وهي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآخرة؛ لأن الصلاة والزكاة أعظم العبادات بعد الشهادتين، والإيمان بالآخرة من أعظم ما يحفز على العمل؛ ولهذا يُقرن كثيرًا في القرآن الكريم بين الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر.

ويؤخذ من الآية: أنه ليس بهدى للكافرين؛ لأنهم لم يتبعوه، وليس بشرى لهم، بل فيه نذارة وتحذير لهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة بقلوبهم، ولا يقرون بها بألسنتهم، ولا يعملون لها بجوارحهم، بل يكذبون بها، وبالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: حسَّنَّا لهم قدرًا وكونًا أعمالهم السيئة؛ من الشرك والكفر والمعاصي بسبب عدم إيمانهم، وهذه من أعظم المصائب: أن يزين للإنسان الباطل، فيرى أنه على حق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨].

وقد أحسن القائل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسَنًا ما ليس بالحسن(١)

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: فهم في ضلالهم وتيههم وعماهم عن طريق الحق يترددون متحيرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة، ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أسوأ العذاب وأشده وأعظمه في الدنيا والآخرة.

---

(١) البيت ينسب للأمير يحيى بن علي باشا الإحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦). وانظر: «أبيات سارت بها الركبان» ص٤.

﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾، أي: الذين لا نصيب لهم في الآخرة.

وأكد الخسران وحصرهم فيه بكون الجملة اسمية معرَّفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، وبصيغة التفضيل «الأخسرون»، أي: وهم في الآخرة هم الأخسرون خاصة، الذين خسروا أشد الخسران، وأعظمه وأبينه، فخسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ اللام للتوكيد، أي: وإنك يا محمد لتُلَقى القرآن، أي: تلقنه وينزل عليك، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أي: من عند ذي الحكم التام والحكمة البالغة، وذي العلم الواسع وهو الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

ولم يقل: من لدني، ولا من عندي، تعظيمًا لنفسه، وتنويهًا بتمام حكمه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وتشريفًا للقرآن الكريم؛ لما احتوى عليه من فنون الحكمة والعلم، ومراعاة مصالح العباد التي لا يعلمها إلا خالقهم، والصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طس﴾.

٢- تعظيم آيات القرآن العظيم، والتنويه به، وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

٣- امتداح الله عز وجل للقرآن وكتابه الكريم بكونه بيِّنًا بنفسه، ومبينًا الحق من الباطل، ومبينًا صِدْق مَن جاء به، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

٤- إثبات قيام الحجة بالقرآن الكريم على الخلق؛ لما فيه من بيان الحق أتم بيان، والدعوة إليه، بشتى الوسائل، والتحذير من الشر كله، والنهي عنه.

٥- أن القرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يأخذون به ويتبعونه، ويصدقون بموعوده؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، بخلاف

غير المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

٦- ثناء الله عز وجل على المؤمنين بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة، وأن هذه الصفات من أعظم وأخص صفاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

٧- عظم أمر الصلاة والزكاة، والإيمان بالدار الآخرة؛ لأن الله خصها بالذكر.

٨- أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وفي هذا رد على المرجئة الذين ينفون أن تكون الأعمال من الإيمان.

٩- عقوبة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويكذبون بالبعث والجزاء على الأعمال؛ باستحسانهم ما هم عليه من الضلال والعمى عن الحق، والتردد والحيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾، والجزاء من جنس العمل.

١٠- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ وذلك ركن من أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

١١- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء، وأن من كتب الله عليهم الضلال فلا سبيل لهم إلى السعادة؛ لقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله.

١٢- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبور على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فأضاف الأعمال إليهم.

١٣- الوعيد والتهديد للمكذبين بالآخرة بأسوأ العذاب وأشده، والخسران في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ

﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾.

١٤- تثبيت النبي ﷺ وتقوية قلبه وطمأنته، وتعظيم القرآن، ومن أنزله بحكمه وحكمته وعلمه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

١٥- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

١٦- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، تلقاه ﷺ من ربه الحكيم العليم.

١٧- إثبات كمال حكم الله عز وجل، وبالغ حكمته، وواسع علمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

امتدح عز وجل القرآن الكريم وكتابه المبين، وعظَّمه ببيان نزوله من لدن حكيم عليم، ثم دلل على ذلك بذكر ما اشتمل عليه من أخبار الأنبياء السابقين وأممهم، ومن دلائل عظمته في آياته في الكون، وبدء الخلق وإعادته، وما فيه من القصص والهداية، والأخبار اللاحقة من خروج الدابة، ووقوع العذاب، وعلامات الساعة والقيامة، وغير ذلك.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: اذكر حين قال موسى لأهله، أي: لزوجته، والزوجة تكنى بالأهل؛ كما قال ﷺ: «**وما علمت على أهلي إلا خيرًا**»[١].

قيل: كان معه زوجه وابنان صغيران.

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: أبصرت ورأيت نارًا من بعيد. وكان في طريق عودته من مدين- بعد مكثه فيها عدة سنين- إلى مصر، وقبيل اصطفائه بالرسالة، وتكليم الله تعالى ومناجاته له، وبعثه إلى فرعون وملئه بالآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ السين: للاستقبال، أي: سأذهب إليها وآتيكم منها، أي: من أهلها، ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق إلى مصر، وكان قد ضل الطريق.

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بالتنوين: ﴿بِشِهَابٍ﴾، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة: «بِشِهَابِ».

و«أو» عاطفة، بمعنى: الواو، أي: وآتيكم بشهاب قبس، أي: بشعلة نار في رأس

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٣٧، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

فتيلة أو عود، ونحو ذلك، تشعلون بها ناركم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: لأجل أن تصطلوا بها، أي: تستدفئوا بها من البرد.

قال ابن كثير[١]: «وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾».

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾، أي: فلما أتى موسى النار التي آنسها وأبصرها من بعد.

﴿نُودِيَ﴾، المنادي هو الله عز وجل؛ كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا (٥٢)﴾ [الآية:٥٢].

﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ «أن» تفسيرية، أي: أن الله عز وجل بارك من في النار ومن حولها، أي: جعل هذا المكان مباركًا مقدسًا طاهرًا، ومن بركته أن جعله الله محلًّا لتكليم موسى وإرساله.

قيل: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكة، وقيل: العكس، وقيل: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: البلاد التي حولها، لأن بلاد الشام مباركة، أو ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أهل موسى عليه السلام.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، وحجابه النور، أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٢]، وفي رواية: «فقرأ أبو عبيدة: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾»[٣].

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى رب العالمين عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وعن أن يظن به شيء من ذلك، وإثبات لكماله في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٩، وأحمد ٤/ ٤٠٥.

(٣) أخرجها أحمد ٤/ ٤٠١.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؛ الضمير في قوله: «إنه» ضمير الشأن، وهذا إعلام منه عز وجل لموسى وإخبار له أن الذي يناجيه ويخاطبه هو الله، المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤].

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ ذو العزة التامة، الذي قهر كل شيء، وأذعنت له جميع المخلوقات.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة، في خلقه وأمره وشرعه، في أقواله وأفعاله.

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: وألق عصاك من يدك، أي: ضعها على الأرض.

وذلك لِيُبين له عز وجل كمال عزته وقدرته، وتمام حكمه وحكمته؛ ولتكون آية ومعجزة يؤيده بها، تدل على صدقه. وجواب الأمر محذوف، أي: فألقاها.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فحين رآها وشاهدها.

﴿تَهۡتَزُّ﴾؛ تتحرك وتضطرب في خفة وسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾، أي: كأنها حية حقيقية؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

والجان: نوع من الحيات، أسرعها حركة، وأكثرها اضطرابًا.

ويقال: هو ذكَر الحيات، وفي الحديث أنه ﷺ: «**نهى عن قتل جِنَّانِ البيوت**»(١).

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾؛ ذعر وخاف وفر هاربًا لما رآها تهتز كأنها حية، على مقتضى الطبائع البشرية، ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾، أي: ولم يرجع، ولم يلتفت من شدة فرقه.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾، أي: قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ وفي هذا طمأنة له؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: إني لا يخاف عندي المرسلون، لحفظي لهم وعنايتي بهم، وعصمتي إياهم من كل سوء.

وفي هذا بشارة لموسى بأن الله سيصطفيه للرسالة والنبوة.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾؛ الاستثناء: منقطع، و«إلا» بمعنى:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٧، ومسلم في السلام ٢٢٣٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

«لكن»، أي: من ظلم بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، أي: ثم استبدل حسنًا بعد سوء، أي: فعل وأتى حسنا بعد سوء؛ بأن تاب من الشرك وآمن، واستقام على طاعة الله تعالى.

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة، أغفر ما وقع منه من الظلم، وأستر عليه وأتجاوز عن عقوبته، وذو رحمة واسعة، أشمله بواسع رحمتي التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وقيل: الاستثناء متصل، وفيه تعريض بقتله القبطي، وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؛ بأن تاب بعد قتله؛ كما قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

وفي هذا تذكير له بتوبة الله تعالى عليه، وأن ما وقع منه من هذا الظلم لا يمنع من أن يكون من المرسلين، لتوبته ومغفرة الله تعالى له وذلك لئلا يستبعد في نفسه أن يكون من المرسلين وقد وقع منه ذلك الظلم.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ هذه آية أخرى، ودليل باهر على تمام قدرة الله تعالى، ومعجزة أخرى دالة على صدق موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ٢٢-٢٣]، أي: وأدخل يدك في جيب درعك.

وهي: فتحة القميص وطوقه الذي يدخل منها الرأس.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ «تخرج» مجزوم، جواب الأمر: «أدخل»؛ ولم يقل: وأخرجها؛ لأنها لا يمكن إبقاؤها داخل الجيب وتعطيل الانتفاع بها، أي: تخرج يدك حال كونها بيضاء، مغايرة للون الجسم.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير برص، ولا عيب.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، أي: هاتان الآيتان: انقلاب عصاك حية، وإدخال يدك في

جيبك وخروجها بيضاء من غير سوء، في جملة تسع آيات أيدناك بها.

كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية: ١٠١]، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، وانفلاق البحر. وقيل غير ذلك.

وقد جمعها الفيروزبادي في بيت ذكره في مادة «تسع» في القاموس؛ وهو:

عصا، سَنَة، بحر، جراد، وقُمَّلٌ   يد، ودم، بعد الضفادع، طوفانُ

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، أي: أرسلناك بها، أو اذهب بها إلى فرعون وقومه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: خارجين عن طاعة الله، بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وإنكارهم ربوبية الله تعالى وإلهيته، واعتقادهم ربوبية فرعون وإلهيته.

فذهب موسى عليه السلام بهذه الآيات إلى فرعون وقومه، وأراهم إياها، ودعاهم إلى الله تعالى؛ ولهذا قال:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾، أي: ظاهرة بينة واضحة وضوح الشمس في وسط النهار، دالة على صدق موسى وصحة ما جاء به.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: قالوا مكابرة وعنادًا: هذا سحر بيِّن ظاهر.

كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

وكما قال غيرهم؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[الذاريات:٥٢].

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾، أي: وكفروا وكذبوا بها، وأنكروها ظاهرًا.

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، الجملة: حالية، أي: وقد استيقنتها أنفسهم، والسين والتاء للمبالغة، أي: أيقنت وصدقت بها أنفسهم باطنًا، تصديقًا جازمًا أنها حق من عند الله.

وأضاف الاستيقان إلى الأنفس؛ لأنه أبلغ من لو قيل: واستيقنوها.

﴿ظُلْمًا﴾؛ مصدر في موضع الحال، أي: ظالمين، أو مفعول لأجله، أي: لظلمهم والظلم: الاعتداء، أي: ظلمًا منهم؛ لجحودهم الآيات وردها، مكابرة وعنادًا؛ كما قال

تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

وأصل الظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، فظلموا أنفسهم وغيرهم برد الحق وتكذيبه وتكذيب من جاء به.

﴿وَعُلُوّٗا﴾؛ معطوف على ﴿ظُلۡمٗا﴾، والعلو: التكبر، أي: وتكبرًا عن الانقياد للحق، وعلى الخلق، والتقدير: وجحدوا بها ظلمًا وعلوًّا، وجملة «واستيقنتها أنفسهم» اعتراض؛ للتشنيع عليهم في جحدهم بها مع أن أنفسهم استيقنتها.

﴿فَٱنظُرۡ﴾، أي: فانظر يا محمد، ويا أيها الناظر، أي: انظر نظر أعتبار، وأبصر وتأمل ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أي: كيف كان سوء عاقبة المفسدين ونهايتهم؛ أن دمرهم الله وأهلكهم بالغرق، وأورث ديارهم المستضعفين من عباده.

وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين للنبي ﷺ، ولآيات القرآن والكتاب المبين.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته ببداية بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وما أعطاه الله تعالى من الآيات والمعجزات، وتكذيبهم له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾ الآيات.

٢- حسن خلق موسى عليه السلام في تعامله مع أهله ومراجعته إياهم فيما يهمهم جميعًا.

٣- أن زوجة الرجل من أهله، فعلى هذا يدخل في أهل بيته ﷺ أزواجه، وفي هذا رد على الرافضة- أخزاهم الله- الذين ينفون ذلك؛ ليقعوا في أزواجه ﷺ، ويتهموا عائشة رضي الله عنها.

٤- في قول موسى عليه السلام: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ دلالة على أنه عليه السلام قد ضل الطريق في مسيره؛ كما ذكر ذلك المفسرون؛ كما أن في قوله: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ ما يدل على أن ذلك كان في ليلة باردة.

٥- جواز اتخاذ الأسباب الواقية من البرد ونحوه.

٦- مناداة الله تعالى لما أتى موسى النار: أنه عز وجل بارك من في النار ومن حولها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

٧- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٩- مناداة الله تعالى لموسى عليه السلام، وبيانه له أن الذي يخاطبه هو الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٠- إثبات الكلام لله تعالى وتكليمه لموسى، وأنه عز وجل يتكلم بصوت يسمع، وليس كلامه معنى قائمًا بالنفس، كما يقول أهل البدع الذين ينفون عن الله صفة الكلام.

١١- إثبات ألوهيته عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٢- إثبات اسميه عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وصفة العزة والقوة، والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

١٣- أمره عز وجل لموسى بإلقاء عصاه، وانقلابها حية، آية من آيات الله تعالى الدالة على تمام قدرته، ومعجزة لموسى دالة على صدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ الآية.

١٤- خوف موسى عليه السلام وفراره هاربًا بلا رجعة لما رآها تهتز كأنها حية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾؛ وهذا من مقتضى طبائع البشر.

١٥- طمأنة الله عز وجل له وتأمينه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾.

١٦- أن المرسلين لا يخافون لديه عز وجل؛ لحفظه لهم، وعنايته بهم، وعصمته لهم من كل سوء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٧- في قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بشارة لموسى عليه السلام باصطفائه تعالى له للرسالة.

١٨- أن الحسنات يذهبن السيئات، فمن ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء- بأن تاب وأناب إلى الله تعالى- فإن الله يغفر له ويرحمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾، وفي هذا دلالة على عظيم فضله عز وجل، ومغفرته ورحمته، وبشارة للتائبين.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل.

٢٠- أمره عز وجل لموسى عليه السلام بإدخال يده في جيبه تخرج بيضاء من غير برص ولا عيب، آية أخرى من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته عز وجل، ومعجزة دالة على صدق موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٢١- الاحتراز في الكلام مما يوهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٢٢- إرساله عز وجل موسى بهاتين الآيتين وغيرهما من الآيات التسع إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وترك ما هم عليه من الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى، بالشرك والعتو والعلو على عباد الله، والاستكبار في الأرض بغير الحق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

٢٣- شدة عنادهم؛ لوصفهم ما جاءهم به موسى من الآيات البينات بالسحر المبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

٢٤- كفرهم بآيات الله ظاهرًا، مع استيقان صدقها وصحتها في أنفسهم باطنًا؛ ظلمًا منهم، وتكبرًا عن الحق، وعلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

٢٥- ذم الظلم والعلو، ووجوب الحذر منهما؛ لما فيهما من الاعتداء ورد الحق والتكبر على الخلق.

٢٦- الحث على النظر والتأمل في سوء عاقبة المفسدين بالشرك والظلم والعلو في الأرض، وغير ذلك كفرعون وقومه، وما حل بهم من الهلاك بالغرق وغيره؛ لأخذ العبرة والعظة، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾:

بعدما ذكر بعثة موسى عليه السلام، وإرساله إلى فرعون، وما أعطاه الله من الآيات والمعجزات، أتبع ذلك بذكر ما أعطاه لداود وسليمان من العلم والنبوة والملك.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾؛ نكّر «علمًا» للتعظيم، أي: والله لقد أعطينا داود وسليمان علمًا عظيمًا كثيرًا، وهو علم النبوة والرسالة والحكمة.

وفي هذا تنويه بمنته عز وجل على داود وسليمان بما آتاهما من العلم الواسع، والحكم والحكمة؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩].

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: وقالا اعترافًا بنعمة الله تعالى عليهما، وشكرًا له عليها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده، ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾؛ بالنبوة والعلم والحكمة.

﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بجعلنا من خواص المؤمنين وأفضلهم؛ وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ الآية: امتدح الله داود وسليمان مشتركين بذكر ما آتاهما من العلم، وبثنائهما على الله تعالى وشكرهما، ثم ذكر ما خص به سليمان من عظيم العلم والحكمة والملك والفضل.

أي: وخلف سليمان أباه داود في النبوة والعلم والملك، وليس في وراثة المال؛ لأن

داود له أولاد كثيرون، فلو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان وحده من دونهم.

وأيضًا: فإن الأنبياء لا تورث أموالهم؛ كما قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركنا صدقة**»[(١)].

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أي: وقال سليمان مخبرًا بما وهبه الله له، وما خصه به من الملك التام والتمكين العظيم على سبيل الشكر لله، وكمال الاعتراف بنعمه، والتحدث بها: ﴿عُلِّمۡنَا﴾، أي: علمنا الله عز وجل.

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾، أي: فهم كلامها وقولها، ومعرفة أصواتها ولغتها؛ ولهذا راجع عليه السلام الهدهد وراجعه، وفهم قول النملة للنمل، وهذا مما خصه الله به، ولم يكن لأحد غيره.

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾؛ من النعم، وأسباب الملك، ومن السلطة والقهر، وتسخير الإنس والجن والطير والريح، وغير ذلك، مما لم يؤت لغيره؛ كما قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩﴾[ص: ٣٥-٣٩].

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ الإشارة لما علمه الله إياه من منطق الطير، ولما آتاه من كل شيء.

﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«الفضل»: الزيادة من الخير والنعم.

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾؛ البين الواضح، الظاهر الجلي لله تعالى علينا.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾، أي: جُمعوا له، ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾.

قيل: وركب سليمان فيهم في أبهة وعظمة، يليه الإنس، ثم الجن بعدهم، والطير فوق رأسه تظله بأجنحتها.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، أي: يحبس ويرد أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا وينتظموا، ثم يساقون، ولا يتقدم أحد عن منزلته؛ لتظهر عظمة الجيش.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾، أي: حتى إذا أتى سليمان وجنوده، ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾؛ قد يراد به الجنس؛ لأن للنمل شقوقًا ومسالك هي بالنسبة لها كالأودية للسالكين من الناس.

ويجوز أن يكون المراد به مكاناً مشتهراً بهذا الاسم؛ كما يقال: وادي السباع، ونحو ذلك.

﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ جواب «إذا»، أي: قالت منبهة لرفقتها وبني جنسها بعد أن أدركت قرب وصول سليمان وجنوده إليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، أي: ادخلوا بيوتكم لا يُهلِكنَّكُم سليمان وجنوده.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون ولا يعلمون بذلك. وهذا اعتذار منها لسليمان وجنوده.

وفي هذا آية من آيات الله تعالى وبديع صنعه في النمل، التي عظم الله شأنها بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ الآية؛ فإن هذه النملة ألهمها الله استفتاح خطابها بالنداء الذي يسمعه ويفهمه من خاطبته، وأدركت خطورة مرور جيش سليمان وجنوده، فحذرت النمل أن تصيبهم معرة الجيش، وعرفت اختصاص كل طائفة منهن بمسكن، واعتذرت عن سليمان وجنوده بقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

وقد ضمنت كلامها هذا نداء وتنبيهًا؛ بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾، وأمرًا وإرشادًا بقولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، وتحذيرًا بقولها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، وتعذيرًا بقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فسبحان العليم الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

قال ابن القيم: «ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، واستدل بما روي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد أسقيتم بدعوة غيركم»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٥٨، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الباجي، وذكره ابن كثير ٦/ ١٥١٤، وانظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٥- ٣٣٦.

وقد صارت هذه المقالة: «سقيتم أو كفيتم بدعوة غيركم» مثلًا.

وقد ذكر من عجائب ما ألهمه الله تعالى هذه المخلوقات الصغيرة «النمل»: أنها تخزن في الصيف طعام الشتاء؛ لتعذر جمعه في الشتاء، وإذا أصابه بلل من مطر وغيره، أخرجته ونشرته على ظهر الأرض، فإذا يبس أدخلته؛ لئلا ينبت ويتلف.

وأنها تشم الطعام من مكان بعيد، وتدرك بالشم ما لا يدركه غيرها بالبصر والسمع، لو أخذت غصن كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبل النمل من مكان بعيد إليه فحملنه.

تأتي للسنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا تركتها.

إذا لم تستطع الواحدة منهن حمل ما وجدته من طعام استنجدت بأخواتها، فجئن سربًا كالخيط الأسود فحملنه جميعًا، تجتهد كل واحدة منهن في العمل للمصلحة العامة، غير مختلسة شيئًا لنفسها.

ليس لهن قيادة واحدة كالنحل، لكن لهن رائد لطلب الرزق، فإن وجده أخبرهن وتعاون على حمله، إلى غير ذلك مما قيل من عجائب النمل[1]؛ مما يدل على عظمة الخالق الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: سمع قولها وفهمه، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: ضحك مبتسمًا؛ إعجابًا منه بنصحها وتحذيرها لبني جنسها، وحسن تعبيرها، واعتذارها عنهم بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وهكذا كان ضحك الأنبياء عليهم السلام: التبسم. وفي الحديث: «ما ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسمًا»[2].

لأن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ«أوزعني»، أي: يا رب أوزعني، أي: وفقني وألهمني شكر

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٣ – ٣٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٢٦٤٢؛ من حديث عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ رضي الله عنه، وقال: «صحيح غريب».

نعمتك الدينية والدنيوية.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، أي: التي أنعمتها عليّ وعلى والديّ من الهداية للإسلام، والتوفيق للإيمان، وغير ذلك.

والنعمة على الوالدين نعمة على الولد.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، أي: وأوزعني ووفقني وألهمني أن ﴿أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، أي: أن أعمل عملًا صالحًا، خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك، ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ عني وتحبه، وتقبله مني.

﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: وأدخلني برحمتك- لا بعملي- الجنة في جملة عبادك الصالحين.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على داود وسليمان بما آتاهما من العلم والنبوة والرسالة، وبيان فضله تعالى عليهما في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

٢- فضيلة داود وسليمان عليهما السلام؛ لعظم ما آتاهما الله عز وجل من العلم، وثنائهما على الله عز وجل، وشكرهما على تفضيله إياهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- أن من توفيق الله تعالى العبد وعنوان سعادته: أن يكون شاكرًا لربه، معترفًا له بجميع نعمه الدينية والدنيوية؛ ولهذا قال بعض السلف: توفيق الله للحمد على النعمة أفضل من النعمة ذاتها.

٤- فضيلة العلم وأهله العاملين به الباذلين له.

٥- أن الحمد المطلق التام لله عز وجل وحده.

٦- أن الشكر يكون بالقول، كما يكون بالقلب والعمل.

٧- أن الفضل والنعم من الله يؤتي ذلك من يشاء؛ لقول داود وسليمان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

٨- يجب على العبد أن يحمد الله ويشكره على نعمه وفضله عليه.

٩- جواز أن يذكر الإنسان مرتبته في العلم، ويذكر نعمة الله عليه في ذلك وفي غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقول سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، إذا كان ذلك من باب الشكر لله تعالى، والتحدث بنعمته، أو تحذير الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية العلم، أو غير ذلك، وقد قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[(١)].

١٠- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١١- وراثة سليمان العلم والنبوة والملك عن داود عليهما السلام، وإضافة سليمان علم أبيه داود إلى علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾.

١٢- تنويه سليمان عليه السلام بتعليم الله إياه منطق الطير، وإيتائه من كل شيء، واعترافه بفضل الله تعالى البين الظاهر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٣- أن الطير تنطق، ونطقها مفهوم ومعلوم فيما بينها، ولمن علّمه الله إياه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٤- عظمة جيش سليمان عليه السلام، وقوته، وكثرة جنوده من الجن والإنس والطير، وجمعه لهم، ومسيره بهم في أبهة وعظمة، بانتظام وانضباط وائتمار بأمره، لا يتقدم أحد عن منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

١٥- نداء النملة وأمرها للنمل وإرشادها لهم عند إتيان سليمان وجنوده على

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣١٤٨؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واديهم بدخول مساكنهم حتى لا يحطمنهم الجيش، وهذا من عظيم قدرة الله تعالى، وتسخيره النمل لسليمان، إكرامًا له وكرامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

١٦- إضافة المكان إلى ساكنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾.

١٧- اعتذار النملة لسليمان وجنوده؛ لقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

١٨- تمام قدرة الله تعالى في جعل هذه النملة المخلوق الصغير تنطق بهذه الفصاحة والذكاء والنصح والتحذير والتعذير وغير ذلك.

١٩- عدم جواز قتل النمل؛ لقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: أنهم لو شعروا بها ما قتلوها، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**قرصت نبيًّا من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟**»(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد»(٢).

لكن ما كان منها مؤذيًا فإنه يقتل؛ كغيره من المؤذيات.

٢٠- سماع سليمان عليه السلام لقولها، وفهمه له، وتبسمه ضاحكًا إعجابًا بقولها ونصحها وتحذيرها واعتذارها وحسن تعبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾.

٢١- جواز التبسم والضحك عند وجود سببه.

٢٢- في مقالة النمل وسماع سليمان وفهمه لها آية من آيات الله تعالى، ودلالة على تمام قدرته وبديع صنعه في مخلوقاته، وعظيم إفضاله على سليمان عليه السلام.

٢٣- اعتراف سليمان عليه السلام بنعمة الله تعالى، وعدم اغتراره بذلك، ودعاؤه

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١٩، ومسلم في السلام، قتل الحيات وغيرها، النهي عن قتل النمل ٢٢٤١، وأبو داود في الأدب ٥٢٦٦، وابن ماجه في الصيد ٣٢٢٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب قتل الذر ٥٢٦٧، وابن ماجه في الصيد، ما ينهى عن قتله ٣٢٢٤.

ربه أن يلهمه شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضى به عز وجل ويحبه ويتقبله منه، وأن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٢٥- أن التوفيق بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾.

٢٦- حاجة الأنبياء كغيرهم الى توفيق الله، وسؤال الله تعالى ذلك، وفي هذا رد على القدرية الذين يرون استقلال الإنسان بعمله، وعدم حاجته إلى عون الله وتوفيقه.

٢٧- أن النعمة على الوالدين نعمة على الولد، وأن النعم كلها من الله عز وجل وحده.

٢٨- أن العمل إنما يقبل إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، مرضيًّا عنده عز وجل.

٢٩- الرد على الجبرية في زعمهم أن العبد مجبر على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، فأضاف العمل إلى نفسه واختياره.

٣٠- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل، وأن من أعظم رحمته الجنة؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي مخاطبًا لها: «**أنت الجنة، رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(١).

٣١- أنه لا أحد ينال مقصوده ويدخل الجنة، إلا برحمة الله تعالى، وفي الحديث: «**لا يُدخل أحداً منكم عملُهُ الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(٢).

٣٢- جواز التوسل بصفات الله تعالى؛ لقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾.

٣٣- أن العبودية الخاصة لله تعالى أشرف المقامات، وأن منزلة الصالحين من

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

أعظم المنازل عند الله تعالى في الدنيا والآخرة.

٣٤- ينبغي سؤال الله عز وجل التوفيق لشكر نعمة الله تعالى، والعمل الصالح الذي يرضي الله عز وجل، والدخول برحمته وجنته في عباده الصالحين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾:

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾، أي: أجال نظره وبصره فيها، أو مشى بينها؛ ليعلم الحاضر منها والغائب، ويُنَظِّمها.

وهذا يدل على حزمه وعزمه، وتوليه بنفسه تدبير مملكته، وإشرافه التام على جنوده، وهكذا يجب على كل من تولى أمرًا من أمور المسلمين، صغيرًا كان أو كبيرًا.

﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ الهدهد: نوع من الطير، فوق رأسه قزعة سوداء، أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود.

قال ابن القيم: «وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره»[1].

وقد روي عن عكرمة، قال: سئل ابن عباس: كيف تفقد سليمان الهدهد بين الطير؟ قال: «إن سليمان نزل منزلًا، فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد مهندسًا، فأراد أن يسأله عنه ففقده. قلت: وكيف يكون مهندسًا، والصبي يضع له الحبالة فيغيبها فيصيده؟ قال: إذا جاء القدر حال دون البصر»[2].

وصحيح والله: أنه إذا جاء القدر عمي البصر.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٥٩، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٥.

و«ما» في قوله: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾: اسم استفهام، أي: أين الهدهد؟ ولماذا لا أراه؟ هل هناك مانع منعني من رؤيته؟ وذكر هذا الاحتمال أولًا تقديمًا لحسن الظن، ثم قال:

﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أكان من الغائبين بدون إذني؟

وهذه معصية توجب عقابه، ولهذا توعده بقوله:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾؛ اللام: في المواضع الثلاثة: لام القسم لقسم مقدر، والنون في المواضع الثلاثة للتوكيد، أي: والله لأعذبنه تعذيبًا شديدًا؛ لتغيبه بدون علمي وإذني، ومعصيته لي.

﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾؛ «أو» في الموضعين عاطفة، وتفيد معنى التقسيم، والتنويع، أي: إما هذا، أو هذا، والمعنى: لأذبحنه بقطع الحلقوم والمريء من عند رقبته، وهذا يدل على شدة غضبه وتغيظه على الهدهد.

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي﴾؛ قرأ ابن كثير بنونين الأولى مفتوحة مشددة، والثانية مكسورة مخففة: «لَيَأۡتِيَنَّنِي»، وقرأ الباقون بنون واحدة مكسورة مشددة: ﴿لَيَأۡتِيَنِّي﴾.

أي: أو ليأتيني ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، أي: بحجة بيِّنة وبرهان واضح، وعذر بيِّن ظاهر، يُبرر سبب تغيبه، فينجو من العقاب.

وهذا يدل على ورع سليمان عليه السلام؛ إذ لم يقسم على مجرد عقوبته مطلقًا؛ لاحتمال كونه معذورًا؛ كما يدل على التزام جميع جنوده من الطير وغيرها بطاعته، وعدم الخروج عن أمره، وعدم تغيب أحد منها إلا بعلمه وإذنه، ووجوب طاعتها له طاعة خاصة؛ لتسخير الله إياها له.

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾:

قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾؛ قرأ عاصم وروح بفتح الكاف: ﴿فَمَكَثَ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «فَمَكُثَ».

أي: فمكث الهدهد بعد تفقد سليمان للطير وسؤاله عنه، أي: لبث زمنًا يسيرًا غير طويل، ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه، وشدة ائتمارهم بأمره، واهتمامهم بأعمالهم.

﴿فَقَالَ﴾ لسليمان مبادرًا ببيان سبب غيابه بخطابٍ مهيجٍ على الإصغاء إليه والقبول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، أي: اطلعت وأحطت علمًا وخبرًا بالذي لم تحط به، أو بشيء لم تحط به، ولم تطلع عليه؛ كقوله: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: ٦٨].

﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ قرأ أبو عمرو والبزي بفتح الهمزة من غير تنوين: «سَبَأَ»، وقرأ الباقون بالخفض والتنوين: ﴿سَبَإِۭ﴾.

أي: من قبيلة سبأ وحمير ملوك اليمن، ومن ديارهم «مأرب» على ثلاثة أميال من صنعاء.

﴿بِنَبَإٖ﴾؛ النبأ: الخبر الهام الخطير، أي: بخبر هام، له شأن عظيم، تتطلع النفوس إلى معرفته، ﴿يَقِينٍ﴾، أي: حق وصدق وجزم، لا شك فيه ولا ريب.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ تفسير للنبأ، ونكر «امرأة» ولم يقل: ملكة، للتعجب من كون ملكتهم امرأة، وهي: بلقيس بنت شراحيل.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: وأعطيت من كل شيء من المقومات، مما يحتاج إليه الملك المتمكن من الجنود والسلاح والعتاد والقلاع والحصون، ومن النعم والمتاع والخيرات؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ: ١٥].

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ﴾؛ وهو سرير ملكها وكرسيها الذي تجلس عليه.

﴿عَظِيمٞ﴾، أي: هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ؛ من الياقوت والزبرجد وغير ذلك.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ حذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها؛ إيذانًا بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة؛ لأن فيها الإخبار بما هم عليه من عبادة الشمس والشرك بالله؛ مما يوجب دعوتهم إلى الله، وقتالهم إن لم يؤمنوا[1]، أي: وجدتها وقومها مشركين بالله، يسجدون للشمس ويعبدونها من دون الله.

قيل: كان عرشها في قصر عظيم محكم رفيع البناء، وكان فيه ثلاثمئة وستون طاقة من شرقه، ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخله الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً[2].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي هم عليها؛ من عبادة الشمس والشرك بالله، وغير ذلك، فرأوا أنهم على الحق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن الطريق المستقيم.

﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ للسجود لله وسلوك طريق الحق؛ لأنهم يرون أن ما هم عليه من الضلال هو الهدى.

وهذه مصيبة أعظم من مصيبة ضلالهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر: ٨].

وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن[3]

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾؛ قرأ أبو جعفر والكسائي ورويس بتخفيف اللام: «أَلَا»، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿أَلَّا﴾، ومعناها: الحث والتحضيض، أي: هلا يسجدوا لله، أو التعليل، أي: زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله.

والمراد: إنكار سجودهم لغير الله، وأمرهم بالسجود لله وحده.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٧.
(٣) انظر: «روح المعاني» (١/ ١٥٦).

وهذه الآية من مواضع السجود في القرآن، فيها الأمر بالسجود، والذم لتاركه.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يخرج ويظهر المخبوء في السموات والأرض؛ مما ينزل من السماء من المطر والأرزاق والأقدار وغير ذلك.

وما يُخرج من الأرض من الماء والنباتات والمعادن، والأموات يوم المعاد، وغير ذلك، ويعلم سبحانه كل خبيئة في السماء والأرض.

قال ابن القيم: «وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه؛ إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض»(١).

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ قرأ الكسائي وحفص بالخطاب: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيب: «مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

أي: يعلم الذي تسرون وتضمرون، والذي تظهرون وتبدون من الأقوال والأفعال؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

بعدما بين تفرده عز وجل بالربوبية بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أتبع ذلك بذكر تفرده بالألوهية، فقال:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وسقفها وأعلاها وأجملها، و«ال» للعهد الذهني، أي: العرش المعهود في الأذهان؛ والخَلْق العظيم، بخلاف عرش بلقيس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالتنكير، وإذا كان عز وجل رب العرش الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها وأعلاها، فربوبيته لما دونه من باب أولى.

الفوائد والأحكام:

١- حزم سليمان عليه السلام في ملكه؛ لتفقده لجنوده بنفسه، وإشرافه على تدبير

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٨.

وتنظيم أمور رعيته وأحوال مملكته وتنظيمها، وهكذا يجب على كل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ الآية.

٢- تسخير الطير له عليه السلام، وتبوؤ الهدهد مكانة بينها، وفقدانه له لما تفقدها؛ لقوله: ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ الآية.

٣- تقديمه عليه السلام حسن الظن بالهدهد لمَّا فقده؛ لقوله: ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾، وذلك من وجهين؛ الأول: أنه قدم هذه الجملة على قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، الثاني: أن هذه المقالة فيها شيء من الاعتذار عن الهدهد؛ لاحتمال أنه لم يقع عليه بصره لمانع منعه من رؤيته، ونحو ذلك.

٤- توعده الهدهد وتهديده إياه بالعذاب الشديد أو القتل، ما لم يأت بعذر يبرر غيابه؛ لقوله عليه السلام: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾.

٥- ورعه عليه السلام؛ حيث لم يقسم على مجرد عقوبته مطلقًا؛ لاحتمال كونه معذورًا.

٦- التزام جميع جنوده من الطير وغيرها بطاعته، وعدم الخروج عن أمره، وعدم تغيب أحد منها إلا بعلمه وإذنه، ووجوب ذلك عليهم له عليه السلام، وإلا لما جاز معاقبة الهدهد على تغيبه.

٧- مجيء الهدهد بعد زمن يسير من توعد سليمان له، ومبادرته بذكر سبب تغيبه بخطاب مهيج على الإصغاء إليه والقبول منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الآية.

٨- شدة هيبة جنود سليمان له، وائتمارهم بأمره واهتمامهم بأعمالهم؛ لقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، فمع عذر الهدهد في غيابه لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا.

٩- أن سليمان عليه السلام وإن أعطي ملكًا عظيمًا لم يعطه أحد فهو لا يحيط بكل شيء ولا يخرج عن قوله عز وجل في وصف الإنسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء:٢٨]، وغيره من باب أولى.

ولهذا فهو عليه السلام لم يعلم بأخبار سبأ وملكتهم وملكها العظيم، وما هي عليه هي وقومها من عبادة الشمس والشرك بالله؛ لأنه لم يعترض على قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الآية.

١٠- قوة هذا الهدهد في مخاطبة سليمان ذي الملك العظيم بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ وذلك لأنه محق، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]، وقد تلطف كل منهما في مقالته فلم يقل الهدد لسليمان: إنك جاهل لا تدري، ولم يقل ذلك إبراهيم لأبيه.

١١- أن الأصل في مخاطبة المفرد أن تكون بضمير الإفراد، وحسب حاله، مهما علت مرتبته في المجتمع؛ ملكًا كان أو وزيرًا أو أميرًا أو عالمًا، ولا يلزم أن تكون بضمير التعظيم والجمع؛ نحو: جئتكم وأتيتكم، ونحو ذلك، ولم يكن هذا معهودًا في مخاطبة النبي ﷺ ولا في مخاطبة الصحابة له، ولا عند سلف الأمة.

١٢- إخبار الهدهد سليمان عن مجيئه من سبأ بنبأ يقين، فيه ما يثير العجب، وهو أن امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وفيه ما يجب إنكاره عليهم، وهو كونهم مشركين يعبدون الشمس من دون الله؛ مما يوجب دعوتهم إلى الله، وقتالهم إن لم يسلموا؛ لقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

١٣- تأكيد الهدهد صدق خبره وأهميته بقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، وقوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

١٤- أن ولاية الأمور الكبرى في المسلمين لا يجوز أن تكون في النساء؛ لهذا تعجب الهدهد من كون امرأة تملك سبأ؛ لقوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وقد قال نبينا ﷺ: «**لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»(١).

وهذا لا ينافي أن تتولى المرأة مناصب قيادية بين النساء في الأعمال التي لا يقوم بها

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٨)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

سواهن، كالتعليم، والتطبيب الخاص بالنساء، ونحو ذلك.

١٥- عظم ملك ملكة سبأ، وعظم عرشها؛ لقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

١٦- أن الهدف المقصود من كل ما ذكره الهدهد لسليمان: هو بيان ما كانت عليه ملكة سبأ وقومها من عبادة الشمس والشرك بالله؛ لقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، بحذف حرف العطف، فدل على أن كل ما قبل هذا توطئة له.

١٧- تحريم السجود للشمس وغيرها من المخلوقات من دون الله؛ لأن ذلك أعظم الشرك بالله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت: ٣٧].

١٨- أن الخلق كلهم مفطورون على التوحيد، وإنكار الشرك؛ لأن الهدهد أنكر عليهم شركهم، مع أنه ليس من العقلاء وصدق الله العظيم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء: ٤٤].

وبهذا صار المشركون بالله هم شر البرية وأضل من الأنعام كما ذكر الله عز وجل.

١٩- إثبات الاختيار للإنسان والرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وهذا بمحض اختيارهم.

٢٠- تحسين الشيطان لهؤلاء المشركين وأمثالهم أعمالهم، وصده لهم عن الصراط المستقيم؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٢١- أن سبيل الله وصراطه واحد؛ لقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٢٢- أن من زين له الشيطان عمله الباطل، وما هو عليه من الضلال، فرأى أنه على حق وهدى، فالغالب أنه لا يهتدي إلى الحق؛ لانطماس بصيرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٣- إنكار الهدهد عليهم عدم السجود لله تعالى؛ لقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الآية.

قال ابن كثير[(١)]: «ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له، نُهي عن قتله، وذكر الحديث: «**نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد**»[(٢)].

٢٤- وجوب عبادة الله تعالى والسجود له وحده، الذي يخرج كل مخبوء في السموات والأرض، ذي العلم الواسع، والذي لا معبود بحق سواه، رب العرش العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٥- سعة علم الله تعالى، وعلمه بالسر والعلانية، مما يوجب مراقبته عز وجل.

٢٦- أنه لا يجوز السجود والتعبد لغير الله؛ لأنه لا معبود بحق إلا الله، وهو رب العرش العظيم، ورب جميع المخلوقات.

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى للعرش العظيم، وربوبيته لما دونه من المخلوقات أولى؛ لقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٨- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فمن لازم إفراد الله عز وجل بالربوبية: إفراده بالألوهية وحده لا شريك له.

٢٩- إثبات العرش، وأنه أعظم المخلوقات.

* * *

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ١٩٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٢، ٣٤٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح.

وأخرجه أبو داود في الصيد، باب قتل الذر ٥٢٦٧، وابن ماجه في الصيد، ما ينهى عن قتله ٣٢٢٣، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٣٢٢٤.

قال الله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾:

قوله: ﴿۞ قَالَ﴾، أي: قال سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾؛ السين: حرف استقبال، وتفيد التحقيق، والهمزة للاستفهام، أي: سنتأمل أصدقت فيما أخبرت به عن سبأ ومملكتهم، وما هم عليه من السجود للشمس من دون الله.

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ «أم» هي المتصلة، معادلة لهمزة الاستفهام، أي: أم كنت من الكاذبين في مقالتك؛ لتتخلص من الوعيد والعقوبة؟

ولم يقل: أم كذبت تلطفًا معه، كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾[الذاريات:٢٥]، ولم يقل: أنكركم، وذلك من باب التلطف معهم.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾، أي: فكتب سليمان إلى بلقيس وقومها كتابًا، وأعطاه للهدهد وقال له: اذهب بكتابي هذا. وهذا يحتمل أنه من جملة اختباره له، ويحتمل أنه صدقه، وهو الأظهر.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: إلى بلقيس وقومها، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: تنحَّ عنهم قريبًا، واستأخر عنهم غير بعيد، وتابعهم.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول.

والمعنى: فانظر وتأمل واسمع ماذا يردون به من الجواب، من قبول أو رفض.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾، أي: فلما ذهب فألقاه إليهم، ﴿قَالَتۡ﴾ بلقيس مخاطبة كبراء مملكتها وأشرافها وأمراءها ووزراءها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾، أي: عظيم، جليل القدر، أخذت ذلك- والله أعلم- من ختم سليمان عليه، ومن كون الطائر أتى به وألقاه إليها، ومما تضمنه مما أفصحت عنه بقولها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾.

فقد افتتح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد قيل: إنه لم يكتب أحد: «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل سليمان، وأيضًا فقد كان غاية الإيجاز والبلاغة والفصاحة وقوة الأسلوب، وشدة التهديد والوعيد.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾؛ «أن» تفسيرية، و«لا» ناهية، أي: لا تتكبروا عليَّ ولا تتجبروا، ولا تمتنعوا من الانقياد لما دعوتكم إليه.

ويجوز كون «أن» مصدرية، و«لا» نافية، أي: أطلب ألا تعلوا علي، أو هو ألا تعلو علي، ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، أي: منقادين، مستسلمين لله تعالى بالتوحيد، متبرئين من الشرك.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ۝٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣٥﴾:

قوله: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾، أي: قالت لأشراف قومها بعد أن أخبرتهم بكتاب سليمان ومضمونه، وفهمت ما فيه من روح التحدي والتهديد، وأحست بخطورة الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾، أي: أشيروا علي في شأني ماذا أفعل؟ فإن الأمر خطير جد خطير.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، أي: ما كنت قاضية ومستبدة بأمر وفاصلة به، وعازمة عليه، ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، أي: حتى تحضرون وأستشيركم.

وهذا يدل على حزمها ورجحان عقلها وحكمتها؛ لأنه ما ندم من استشار،

والمستشير يجمع إلى رأيه خلاصة آراء الآخرين، فيصل إلى أفضل النتائج، أو يعذر على الأقل، وقد أحسن القائل:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يومًا وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآةِ[(١)]

وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن القوافي قوة للقوادم[(٢)]

وقال حافظ إبراهيم في القصيدة العمرية[(٣)]:

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيرًا عن محبيها

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: قالوا لها إجابة على قولها: ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾، أي: ذوو وأصحاب قوة وبأس شديد في الحرب، أي: بعددنا وعدتنا وشجاعتنا ومستعدون للقتال، ويلحظ من قولهم هذا اغترارهم بقوتهم وبأسهم، وتعريضهم للأخذ بأصعب الأمرين وهو المجابهة والقتال، والذي لو حصل كان فيه دمارهم.

قال المتنبي[(٤)]:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

وقال عمرو بن معديكرب أو امرؤ القيس[(٥)]:

---

(١) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٦).

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (٤/ ١٧٣).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٩١).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص١٣٩) بترقيم المكتبة الشاملة.

(٥) انظر: «ديوان عمرو بن معديكرب» (ص١٢)، «ديوان امرئ القيس» (ص١٤٩)، والأكثرون على أن البيتين لعمر وبن معديكرب. انظر: «العقد الفريد» (١/ ٨٦)، «الحماسه البصرية» (١/ ١٨)، «الذخائر

الحـــرب أول مـــا تكـــون فُتَيَّـــةً تبـــدو بزينتهـــا لكـــل جهـــول
حتـــى إذا حميـــت وشـــب ضرامهـــا عـــادت عجـــوزًا غـــير ذات خليـــل

ولكن من توفيق الله أنهم لم يستقروا على هذا الأمر؛ ولهذا قالوا لها:

﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾، أي: والأمر مفوض إليك، وهذا من أدبهم معها، ردوا الأمر إليها، وهي التي استشارتهم.

﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فتأملي وتدبري ماذا تأمرين به؟ أو ما الذي تأمرين به؟ فنحن ممتثلون لأمرك، جاهزون لتنفيذ ما ترينه. وذلك لثقتهم بحزمها وحكمتها ورجحان عقلها.

﴿قَالَتۡ﴾ لهم مبينة سوء مغبة القتال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً﴾، أي: إذا دخلوها عنوة وغلبة، ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ بالقتل والأسر، والنهب والسلب، وإهلاك الحرث والنسل، وتخريب البلاد، وإخافة العباد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ﴾، أي: وجعلوا أشراف أهلها وساداتهم ورؤساءهم ﴿أَذِلَّةٗ﴾، أي: ذليلين صاغرين بقهرهم لهم، واسترقاقهم وأسرهم، وغير ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾؛ تأكيد لما وصفت من حال الملوك إذا دخلوا القرى عنوة، وتقرير له، بأن ذلك عادتهم المستمرة.

وقيل: إن هذا استئناف من كلام الله تعالى تصديقًا لقولها، وتقريرًا له.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾؛ عظيمة، مصانعة واحتيالًا وخدعة لهم.

﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾، أي: فمتأملة ومتدبرة، أو فمنتظرة ومترقبة.

﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ «ما»: استفهامية، أي: بأي شيء يرجعون، أي: بم يعود المرسلون من عنده؟ وماذا يكون جوابه؟ وهل يقبل هذه الهدية، ويعدل إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة، أو يرد الهدية، ويستمر على رأيه، ويعزم على قتالنا؟ وهنا نرى رأينا. أي: أنه إن كان عنده طمع فإنه يقبل الهدية؛ لأنها غنيمة حاضرة باردة، وإن كان لا يريد

والعبقريات» (٢/ ٢٢٠).

دنيا وإنما يريد أمرًا آخر، وهو دعوتنا إلى دينه، فلن يقبل الهدية؛ وهذا ما أراده فعلًا بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

قال قتادة: «رحمها الله، إن كانت لَعاقلة في إسلامها وشركها، قد علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «قال ابن عباس وغير واحد: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه».

الفوائد والأحكام:

١- حكمة سليمان عليه السلام، وتأنيه، وتثبته في الأمور، والتزامه العدل، وتقديمه لحسن الظن؛ لقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢- وجوب التثبت في الأمور، وفي قبول الأخبار وتصديقها.

٣- إرساله الهدهد بكتاب منه إلى سبأ يدعوهم فيه إلى الانقياد له، والدخول في الإسلام، يلقيه إليهم، ثم يتنحى عنهم قليلًا ويتابعهم، فينظر بماذا يردون؛ لقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٤- تمام قدرة الله تعالى في جعله هذا الهدهد- وهو في الأصل حيوان لا يعقل- يفهم ما يوجه إليه من الأمر والنهي والاختبار والوعيد، وغير ذلك تسخيرًا لسليمان عليه السلام.

٥- إخبارها أشراف قومها ورجال دولتها، بأنه ألقي إليها كتاب كريم، أي: عظيم جليل القدر، وإفصاحها عن مرسله، وعن مضمون هذا الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

٦- استحباب بداءة الكتب والرسائل بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»؛ تبركًا باسم الله وتيمنًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٠٠.

٧- حسن الإيجاز، وأن خير الكلام ما قل ودل.

٨- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «الرحمن» و«الرحيم»، وصفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة.

٩- تحذير سليمان عليه السلام لهم من العلو والتكبر عليه، وعدم الانقياد لطاعته؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾.

١٠- أمره لهم بالدخول بالإسلام، والإتيان إليه مستسلمين منقادين؛ لقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وهذا مشعر بقوته في مملكته وصرامته بالحق.

١١- حكمة بلقيس ورجحان عقلها، وحزمها؛ لاستشارتها أشراف قومها ورجال دولتها: ماذا تفعل؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾.

١٢- أهمية الشورى في صلاح أحوال الأمم والدول والمجتمعات كبيرها وصغيرها؛ ولهذا أمر الله تعالى بها رسولنا ﷺ، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وامتدح بها المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال ﷺ في غزوة الحديبية: «**أشيروا علي أيها الناس**»[(١)].

١٣- نفيها أن تكون مستبدة وفاصلة بأمر حتى يحضر الملأ من رجال دولتها، وتستشيرهم؛ لمعرفتها أن الاستبداد في الأمور وتحكيم رأي الفرد فيها سبب للفشل؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

١٤- اغترار ملئها ورجال دولتها بقوتهم وبأسهم الشديد، وميلهم إلى المجابهة والقتال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

١٥- قناعتهم بقوة رأيها وتفويضهم الأمر أخيرًا إليها لتنظر ماذا تفعل، وإعلانهم جاهزيتهم لامتثال أمرها وتنفيذه؛ لقولهم: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، وهذا من توفيق الله لهم.

١٦- بيانها لهم- بعقلها الراجح ودهائها وحكمتها، ونظرها في العواقب- سوء مغبة القتال، وما يحصل عند دخول الملوك وجيوشهم القرى عنوة من الفساد والخراب

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٦٧٩؛ من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم.

وإذلال أعزة أهلها.

ومفهوم هذا: أنها لا ترى رأيهم؛ لأنه غير سديد وهو كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

وفي هذا دلالة على أنه لا يلزم المستشير أن يأخذ بقول المستشار إذا لم يره صوابًا.

١٧- تأكيد مقالها بقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي: أن هذا فعل الملوك وسيرتهم إذا دخلوا القرى، ويجوز كون هذا استئنافًا من كلام الله تعالى تصديقًا لقولها.

١٨- اختيارها طريق التأني والاختبار والمصانعة والمهادنة والمصالحة؛ بإرسالها هدية عظيمة لسليمان، لعل وعسى أن يقبلها ويسالم، وانتظارها وترقبها بم يرجع المرسلون من عنده، لترى رأيها بعد ذلك؛ لقولها: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا يدل على جواز الاختبار لاستظهار الحق بالقرائن.

١٩- معرفتها بثاقب عقلها أن للهدية أثرها على القلوب، وأنها تسل السخيمة؛ كما قال ﷺ: «**تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وحر الصدر**»[1].

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فلما جاء رسولها بالهدية سليمان، أي: أتى بها سليمانَ.

﴿قَالَ﴾، أي: قال سليمان منكرًا عليهم، ومتغيظًا لعدم إجابتهم لقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي: كيف تزودونني بمال، تصانعونني به؛ لأتركَكم على شرككم وملككم؟

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾؛ الفاء: تعليلية، و«ما»: موصولة، أي: فالذي أعطاني الله من النبوة والحكمة، والملك والمال وغير ذلك خير من الذي أعطاكم من الدنيا والمال، فليس لهديتكم عندي أي موقع ولا وزن ولا قيمة، ولهذا قال:

﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم بهديتكم

تسرون وتفخرون وتعظم عندكم؛ لحاجتكم إلى المال، وولعكم به، ونظرتكم الدنيوية المادية القاصرة، أي: تفرحون إذا أُهدي إليكم.

ويحتمل أن المعنى: تفرحون إذا أهديتم، وترون أن لكم فضلًا على المهدى إليه.

والأول أظهر، ولا مانع من حملها على المعنيين. ومفاد هذا: أنني لا أفرح بالهدية، ولا تهمني، ولكنكم أنتم الذين تفرحون بها. وقدم المسند «أنتم» على الخبر «تفرحون»؛ لإفادة القصر.

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: قال سليمان لرسول بلقيس: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾، أي: ارجع إلى الذين أرسلوك بهديتهم، وبهذا الخبر العظيم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون فيهما للتوكيد، أي: فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها وقتالها.

﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ووالله لنخرجنهم ﴿مِّنۡهَآ﴾، أي: من بلدتهم ومدينتهم «مأرب»، ﴿أَذِلَّةً﴾؛ حال، أي: ذليلين، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم مهانون مدحورون.

وفي هذا استصغار لهم من الناحية العسكرية، بعد استصغاره لهم من الناحية المالية بقوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾:

قوله: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾، أي: قال سليمان للملأ الذين سخرهم الله له من الإنس والجن.

﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، أي: بسرير ملكها الذي تجلس عليه.

﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف

إلى «قبل»، و«مسلمين»: حال، أي: قبل إتيانهم مستسلمين لله بالتوحيد، منقادين له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وعرف أنهم سيأتوه مسلمين- والله أعلم- إما أن الله تعالى أوحى إليه بذلك، أو أنه عرف ذلك بالقرائن؛ لأنه توعدهم وهددهم بقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ الآية، فعرف أنهم إذا سمعوا ذلك لا بد أن ينقادوا ويستسلموا.

قال ابن كثير[1]: «فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان، ناوية متابعته على الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره».

قال بعضهم: إنما طلب الإتيان بعرشها قبل إتيانهم مسلمين؛ ليجعل ذلك حجة له عليها في نبوته، وليريها بذلك قدرة الله تعالى وعظيم شأنه.

وقال بعضهم: إنما طلبه؛ ليختبر عقلها إذا رأته، وهل تثبته أم تنكره؟

وقيل: لأجل أن يتصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترمة. وفي هذا نظرمن وجهين:

الأول: أنها بمجرد مغادرتها إياه مسلمة قد أحرزت مالها قبل أن تصل إلى سليمان.

والثاني: أن سليمان في غنى عن عرشها بما آتاه الله مما لم يعط لأحد سواه، ولا يحسن أن يظن به هذه الظن.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، أي: مارد قوي شديد من الجن:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾؛ «أن» والفعل «تقوم» في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى «قبل»، أي: أنا آتيك بعرشها قبل قيامك من مقامك، أي: من مجلسك، والمراد: أنا آتيك به بسرعة.

قيل: وكان يجلس للحكومات والقضاء بين الناس من أول النهار إلى زوال الشمس، بما يتراوح بين ثلث النهار إلى أقل من نصفه عادة.

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإني على هذا العرش لقوي على حمله،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٠١.

﴿أَمِينٌ﴾؛ على ما فيه من الجواهر، وغير ذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهو رجل أعطاه الله علمًا من الكتاب المنزل، ويعرف بها أعطاه من الإيمان والعلم ما يكون أقرب إلى الإجابة، وليس المراد بالكتاب: «التوراة».

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، أي: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى شيء، أي: بأسرع من طرفة العين، وطرفة العين أقل شيء، وفي الحديث: «**فلا تكلني إلى نفسي، طرفة عين**»(١).

قال الشاعر:

مـا بـين طرفـة عـين وانتباهتهـا ... يبـدل الله مـن حـال إلى حـال(٢)

قال ابن زيد: «فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه»(٣).

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، أي: فلما رأى سليمان عرشها حاضرًا لديه، مستقرًّا عنده ﴿قَالَ﴾؛ شكرًا لله تعالى واعترافًا بعظيم نعمه عليه:

﴿هَٰذَا﴾، أي: هذا التسخير والتيسير لي، وتهيئة أسباب الإتيان بعرشها، واستقراره بين يدي بهذه السرعة، وغير ذلك.

﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، أي: من نعم الله تعالى عليَّ، وزيادته لي، وتفضله عليَّ، لا لأني مستحق لذلك، وإنما ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾؛ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يختبرني ويمتحنني.

﴿ءَأَشْكُرُ﴾؛ الهمزة للاستفهام، أي: أأشكر نعمته وفضله وإفضاله عليَّ، فأعترف له بذلك، وأستعين به على عبادته وطاعته وذكره والثناء عليه؟ والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ «أم»: عاطفة، أي: أم أكفر نعمته وفضله، وأغتر بملكي وسلطاني

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٠؛ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» (٢/ ٢٠٤).

والشطر الثاني فيه: «يقلب الأمر من حال إلى حال».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٠٣.

وقدرتي؛ كما هو حال كثير من الملوك الجاهلين؟

فشكر عليه السلام ربه على نعمته، واعترف بفضله وإفضاله عليه، وعلم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف ألا يقوم بشكر هذه النعمة.

﴿وَمَن شَكَرَ﴾، أي: ومن شكر، فاعترف بنعمة الله تعالى عليه، واستعملها في طاعته، واستعان بها على ذلك.

﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن ثمرة شكره وجزاءه وثوابه يعود إلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: ٤٤].

ومفهوم هذا: أن من لم يشكر وأساء فعلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: ومن كفر ولم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾،أي: غني عنه وعن شكره، وعن العباد كلهم وشكرهم وعبادتهم.

﴿كَرِيمٌ﴾ في نفسه، ليس مفتقرًا إلى أحد، فلا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١).

وهو عز وجل كريم، كثير الخير، عظيم الكرم في غناه؛ لأن الغِنى لا يحمد إلا إذا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

صاحبه الكرم؛ ولهذا يقرن عز وجل كثيرًا في القرآن بين اسميه «الغني والحميد»، وبين اتصافه بالغنى والحمد.

وهو عز وجل كريم، يعم بخيره الشاكر والكافر؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال سليمان لحاشيته: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾، أي: غيروه إلى حال تنكره إذا رأته، بزيادة أو نقص، أو تغيير بعض أجزائه، أو لونه أو فرشه، أو غير ذلك.

﴿نَنظُرۡ﴾ جواب الأمر: ﴿نَكِّرُواْ﴾، أي: ننظر ونتأمل مختبرين لها، ﴿أَتَهۡتَدِيٓ﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به: الاستخبار، أي: أتهتدي فتعرف أنه عرشها، فيدل ذلك على ذكائها وفطنتها، وقوة معرفتها، ورجحان عقلها.

﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾؛ فلا تعرفه، فيدل ذلك على خلاف ما ذكر؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾، أي: قدمت على سليمان عليه السلام، ونظرت إلى العرش.

﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾، أي: قيل لها: أهكذا عرشك؟ أي: أيشبه هذا عرشك؟

﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾؛ أجابت بمثل ما سئلت عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، و«كأن» للتشبيه، فلم تقل: إنه هو، ولم تقل: ليس هو، أو: لا يشبهه؛ لأنه مشابه لعرشها من حيث الأصل، ومخالف له من حيث الصفة؛ لأنه غُيّر، فأجابت إجابة موفقة مسددة فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، أي: يشبهه ويقاربه.

وهذا دليل على غاية ذكائها، ورجحان عقلها؛ فلم تنف كونه عرشها أو يشبهه لقرب شبهه به، ولم تثبت أنه عرشها لكون عرشها محوطًا محروسًا، ولبعد المسافة بين اليمن والشام، فكيف يؤتى به في هذه السرعة الخاطفة؟! فدل جوابها على ذكائها من وجهين:

الأول: أنه مطابق للسؤال.

والثاني: أنه موافق لمقتضى الحال.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، أي: فقال سليمان لما رأى فطنتها وذكاءها واهتداءها للإجابة السديدة، شاكرًا الله تعالى على إيتائه العلم والإسلام قبلها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾، أي: وأعطينا العلم أكثر منها، ومن قبلها.

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، أي: وكنا مسلمين من قبلها، وهذه هي النعمة الكبرى، والمفخرة العظمى، والعزة والسؤدد.

وكأنه عليه السلام لما ظهر من ذكائها وفطنتها أراد أن يذَكِّر قومه- حتى لا يغتروا بها- بما هو أعظم من ذلك، وهو ما آتاهم الله من العلم قبلها والإسلام.

قيل: ويحتمل أن هذه المقالة: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من قول ملكة سبأ، أي: وأعطينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة، التي رأينا فيها قدرته على الإتيان بالعرش من المسافة البعيدة، وكنا مسلمين لله تعالى، متابعين لسليمان قبل ذلك. والمعنى الأول أظهر وأقرب.

﴿وَصَدَّهَا﴾، أي: وصرفها عن الإسلام ومنعها من الدخول فيه، ومن عبادة الله تعالى وحده، ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي كانت تعبده غير الله، وهو الشمس.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ الآية، أي: وصدها عن الإسلام وعن عبادة الله؛ لأنها كانت من قوم كافرين غير مؤمنين لأنها نشأت في بيئة كافرة، فاشتغلت بعبادة غير الله عن عبادة الله -ولم تنتفع بذكائها وفطنتها وعلمها والنفس إن لم تنشغل بالحق انشغلت بالباطل.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾، «الصرح»: القصر والبناء المرتفع؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

والمراد بالصرح هنا: القصر الذي بناه سليمان لها، وهو صرح من زجاج أبيض

شفاف، قيل تحته ماء جار.

وإنما قيل لها: ادخلي الصرح؛ ليريها عليه السلام عظم ما أعطاه الله تعالى من الملك والعز والسلطان، مما يفوق ملكها ومما لم يعط لغيره عليه السلام؛ ليختبر ذكائها وفطنتها وشجاعتها، فهو اختبار ثان لها.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾، أي: فلما رأت الصرح، ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، أي: ظنته ماءً كثيرًا؛ لأن الزجاج شفاف يُرى الماء تحته؛ كأنه ليس دونه شيء.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾؛ روي عن قنبل أنه قرأ بهمز الألف: «سَأْقَيْهَا»، وقرأ الباقون بغير همز: ﴿سَاقَيْهَا﴾، أي: شمرت ثيابها عن ساقيها؛ لتخوضه.

وهذا يدل على حزمها وقوتها وشجاعتها، فلم تحجم عن دخول الصرح، بل أقدمت عليه، وعلمت أنه إنما قيل لها: ادخلي الصرح؛ لإكرامها، لا لإغراقها، لكنها احترزت عن الأذى، فكشفت عن ساقيها، ولو كانت جبانة لما دخلت أصلًا، ولو كانت غير حازمة لما رفعت ثيابها عن ساقيها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾، أي: مملس.

﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾، أي: من زجاج، بحيث يرى الماء من تحته، ويظن الماشي عليه كأنه يمشي على الماء.

والمراد بهذا: أنه لا حاجة لك لكشف الساقين.

فتبين بهذا أمران: عظم ملك سليمان عليه السلام، وضعف هذه المرأة، وأنها مع ذكائها وفطنتها وحزمها وشجاعتها -خفي عليها الأمر فحسبت هذا الصرح لجة من الماء، وهو ليس كذلك، وحينئذ عرفت مكانتها، وعرفت مكانة سليمان.

ولهذا قالت لما تبين لها ما أعطي سليمان من النبوة والحكمة والملك والاقتدار العظيم: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: يا رب، إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك وذلك لأن عبادة غير الله أظلم الظلم؛ لأن حق الله تعالى أعظم الحقوق وأبينها. خلق ورزق، وأنعم على العباد بسائر النعم والتي أعظمها بيان طريق الحق والأمر باتباعه، وبيان طريق الباطل والأمر باجتنابه، ولهذا قال لقمان عليه السلام في وصيته لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا

تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وقدمت الاعتراف بظلمها لنفسها، وإعلان التوبة والإنابة إلى ربها؛ لأن التخلية قبل التحلية، ثم انتقلت إلى التحلية، فقالت:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: واستسلمت وانقدت مع سليمان لله رب العالمين، أي: آمنت بالله وحده إلهاً ومعبودًا وربًّا، ودخلت في الإسلام.

الفوائد والأحكام:

١- تغيظ سليمان عليه السلام وغضبه الشديد على ملكة سبأ وقومها؛ لعدم إجابتهم لدعوته، واحتيالهم لمصانعته بالهدية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ الآية.

٢- رفضه عليه السلام لهديتهم، التي أرادوا مصانعته فيها، وبيانه أن ما آتاه الله من النبوة والحكمة والخير خير مما آتاهم؛ اعترافًا بعظيم نعمة الله عليه، وبيانًا لعدم حاجته إلى هديتهم؛ لقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

٣- ذمه لهم بفرحهم بالهدية؛ لنظرتهم الدنيوية المادية القاصرة، وحاجتهم إلى المال وولعهم به؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ومفهوم هذا أنه لم يفرح بهديتهم له، ولم تسره؛ لأنها من باب المصانعة؛ لرد دعوته إياهم إلى الإسلام.

٤- أمره رسولها بالهدية بالرجوع إليهم، وتهديده إياهم بغزوهم بجيش لا طاقة لهم به، وإخراجهم من بلدهم أذلة صاغرين؛ لقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾.

٥- كثرة جنود سليمان عليه السلام لقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾.

٦- ينبغي إظهار القوة للأعداء، وتخويفهم وإرعابهم وإرهابهم.

٧- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، لا حق لكافر فيها.

٨- علمه عليه السلام أنهم سيأتون إليه مسلمين، إما بوحي من الله أو بفراسته ونظره في القرائن؛ ولهذا طلب من ملئه أيهم يأتيه بعرشها قبل ذلك؛ إظهارًا لما أعطاه

الله من العلم والنبوة والملك والقدرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

٩- تسخير الجن لسليمان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

١٠- عظم ما أعطاه إليه الجن من القوة والقدرة والسرعة وغير ذلك لقوله تعالى: : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾[النمل: ٣٩].

١١- تنظيم سليمان عليه السلام وقت عمله وشؤون حياته، وأن له مقاماً ومجلساً مقدراً بمدة، يجلس فيه للقضاء والحكومات بين الناس؛ لقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. وهكذا ينبغي لذوي المسؤوليات في الأمة تنظيم أوقات جلوسهم للناس.

١٢- أن هذا العرش عظيم يحتاج إلى قوة من يحمله لثقله، وإلى أمانته لما احتوى عليه من الجواهر؛ لقوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

١٣- لا بد من اجتماع القوة والأمانة فيمن يتولى أيَّ عمل؛ لأن الضعيف لا يستطيع أن يعمل شيئاً؛ لعجزه، وغير الأمين لا يقوم بالعمل كما ينبغي، لخيانته؛ لقول العفريت: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، وكما قالت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

١٤- تنافس العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب في الإتيان به، وغلبة الذي عنده علم من الكتاب، وإتيانه به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾.

١٥- أنه يتأتى بالعلم والحكمة ما لم يتأت بالقوة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

١٦- كمال وتمام قدرة الله تعالى مما لا يستطيع الإنسان تصوره وإدراكه إذا كيف يأت العرش من اليمن إلى الشام بهذه السرعة مع ما بينهما من المسافة الطويلة، وصدق

الله العظيم: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾[القمر: ٥٠].

١٧- فضل سليمان عليه السلام، وعظم ما سخر له من هذه القوى، وكرامته.

١٨- شكر سليمان واعترافه وتحدثه بعظيم فضل الله تعالى ونعمته عليه؛ بما سخر له من هذه القوى، والإتيان بالعرش بهذه السرعة واستقراره بين يديه؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

٢٠- عدم اغتراره عليه السلام بذلك، مع ما له من عظيم المنزلة عند الله، وعلمه أن ذلك من باب الابتلاء من ربه له أيشكر أم يكفر؟ وليس لكونه مستحقًّا لذلك؛ لقوله: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾.

٢١- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى وفي هذا رد على الجهمية الذين ينفقون الحكمة في أحكام الله وأفعاله، ويقولون أنه يفعل؛ لمجرد المشيئة تعالى الله عن قولهم.

٢٢- أن من شكر فإنما شكره لنفسه؛ لأن ثواب شكره وجزاءه يعود إليه في الدنيا والآخرة، ومن كفر فإنما كفره على نفسه؛ لأن عقاب كفره على نفسه؛ لقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، ومفهوم هذا: أن من كفر فإنما كفره على نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾[فصلت:٤٦].

٢٣- أن الله عز وجل غني كريم لا يضره كفر من كفر، كما لا ينفعه شكر من شكر؛ لتمام غناه وكرمه في نفسه؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾.

٢٤- الترغيب في شكر النعم، والتحذير من كفرها؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ لأن الشكر سبب لاستقرار النعم، والكفر سبب لزوالها؛ لأنها إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت فرّت، وكما قيل:

إذا كنــت في نعمــة فارعهـــا ... فـــإن المعـــاصي تزيـــل الـــنعم

وحـــافظ عليهـــا بشـــكر الإلـــه فـــإن الإلـــه سريـــع الـــنقم

٢٥- أنه إنما يُمدح بالغنى إذا صاحبه الكرم؛ لقوله: ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

٢٦- سعة عطاء الله وفضله وكرمه، وعمومه بخيره الشاكر والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

٢٧- إثبات الاختيار للإنسان لقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

٢٨- أمر سليمان بتنكير عرشها بتغيير بعض أوصافه؛ اختبارًا لفطنتها وذكائها أتهتدي إلى أنه عرشها أم لا تهتدي لذلك؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٢٩- سؤالها اختباراً لها لَمَّا جاءت: أهكذا عرشك؟ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾.

٣٠- جواز امتحان الشخص لمعرفة ذكائه وفطنته إذا كان ذلك لمصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾، وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ الآية. ومن المصلحة هنا- والله أعلم- التنبيه على كمال قدرة الله تعالى، وعظم ملك سليمان ونبوته وعظيم فضل الله عليه.

٣١- إجابتها إجابة موفقة مسددة تدل على فطنتها وذكائها ورجحان عقلها؛ لقولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾؛ فلم تنف أنه هو؛ لتطابق جل صفاته مع صفات عرشها، ولم تقل: هو عرشي؛لأن عرشها محروس محفوظ، ولبعد المسافة بين اليمن والشام، فكيف ينقل بهذه السرعة الخاطفة؟! فأجابت بجواب مسدد مطابق للسؤال، وموافق لمقتضى الحال.

٣٢- ينبغي لمن سئل أن يكون جوابه مطابقًا للسؤال، موافقًا لمقتضى الحال، فكم من جانح بالجواب عن السؤال، وكم من مجيب لا يُقدِّر مقتضى الحال.

٣٣- اعتزاز سليمان عليه السلام وافتخاره بما آتاه الله من النبوة والعلم والحكمة، والدخول في الإسلام قبل ملكة سبأ؛ تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ

مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾.

٣٤- أن الذي صد هذه الملكة عن الإسلام، وجعلها تعبد من دون الله؛ أنها نشأت في بيئة كافرة وقومها الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾.

٣٥- أن الكفر والمعاصي من أعظم أسباب الصد عن الإيمان وعن اتباع الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾.

٣٦- أن النفس إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

٣٧- أن البيئة السيئة لها أعظم الأثر في الصد عن الحق، وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه**»(١).

وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير**»(١).

٣٨- اختبارها ثانيًا بأمرها بدخول الصرح والقصر الذي بناه لها سليمان؛ لترى عظم ما أعطي سليمان من الملك والسلطان، مما لا يدانيه ملكها وسلطانها؛ لترجع بالإكبار والتعظيم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾ الآية.

٣٩- ظنها أن الصرح لجة ماء، وكشفها عن ساقيها لما رأته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾.

٤٠- أن المرأة شيمتها الستر، وجواز كشفها عن ساقيها عند الحاجة.

٤١- إخبارها بأن هذا صرح مملس من زجاج، فلا حاجة لها لكشف ساقيها؛ لقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾.

٤٢- اعترافها- لما رأت عظمة ملك سليمان وما أعطي من النبوة والعلم والحكمة- بظلم نفسها بما كانت عليه من عبادة الشمس والشرك بالله، وإعلانها توبتها وإنابتها، وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين وإقرارها بألوهية الله تعالى وربوبيته؛

(١) سبق تخريجه.

لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤٣- إثباتها ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولها: ﴿رَبِّ﴾.

٤٤- أن الشرك بالله، والمعاصي ظلم للنفس؛ لقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

٤٥- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدمت الاعتراف بظلمها لنفسها بالشرك وتوبتها، ثم أتبعت ذلك بإعلان دخولها في الإسلام.

٤٦- إثباتها ربوبية الله تعالى العامة للعالمين، واستدلالها بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة والألوهية.

٤٧- في إسلام ملكة سبأ عبرة لمشركي قريش وغيرهم؛ إذ لم يمنعها عظم ملكها وسلطانها من التأمل بعقلها في دلائل وحدانية الله تعالى، وفساد الشرك، والدخول في الإسلام؛ ليعلموا أن امتناعهم من الدخول في الإسلام لسخافة عقولهم، وعمايتهم، وتمسكهم بالباطل.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أتبع قصة سليمان بقصة ثمود ونبيهم صالح؛ لأن ديار ثمود على تخوم مملكة سليمان، وكانت في طريق السائرين من سبأ إلى فلسطين؛ ولهذا عقب ثمود بذكر قوم لوط؛ لأنهم أدنى إلى فلسطين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾؛ الواو استئنافية، واللام: موطئة للقسم، و«ثمود»: هم قبيلة ثمود، ومساكنهم في الحجر شمال الجزيرة.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: أخاهم في النسب والقبيلة.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ «أن» تفسيرية، أو هي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: قائلًا لهم، أو آمرًا لهم بأن اعبدوا الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«إذا» هي الفجائية، أي:

ففاجأوا بانقسامهم إلى فريقين يختصمون في الدين: فريق كفر به واستكبر؛ وهم الأكثرون الأقوياء، وفريق آمن به؛ وهم القلة الضعفاء؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ – ٧٦].

وهذه حال الخلق، أكثرهم أتباع كل ناعق بالباطل، والقلة الضعفاء منهم أتباع الحق، فلا يغتر بذلك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

«وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين»[(١)].

فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ كما قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين».

وهذا معنى قول الفضيل بن عياض: «لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغتر بكثرة السالكين الهالكين»[(٢)]، وقول سفيان بن عيينة: «اسلكوا سبل الحق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها»[(٣)].

قال ابن دريد في المقصورة:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى[(٤)]

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأذكار» للنووي ص١٠٨، «مدارج السالكين»» ١/ ٤٦.

(٣) انظر: «حلية الأولياء»» ٧/ ٣٠٦، «الزهد الكبير» للبيهقي ص١٣١.

(٤) انظر: «ديوان ابن دريد»ص١٣٢.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾؛ الاستفهام للإنكار عليهم في استعجالهم السيئة قبل الحسنة، والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، والتعريض بسفههم وعدم رشدهم.

والمعنى: لم تبادرون وتسارعون بفعل السيئات التي تسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، قبل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم في الدنيا والآخرة؟

وأيضًا: لِمَ تَدْعون بحضور العذاب وتعجيله، ولا تطلبون من الله رحمته؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرعد: ٦].

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ١٦].

﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾؛ «لولا»: للتحضيض، أي: هلا تستغفرون الله، أي: تتوبون إليه من شرككم وعصيانكم، وتسألونه وتدعونه أن يغفر لكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي: رجاء أن ترحموا، أو لأجل أن ترحموا، أي: أن يرحمكم الله.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾، أي: تطيرنا بك، أي: تشاءمنا ﴿بِكَ﴾ يا صالح والتطير: التشاؤم، مأخوذ من الشؤم، وهو توقع الشر والتشاؤم يكون بمرئى أو مسموع أو زمان أو مكان أو حال .

والتطير: مأخوذ من الطير؛ لأنهم كانو في الجاهلية يتشائمون بالطيور، فإذا خرج أحدهم لسفر لتجارة أو غير ذلك فشاهد غرابًا أو غيره عن يساره تشاءم وعدل عن سفره ونحو ذلك.

﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾، أي: وتطيرنا بالذين معك من أتباعك، أي: أن ما يصيبنا من المصائب والبليات كالقحط والجدب وغور المياه، وغير ذلك؛ بسبب وجودك وأتباعك بيننا، وشؤمكم، فما رأينا على وجهك ووجوه أتباعك خيرًا؛ كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال تعالى عن كفار هذه الأمة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ [يس: ١٨ – ١٩].

وهكذا فيجعلون ما يصيبهم بسبب ذنوبهم وأفعالهم بأسباب أنبيائهم وصالحيهم؛ قلبًا للحقائق.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم صالح: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾، أي: ما أصابكم مما تشاءمتم به من القحط والجدب وغير ذلك. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: إنما هو بتقدير الله تعالى وحكمته، وبسبب ذنوبكم، وليس مني.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم قوم تختبرون بالسراء والضراء، والخير والشر، هل تتوبون أم لا؟ ومفتونون ومستدرجون فيما أنتم عليه من الضلال، وفي نسبة الشؤم إلى صالح والمؤمنين.

وقد يكون من ذلك أنهم أصيبوا مع مجئ صالح إليهم بشيء من ذلك بسبب تكذيبهم له فتنة لهم، فنسبوه إلى صالح وأتباعه، وقد قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: مدينة صالح، أو مدينة ثمود وهي الحجر شمال الجزيرة العربية.

﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾؛ الإضافة هنا بيانية فرهط تفسير لتسعة كأنه قال: تسعةٌ رهطٌ. والرهط: العدد من الناس من ثلاثة إلى عشرة، أو من سبعة إلى عشرة، أو العدد حوالي العشرة، مثل: «النفر»، فالمعنى: تسعة نفر.

﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ بالشرك والكفر والمعاصي، وتكذيب صالح والكيد له ولدعوته، ومعاداته وتحذير الناس من اتباعه، وغير ذلك.

﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؛ تأكيد لإفسادهم؛ لأن الجمل المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: أن سعيهم الإفساد في الأرض، ولا شأن لهم في الإصلاح البتة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢].

وقد غلب هؤلاء الرهط على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراءهم وساداتهم، وهم الذين صدر عن آرائهم ومشورتهم عقر الناقة، وأشقاهم: قدار بن سالف؛ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤﴾[الشمس: ١٢ - ١٤].

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء على الخطاب، وضم التاء الثانية: «لَتُبَيِّتُنَّهُ»، وقرأ الباقون بالنون، وفتح التاء الثانية: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾.

أي: قال هؤلاء الرهط التسعة المفسدون في الأرض- فيما بينهم- بعضهم لبعض: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾، أي: تحالفوا، أي: لِيقسم كل منكم للآخرين، أي: يحلف.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لنبيتنه والتبييت والبيات: مباغتة العدو ليلًا، وقتله غدرًا ومكرًا، أي: لنباغتنه ليلًا، ونقتلنه وأهله.

أي: طلب بعض من بعض أن يتعاهدوا، ويتحالفوا على أن يبيتوا صالحًا وأهله ويقتلوهم. وهذا من أعظم الغدر والمكر والخيانة، لأن الليل موضع السكينة والهدوء والطمأنينة.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء وضم اللام الثانية:

«لَتَقُولُنَّ»، وقرأ الباقون بالنون وفتح اللام الثانية: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾.

و«ثم» حرف عطف، واللام: للقسم، أي: ثم والله لنقولن لوليه، أي: لولي دمه وهم ورثته بفرض أو تعصيب.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام: ﴿مَهْلِكَ﴾.

وقرأ الباقون ما عدا أبا بكر عن عاصم: «مُهْلَكَ» بضم الميم وفتح اللام، وقرأ أبو بكر بفتحهما: «مَهْلَك» وهي مصدر الإهلاك أو مكانه أو زمانه.

أي: ما حضرنا هلاك أو إهلاك صالح وأهله، وضمير الهاء في «أهله» يعود إلى «وليه».

أي: ثم لنقولن لولي صالح: ما شهدنا مقتل أهلك، أي: ما شهدنا مقتل أهلك: صالح وأهله، أي: نقسم أننا ما شهدنا مقتل أهله، ولا حضرنا. وهذا كذب منهم، بل شهدوا وفعلوا ولكن من هان عليه القتل هان عليه الإنكار من باب أولى، وكأنهم بهذا الإنكار يقولون: ما شهدنا بل فعلنا.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام :لام الابتداء للتوكيد، فالجملة معطوفة على قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ داخلة في جملة مقول القول، فهي من جملة دفاعهم عن أنفسهم.

ويحتمِل: أن تكون الواو حالية، فالجملة في محل نصب على الحال من فاعل «شهدنا»، فهي تقرير لقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، وتهوين للأمر فيما بينهم، وطمأنة من بعضهم لبعض.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾؛ «مكرًا» مفعول مطلق، ونكِّر للتعظيم، أي: ومكروا مكرًا شديدًا، بالإفساد في الأرض، والكيد لصالح ودعوته، وبإقسام بعضهم لبعض على تبييت صالح وأهله وقتلهم ليلًا، وقولهم لوليه: ما شهدنا مقتلهم، وإنا لصادقون.

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾؛ الله عز وجل لا يوصف بالمكر إلا على سبيل المجازاة والمعاقبة للماكرين، أي: ومكرنا بهم مكرًا شديدًا؛ أشد وأعظم من مكرهم، مجازاة على مكرهم، وجعلنا مكرهم سببًا لإهلاكهم. والجزاء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ باستدراجنا لهم، ومكرنا بهم؛ لانطماس بصائرهم، حتى أخذناهم على غرة وغفلة، فلا هم شعروا بعاقبة مكرهم وأنها إلى البوار، ولا بأن الله يستدرجهم بمكرهم، لأن الله أصمهم وأعمى أبصارهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: فتأمل وتفكر كيف كان سوء عاقبة مكرهم؟ والعاقبة: ما يعقب الشئ، أي: انظر ما يعقب مكرهم، أي: نتيجته ونهايته وما أدى إليه.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بفتح الهمزة: ﴿أَنَّا﴾، بدل من عاقبة وبيان لها، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي وهي: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: «إِنَّا». فهي مستأنفة لبيان هذه العاقبة. والتدمير: الإهلاك الشديد، أي: أهلكنا هؤلاء الرهط إهلاكًا شديدًا، ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «أجمعين»: توكيد، أي: وأهلكنا قومهم الكافرين جميعًا.

أي: استأصلنا شأفتهم كلهم عن آخرهم بالصيحة التي أرجفت بهم، وصعقتهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١] ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[الحجر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، أي: بالصيحة الشديدة، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أي: متهدمة جدرانها، ساقطة سقوفها، معطلة خالية من ساكنيها، موحشة أرجاؤها، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أي: متهدمة مدمرة.

﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب ظلمهم بالشرك

والكفر، وتكذيب صالح، وصد الناس عن اتباعه، وتبييت قتله وأهله، وعقر الناقة، وغير ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في قصة صالح عليه السلام وقومه وتكذيب أكثرهم له، وما دبره رؤوس الكفر منهم من المكر والكيد له، ورد الله كيدهم في نحورهم، وإهلاكهم عن آخرهم.

﴿لَآيَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته وحكمته ووحدانيته، وصدق رسله، وعبرة وعظة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم يعلمون ذلك، وينتفعون بعلمهم، فيستدلون بذلك على الحق، ويتعظون ويعتبرون.

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ بالله وبكل ما أوجب عز وجل الإيمان به، بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارهم.

﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أي: وكانوا يتقون الله بترك كل ما نهى الله عنه، وهم صالح وأتباعه المؤمنون.

والمعنى: أنجيناهم وعصمناهم وحفظناهم من العقوبة والتدمير والهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٦ – ٦٧].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إرسال صالح عليه السلام إلى قومه ثمود، ودعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٢- أن صالحًا عليه السلام من قبيلة ثمود، وأخوهم في النسب، وفي هذا جواز إطلاق الأخوة النسبية بين المسلم والكافر.

٣- أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك الشرك هي أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام، وأن كلًا منهم يبعث إلى قومه خاصة، وفي الحديث: «**وكان النبي يبعث**

إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[1].

٤- انقسام ثمود إلى فريقين: كفار، وهم الكثرة الكاثرة منهم، ومؤمنون، وهم القلة والضعفاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا حال الأمم كلها مع رسلهم مؤمن وكافر؛ حكمة من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن: ٢].

٥- وقوع الخصام بين المؤمنين والكافرين، وبين الرسل وأعدائهم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۝١٩﴾ [الحج: ١٩]. وهذه سنة كونية، لا بد منها أن يحصل الخصام والقتال بين أهل الحق وأهل الباطل للتمحيص، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

٦- إنكار صالح عليه السلام على قومه استعجالهم بالكفر والمعاصي قبل الإيمان والطاعة، وبالعذاب قبل الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

٧- حضه إياهم وحثه لهم على الاستغفار والتوبة إلى الله مما هم عليه من الكفر، واستعجال السيئة قبل الحسنة؛ ليرحمهم الله؛ لقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٨- فضيلة الاستغفار والتوبة وأن ذلك سبب للرحمة، ورفع العقوبة.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

١٠- تشاؤمهم بصالح وأتباعه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، فنسبوا ما أصابهم من قحط وجدب ونحو ذلك إلى صالح عليه السلام وأتباعه.

١١- رده عليه السلام عليهم بأن: طائركم عند الله، أي: ما يصيبكم بتقدير الله، وبسبب ذنوبكم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١٢- أن ما يصيب الإنسان كله من الله وبتقديره، وبسبب ذنوبه.

١٣- إرشاده وبيانه لهم أنهم يختبرون بما يصيبهم من السراء والضراء، وهل يتوبون أم لا؟ وأنهم مفتونون ومستدرجون بما هم عليه من الضلال؛ لقوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾.

١٤- أن الله قد يحدث من الأمور الكونية ما يكون سببًا لافتتان بعض الناس فقد يكون وافق مجيء صالح عليه السلام إليهم حصول شيء من الجدب والقحط. كما افتتن بنو إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم، وابتُلي الصحابة وهم محرمون بالصيد تناله أيديهم ورماحهم.

١٥- تولي تسعة رهط في الحجر من أشقى ثمود كبر الإفساد في الأرض؛ بالشرك والمعاصي، وإظهار العداوة والكيد لصالح وتكذيبه، والصد عن دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾.

١٦- أن هؤلاء الرهط لا خير فيهم أبداً همهم الإفساد، ولا شأن لهم في الإصلاح البتة.

١٧- أنه قد يجتمع في الشخص كونه مفسدًا من جهة، ومصلحًا من جهة أخرى؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾.

١٨- أن المعاصي من أعظم أسباب الفساد في الأرض، وهو فساد معنوي يفوق الفساد الحسي، ويؤدي إليه.

١٩- إقسام هؤلاء الرهط فيما بينهم على تبييت صالح وأهله ليلًا، وقتلهم غدرًا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾، وهذا ما يعرف اليوم بحرب العصابات والاغتيالات.

٢٠- اتفاقهم على الإنكار، وعلى أن يقسموا لوليه المطالِب بدمه: ما شهدنا مقتل أهلك، وعلى صدقهم؛ لقولهم: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

٢١- أن من هان عليه القتل هان عليه الإنكار من باب أولى.

٢٢- أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر كما قال ﷺ: **«البينة على المدعي،**

واليمين على من أنكر»[١].

٢٣- مكرهم الشديد، وكيدهم لصالح عليه السلام ولدعوته؛ لصد الناس عنها، وتبييتهم قتله وأهله، ومكر الله بهم بإهلاكهم بسبب مكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾.

٢٤- أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأن على الظالم تدور الدوائر، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

٢٥- أن الله عز وجل يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين، على سبيل المجازاة والمعاقبة لهم. وهو أعظم منهم مكراً، وهو خير الماكرين.

٢٦- أنه عند انطماس البصيرة لا يشعر الإنسان أن ما يصيبه بسبب ذنوبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فلا هم شعروا بسوء عاقبة مكرهم ولا بمكر الله بهم.

٢٧- ينبغي النظر والتأمل في مصارع المكذبين، وما حل بهم من العقوبات والمثلات، بسبب مكرهم، وأخذ العظة والعبرة مما حل بهم، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الآية.

٢٨- تدمير الله عز وجل لهؤلاء المفسدين الماكرين من قوم صالح وقومهم، وإهلاكهم أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٩- شؤم العقوبات، وأنها إذا نزلت تعم لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)﴾ [النمل: ٥١].

٣٠- شهادة بيوتهم الخاوية المتهدمة، الخالية من السكان، الموحشة المكان، على ظلمهم بتكذيبهم رسل الله وكفرهم وعلى عدل الله فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾.

٣١- أن الظلم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله وتكذيب رسله سبب للعقوبات والهلاك والدمار، مما يوجب الحذر من ذلك.

٣٢- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله، لقوله تعالى: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، وفي هذا

---

(١) سبق تخريجه.

رد على الجهمية الذين يقولون إن الله يفعل لمجرد المشئة لا لحكمة تعالى الله عن قولهم.

٣٣- أن في قصة صالح عليه السلام وقومه، وتكذيب أكثرهم له، ومكرهم وكيدهم له ولدعوته، وإبطال الله عز وجل مكرهم، ورد كيدهم في نحورهم- دلالةً على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ووحدانيته، وصدق رسله، وعظةً وعبرة لقوم يعلمون، أي: ينتفعون بعلمهم، فيستدلون به على الحق ويتعظون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٤- فضيلة العلم وأهله، لأنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل العلم والمعرفة بالله.

٣٥- إنجاء الله عز وجل للذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم الطاعات، واتقوا المعاصي والمحرمات، وهم صالح عليه السلام وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

٣٦- الترغيب في الإيمان والتقوى، وأنهما من أسباب النجاة من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٣].

٣٧- في إهلاك المكذبين من قوم صالح، وإنجائه ومن معه من المؤمنين؛ تهديد ووعيد للمشركين المكذبين، وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة له ولمن معه من المؤمنين.

٣٨- كمال عدل الله في مجازاة العباد كل بما يستحقه، وأن الجزاء من جنس العمل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

يذكر الله عز وجل في القرآن لوطًا بعد صالح- والله أعلم- لقرب مدائن صالح من قرى قوم لوط، وكلها معلومة للناس على الطريق بين الحجاز والشام.

قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، أي: واذكر لوطًا حين قال لقومه منكرًا عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أترتكبون وتفعلون الفاحشة الشنيعة القبيحة، فاحشة اللواط، التي تستفحشها العقول السليمةْ، والفطر المستقيمةْ، والشرائع كلها، وهي إتيان الذكران، والتي ما سبقهم بها أحد من العالمين، والتي هي أعظم من الزنا وجميع الفواحش؟.

ولهذا أطلق عليها في القرآن «الفاحشة» بالتعريف؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الآية: ٨٠]، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٢٨].

بينما أطلق على الزنا: «فاحشة» بالتنكير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإنما كان اللواط أشد وأعظم فحشًا- مع فحش الجريمتين- لأن اللواط شذوذ وخروج عن الفطرة السوية التي فطر الله الخلق عليها؛ إذ لم يوجد في البشر، ولا في الحيوانات كلها أن ذكرًا يعلو ذكرًا، إلا ما كان من قوم لوط؛ ولهذا روي أن الوليد بن عبد الملك قال: لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن

ذكرًا يعلو ذكرًا»[1].

وأيضًا: فإن اللواط- وهو إتيان الذكر الذكر- لا يجوز بحال من الأحوال؛ لمخالفته للفطرة.

وأما إتيان الذكر المرأة فإنه لا يجوز إذا كانت المرأة زوجته أو ملك يمينه.

﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وأنتم تعلمون فحشها وخبثها وشدة قبحها، ويبصر بعضكم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾؛ الاستفهام: لتأكيد الإنكار والتقريع والتوبيخ، واللام: للتوكيد، و«شهوة»: حال، أي: قد انتكست فطركم، فأصبحتم تأتون الرجال في أدبارهم شهوة.

﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ اللاتي خلقهن الله لكم، وجعلهن محلًّا للشهوة والنكاح بالزواج أو ملك اليمين؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

أي: أن شهوتكم كانت في إتيان الرجال، وليسوا محلًا للشهوة، دون النساء اللاتي هن محل الشهوة، فاستحسنتم القبيح واستقبحتم الحسن، واسأتم فيما فعلتم وأسأتم فيما تركتم.

وهذه من العقوبات العاجلة؛ أن من ابتلي بإتيان الرجال لم يكن عنده ميل إلى النساء، حتى إن بعض من ابتلوا بذلك تركوا موضع الحرث من نسائهم، وأخذوا يكرهونهن على إتيانهن في أدبارهن.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ بفعلكم هذه الفاحشة؛ لاستبدالكم الحلال بالحرام، والطيب بالخبيث، والطهر بالنجاسة، والنافع بالضار، وما فيه الأجر والمثوبة، بما فيه الإثم والعقوبة.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾؛ الفاء: استئنافية، أي: فما كان جواب قومه له لمَّا

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ١٦٣).

أنكر عليهم هذه الفاحشة ونهاهم عنها- بدل أن ينقادوا له، أو يتركوه وشأنه- ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل «قالوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: إلا قولهم:

﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾، أي: لوط وأهل بيته، ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾؛ وهي: سدوم.

﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ تعليل لقولهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾، أي: لأنهم يتطهرون، أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الرجال، أي: يتطهرون عن فعلكم؛ لأن مرتكب الفاحشة لا يرضى إلا أن يكون الناس كلهم مثله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

فيا سبحان الله! كأنهم يقولون: أخرجوهم لا لذنب إلا أنهم يتطهرون، ومتى كان التطهر يستوجب العقاب بالإخراج أو غيره؟! وهذا محض الزيغ والضلال.

وقولهم: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ يحتمل أنهم أردوا الحقيقة، وأن هذا الفعل خبيث، وهؤلاء يريدون التطهر منه.

ويحتمل- وهو الأقرب- أن قولهم: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من باب التهكم بهم والسخرية منهم.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾، أي: فأنجينا لوطًا وأهل بيته من العذاب بسبب إيمانهم.

كما قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا امرأته قدرنا عليها وكتبناها من الغابرين، أي: من الهالكين الباقين في العذاب مع قومها؛ لأنها كانت معهم على دينهم راضية بأفعالهم القبيحة، معينة لهم على ذلك، بدلالتها إياهم على ضيفان لوط.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، أي: وأنزلنا عليهم مطرًا، ونكَّر «مطرًا» للتعظيم والتهويل، أي: مطرًا من حجارة من سجيل منضود، وذلك بعد قلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي: فبئس مطر المنذرين مطرهم، حيث أمطروا عقوبة لهم بالحجارة المهلكة، بدل الماء الذي به الرحمة والحياة؛ لأنهم أنذروا وحذروا عقاب الله وأليم عذابه، فلم ينزجروا، ولم يرتدعوا.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بدعوة لوط عليه السلام لقومه، وإنكاره عليهم إتيان الفاحشة العظمى فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٢- إثبات رسالة لوط عليه السلام، وأنه أرسل إلى قومه خاصة كغيره من الرسل عليهم السلام، عدا محمد ﷺ فقد أرسل إلى الناس عامة.

٣- أن اللواط أشد الفواحش وأشنعها وأقبحها؛ فهو أشد فحشًا من الزنا- مع شناعة الجريمتين- ولهذا أطلق عليه في القرآن: «الفاحشة» بالتعريف، بينما أطلق على الزنا «فاحشة» بالتنكير، وذلك؛ لأن اللواط شذوذ ومخالفة للفطرة السوية؛ ولأن إتيان الذكرِ الذكرَ لا يجوز مطلقًا، بينما إتيان الرجل المرأة يجوز إذا كانت زوجته أو ملك يمينه.

ولهذا جعل الشرع عقوبة اللواط القتل بكل حال للفاعل والمفعول به، المحصن وغيره.

كما في الحديث: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[(١)].

وذلك؛ لأنه يصعب التحرز منه؛ إذ لا يستنكر وجود الذكر مع الذكر، بخلاف وجود الرجل مع المرأة الأجنبية.

وأيضًا: فإنه سبب لاكتفاء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وذلك مخالف أشد المخالفة للحكمة التي أرادها الله من تكثير النسل وعمارة الكون.

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٤- ارتكاب قوم لوط هذه الفاحشة، مع علمهم بقبحها وشناعتها وفحشها، وعلى مرأى من بعضهم لبعض، مما يزيدها شناعة وفحشًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

٥- إنكار لوط عليهم انتكاس فطرهم في إتيانهم الرجال شهوة وترك ما أباح الله لهم من النساء؛ لقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٦- أن من أسباب التشديد في أمر هذه الفاحشة أن الرجال ليسوا محلًا للشهوة ولوجود البديل المباح من النساء.

٧- أن من يفعل هذه الفاحشة الشنيعة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء يبتلى عقوبة له بعدم الرغبة في النساء، والجزاء من جنس العمل، فحيث ارتكب الحرام وآثره، ابتلي بعدم الرغبة في الحلال، جزاء وفاقًا.

٨- جهل قوم لوط وسفههم وانحطاط أخلاقهم؛ لاستبدالهم الحلال بالحرام، والطيب بالخبيث، والنافع بالضار، وما فيه الأجر والمثوبة، بما فيه الإثم والعقوبة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

٩- وجوب الإنكار على من يفعل هذه الفاحشة وتنفيذ حكم الله تعالى فيه؛ لأن اللواط محرم بمقتضى الشريعة والطبيعة، وارتكابه من أعظم السفه والاعتداء؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

١٠- عتو قوم لوط، فلم يقتصروا على رد دعوته، بل قابلوا نصحه لهم بالعمل على إخراجه وآله من بلدهم، مقابلة منهم للإحسان بالإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

١١- شدة تحريضهم على لوط وآله؛ لقولهم: ﴿۞ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾. وذلك من وجهين:

الأول: قولهم: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، أي: أن هؤلاء ليسوا منكم فلا وجه لكونكم تسكتون عنهم.

والوجه الثاني: قولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ففي هذا إلهاب حميتهم وعصبيتهم ليخرجوهم

من قريتهم.

١٢- أنه لا ذنب للوط وآله إلا أنهم يتطهرون عن الفاحشة التي عليها قومهم، ولا يرضون بها؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. وفي هذا قرن الحكم بسببه.

١٣- أن قول البعض إذا رضيه الباقون فهو ينسب للجميع، ولهذا نسب إليهم كلهم هذا القول وعذبوا جميعًا.

١٤- أنه عند انطماس البصائر، وغلبة الهوى والشهوات يكرم أهل الفسق، ويهان أصحاب الحق.

١٥- إنجاء الله تعالى للوط عليه السلام وأهله من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾.

١٦- استثناء امرأته من الناجين؛ لتقدير الله أنها من الباقين في العذاب؛ لكفرها وتواطئها مع قومها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

١٧- أن امرأة الرجل من أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وفي هذا رد على الرافضة -أخزاهم الله- في إخراجهم أزواج النبي ﷺ من أهله، ليقعوا فيهن، ويتهموهن، عليهم من الله ما يستحقون.

١٨- إثبات تقدير الله تعالى السابق لكل ما هو كائن.

١٩- أنه لا ينجي الفاسق انتسابه وارتباطه بقوم صالحين، حتى ولو كان ذلك لأفضل الخلق رسل الله عليهم السلام، فما نفع امرأة لوط كونها زوجًا له عليه السلام، كما قال عز وجل عنها وعن امرأة نوح: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

وقال تعالى لنوح في ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

٢٠- إهلاك قوم لوط بمطر الحجارة، واستئصالهم عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾، وذلك بعد قلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وذلك لسفول أخلاقهم، وانتكاس فطرهم.

٢١- سوء المطر الذي أمطروا به، وشدة العذاب الذي أهلكوا به، بقلب ديارهم، وإمطارهم بالحجارة؛ لأنهم أنذروا وحذروا من عذاب الله وعقابه، فلم ينزجروا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

٢٢- إن المطر ليس خاصًا بالماء، بل كل ما حصب به الإنسان من فوق يسمى مطرًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾:

قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ الأمر له ﷺ، ولكل مؤمن، و«ال» في «الحمد» للاستغراق والشمول، و«الحمد»: وصف المحمود والثناء عليه بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

واللام في قوله: «لله»، للاستحقاق والاختصاص، أي: الحمد الكامل المطلق مستحق لله تعالى وحده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى؛ من نصرة رسله وأتباعهم، وإهلاك المكذبين لهم وبيان الحق للخلق، وهداية من شاء وتوفيقهم إليه، وإدرار النعم عليهم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣].

فله الحمد عز وجل في الدنيا والآخرة، وفي جميع الأوقات، وفي الأرض والسموات؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾[الروم: ١٨].

وله الحمد على ربوبيته للخلق أجمعين؛ كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦﴾[الجاثية: ٣٦].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، أي: الذين اختارهم من أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ – ١٨٢].

وفي قوله ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾: حمد منه عز وجل لنفسه على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، والأسماء الحسنى، والصفات العلا، وسلام منه على صفوة عباده من رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين.

وفيه أمر له ﷺ وللمؤمنين بحمده عز وجل بما حمد به نفسه، وأمر له ولهم بالسلام على صفوة عباده من رسله وأنبيائه والمؤمنين بما سلم به الله عز وجل عليهم، فنحن نقول كما أمرنا عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

وكما أمرنا ﷺ بأن نقول في التشهد: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**».

وقال: «**إنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض**»(١).

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم بالغيب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

وقرأ الباقون بالخطاب: «تُشْرِكُونَ».

والاستفهام للإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله غيره، وتقرير خيرية الله تعالى خيرية مطلقة في صفاته وفي ثوابه وجزائه لمن يعبده وفي كل شيء.

و«أم»: هي المتصلة، حرف عطف، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: آلله خير أم شركهم؟ أو: أم شركاؤهم؟ و«خير»: اسم تفضيل، وأصلها: «أَخْيَر» فحذفت الهمزة، واستعمال التفضيل هنا فيما ليس في الطرف الآخر شيء من الفضل؛ كما في قوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[الفرقان: ٢٤]؛ إذ ليس في النار خير البتة، بل هي شر محض، وكذلك هنا المعبودات من دون الله ليس في عبادتها خير البتة، بل هي شر محض.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

وهذا وما بعده تفصيل وبيان لقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: بيان لما به يُعرف كمال تفرده عز وجل بالربوبية والألوهية، وبطلان إلهية ما سواه.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾:

«أم» هنا وفي المواضع الأربعة بعده هي: المنقطعة، بمعنى: «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام التقريري، أي: بل، أمَنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ كمن لم يفعل ذلك؟؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟!

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدهما وما فيهما وما بينهما.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: وأنزل لأجلكم من السماء ماء، وهو المطر، والمراد بالسماء العلو.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾؛ بساتين كثيرة، ملتفة الأشجار، طيبة الثمار، وفي الجملة إلتفات من الغيبة إلى التكلم.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: صاحبة منظر حسن، وشكل بهي، من كثرة أشجارها وتنوعها، وجودة ثمارها، تبهج الناظرين وتسرهم وتعجبهم، وتبتهج بها قلوبهم وتنشرح لها صدورهم.

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، أي: ما كان ممكنًا لكم، ولا في

استطاعتكم أيها الخلق ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾.

«أن» والفعل «تنبتوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: ما كان ممكنًا لكم إنبات شجرها، بل الله عز وجل هو الذي أنزل لكم الماء من السماء، وأنبت الأشجار والنبات من الأرض؛ كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ الاستفهام هنا وفي المواضع الأربعة بعده: للإنكار والنفي، أي: أإله مع الله فعل هذه الأفعال: خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، وأنبت به حدائق ذات بهجة، فيستحق أن يعبد مع الله ويشرك به؟! كلا، فلا أحد انفرد بشيء منها ولا أحد شارك الله في شيء منها أو أعانه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

وكقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾[لقمان: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[الفرقان: ٣].

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، أي: ينحرفون عن طريق الحق، فيعدلون بربهم ويسوون به غيره من الأنداد والشركاء، ويشركون مع الله، مع اعترافهم بأنه الخالق الرازق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: ٣٨، لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

فهم يعترفون بربوبيته، وأنه الرب الخالق المالك المتصرف، الرازق، لكنهم يعدلون به غيره في العبادة من لا يخلق ولا يرزق، ولا يملك من الأمر شيئًا، فيشركونهم معه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وسيعترفون غدًا حين يرون العذاب بألوهيته، حين لا ينفعهم ذلك، ويعترفون بضلالهم في تسويتهم معبوداتهم به عز وجل، بقولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾، أي: بل، أمَنْ ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾ كمن لم يفعل ذلك؟؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟

وقوله: ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾، أي: جعلها قارة ساكنة، مذللة، صالحة للقرار والسكن والعيش عليها، وحرثها والبناء عليها، لا تضطرب ولا تميد بأهلها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾[غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾[الملك: ١٥].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾، أي: وجعل في خلال الأرض، على ظهرها وفي جوفها أنهارًا عذبة طيبة الماء، سيّرها وصرّفها فيها تشقها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا وفي وسطها؛ تيسيرًا لمصالح العباد وأرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾، أي: وجعل لها جبالًا شامخات رواسي، ترسيها وتثبتها لئلا

تميد وتضطرب بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، أي: جعل بين البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾، أي: مانعًا من الأرض يمنع من اختلاط المياه العذبة بالمياه المالحة؛ مما يفسدهما ويذهب بخاصية كل منهما، بأن جعل الأنهار والعيون العذبة مجاريها بعيدة عن البحار المالحة؛ لتبقى عذبة زلالًا لسقي الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، وتبقى البحار المالحة المحيطة بالأرجاء والأقطار ومن كل جانب على خاصيتها، وهو كون مائها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء بريحها، قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله جعل هذا، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر الخلق لا يعلمون ما في هذه الآيات من العبر، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم في الآخرة، وهو العلم بالله تعالى، وما يجب له؛ ولهذا أشركوا معه غيره، وإن كان لديهم العلم الدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾:

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾، أي: بل أَمَنْ ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ كمن لا يفعل ذلك؟!؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: يستجيب دعاء المضطر؛ أي المكروب الذي نزل به الضر، وألمت به الخطوبْ، واشتدت عليه الكروبْ، وتعسر عليه المطلوبْ، واضطر للخلاص مما نزل به من مؤمن وكافر.

﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: إذا التجأ إليه ودعاه صادقًا من قلبه، مع سلامته من موانع

قبول الدعاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي: يزيل المكروه، ويرفع البلاء، ويدفع الشر، فيجيب دعاء المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عامة ممن دعا، وممن لم يدعو.

والسوء: كل ما يسوء حيًا: كالمرض والفقر، ونحو ذلك، أو معنويًا كالجهل، ونحو ذلك.

عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل من بلهجيم، قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «**أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك، والذي إذا أضللت بأرض قفر دعوته رد عليك، والذي إذا أصابتك سنة فدعوته أنبت عليك**»[1].

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ويجعل بعضكم يخلف بعضًا في أرضه التي يورثها من يشاء، أمة بعد أمة، وقرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل؛ خلافة شرعية أو كونية كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو وهشام وروح بالغيب: «يَذَّكَّرُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.

و«قليلًا»: مفعول مطلق، و«ما»: مصدرية، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٦٤.

وتفكركم فيما ينفعكم ويرشدكم إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، قد غلبت عليكم الغفلة.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: بل أمَنْ ﴿يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ كمن لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه؟؛ ولهذا قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟

أي: من يدلكم ويرشدكم في ظلمات البر والبحر، حيث لا معلم ولا دليل إلا هدايته لكم بما يسر لكم من الدلائل السماوية، كالقمر والنجوم في الليل، والشمس في النهار، والرياح، والدلائل الأرضية، والأسباب العلمية التي تهتدون بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾، [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أي: مبشرات بين يدي السحاب والمطر، تثير السحاب ثم تؤلفه وتجمعه، ثم تلقحه، ثم تسوقه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر.

والمراد بالرحمة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: المطر؛ كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[الروم: ٥٠]، أي: المطر.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا، ولهذا قال: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. أي: تعالى الله وتعاظم عن شركهم، وعن شركائهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: بل أمَنْ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كمن لا يفعل ذلك، ولا يقدر عليه؟ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، خلقًا آخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بما ينزل من المطر وبركات السماء، وبما يقدره من الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾[الذاريات: ٢٢].

وبما يخرج لكم من النبات وبركات الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾[الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩]، وفي قوله تعالى هنا: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله قبله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: تأكيد للامتنان عليهم بما وفر لهم من الرزق وأسبابه، والذي به حياتهم.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي: قل يا محمد لمن زعموا أن هناك آلهة مع الله، وأشركوهم مع الله: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي: أحضروا دليلكم وحجتكم، والأمر للتحدي.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ في دعواكم أن هناك آلهة مع الله.

وأنى لهم ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

لما بين عز وجل تفرده بالخلق، وإنزال المطر، وإنبات النبات، وجعل الأرض قرارًا، وخلالها أنهارًا، وتثبيتها بالرواسي، وجعله بين البحرين حاجزًا، وإجابته المضطر، وكشفه السوء، وجعل الخلائق خلفاء الأرض، وبدئه الخلق ثم إعادته، ورزقهم من السماء والأرض، أتبع ذلك ببيان اختصاصه وحده بعلم الغيب.

قوله: ﴿قُل﴾، أي: قل يا محمد للناس عامة، ولمن يدعي أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب من الشركاء وغيرهم:

﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾؛ «إلا»: للاستثناء، أي: لا يعلم الغيب أحد سوى الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠].

وقد قال عز وجل لأفضل الخلق وسيدهم ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «من زعم أنه يعلم- يعني: النبي ﷺ- ما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾» (١).

قال قتادة: «إن الله تبارك وتعالى إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناسًا جهلة بأمر الله، قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، قضى الله أنه: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾» (٢).

قال ابن كثير(٣) بعد ذكره قول قتادة هذا: «وهو كلام جليل متين صحيح».

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: وما يعلمون وما يدرون متى يبعثون من القبور للحساب والجزاء.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر بقطع الهمزة مفتوحة وإسكان الدال من غير ألف بعدها: «أَدْرَكَ»، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وتشديد الدال مفتوحة وألف بعدها: ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾.

و﴿بَلْ﴾ في المواضع الثلاثة: للإضراب الانتقالي، أي: بل ضعف علمهم في الآخرة وغاب، فلم يؤمنوا بها، ولم يستعدوا لها، ولم يعلموا متى وقتها.

والضمير في قوله: ﴿عِلْمُهُمْ﴾ للكفار؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، أي: بل هم في شك من وقوعها؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾ [المؤمنون: ٨٢ – ٨٣].

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ «عمون» جمع «عمٍ» بالتنوين، وهو على وزن: «فَعِلٍ»،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩١٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢١٦.

(٣) في «تفسيره» ٦/ ٢١٦.

صيغة مبالغة من العمى؛ للدلالة على شدة العمى؛ قال زهير[1]:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

والمعنى: بل هم من الآخرة عمون، لا علم لهم بها، فانتقلوا من عدم الشعور متى تكون، إلى ضعف العلم بها، إلى الشك بها، إلى أن بلغوا غاية المراتب وهي العمى، أي: عمى القلوب والبصائر عنها كلية؛ ولهذا لم يعملوا لها، بل أنكروها، واستبعدوا وقوعها.

الفوائد والأحكام:

١- حمد الله تعالى لنفسه، وسلامه على عباده الذين اصطفاهم من الرسل والأنبياء والمؤمنين، وأمره نبيه ﷺ بحمده عز وجل، والسلام على عباده الذين اصطفاهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

٢- في أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بحمده والسلام على عباده الذين اصطفى؛ أمر للمؤمنين بحمد الله تعالى، والسلام على من اصطفاهم من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، ووجوب ذلك عليهم، فلك الحمد ربنا، وسلام على عبادك المصطفَيْنَ.

٣- أن الحمد المطلق، والوصف بصفات الكمال مع تمام المحبة والتعظيم؛ مستحَق لله تعالى وحده، خاص به؛ وأنه عز وجل يُحمد على كل حال، من إهلاك أعدائه وإنجاء أوليائه، وغير ذلك: لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٤- فضيلة الرسل والأنبياء ومن اصطفاهم الله تعالى من عباده، ورفعة منزلتهم؛ لأن الله تعالى سلم عليهم، وأمر نبيه والمؤمنين بالسلام عليهم.

٥- إثبات عبودية الرسل والأنبياء والمؤمنين لله عز وجل عبودية خاصة.

٦- اصطفاء الله تعالى واختياره من عباده من يشاء لرسالاته ولعبادته والإيمان به، كما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

٧- الإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله عز وجل- الذي له الخلق والأمر،

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١١٠).

وبيده الخير والنفع والضر- آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾.

٨- أن أفعل التفضيل قد يستعمل في المفاضلة فيما ليس في أحد الطرفين شيء من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ إذ ليس في شرك المشركين وشركائهم خير البتة، بل ذلك شر محض.

٩- أن الله عز وجل خير من كل شيء خيرية مطلقة.

١٠- إثبات أن الله عز وجل وحده هو الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأنبت به حدائق ذات بهجة، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك، فيستحق أن يعبد معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾.

١١- إثبات كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ونعمته في خلقه السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإنبات الحدائق والأشجار والنبات، وما في ذلك من منافع للخلق.

١٢- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء ليسقي السهل والجبل.

١٣- إثبات الحكمة وربط الأسباب بمسبباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾، ففي قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ إضافة الشيء إلى مسببه، لا إلى سببه، وفي قوله: «به» إثبات السبب.

١٤- إباحة التنزه في الحدائق والتأمل في عجيب ما أودع الله فيها مما يبهج القلب ويشرح الصدر، ويسر الناظرين، ويجدد النشاط للعبادة والعمل.

وكما جاء في حديث حنظلة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**»[1].

١٥- أنه ليس بإمكان الخلق، ولا في مقدورهم إنبات النبات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾.

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٤١، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٩.

١٦- تحدي المشركين المتخذين مع الله إلهة أن يكون لآلهتهم شيء مما ذكر فتستحق أن تعبد؛ لقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

١٧- عدول المشركين سفهاً منهم وانحرافهم عن الحق، وتسويتهم شركاءهم بالله، مع اعترافهم بأنه الرب الخالق الرازق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

١٨- إثبات أن الله عز وجل هو الذي جعل الأرض قرارًا، وجعل خلالها أنهارًا، وأرساها بالجبال الرواسي، وجعل بين البحرين حاجزًا، واستحقاقه وحده العبادة دون سواه، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق أن يعبد مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

١٩- إثبات تمام قدرة الله تعالى، ومنته على خلقه بجعل الأرض قرارًا، وجعله خلالها أنهارًا، وترسيتها بالجبال، وجعله بين البحرين حاجزًا؛ لمصالح عباده.

٢٠- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي يسعدهم حقًّا، وينفعهم في الآخرة، وهو العلم بالله وما يجب له؛ ولهذا أشركوا معه غيره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلا يغتر بما عليه أكثر الخلق.

٢١- إثبات أن الله عز وجل هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعل الخلائق يخلف بعضهم بعضًا في الأرض، وإثبات استحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق العبادة معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

٢٢- أنه عز وجل يجيب دعوة المضطر مؤمنًا كان أو كافرًا، وقد قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه داعيًا إلى اليمن: «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[1]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1].

٢٣- قدرة الله تعالى التامة، ونعمته العظيمة على العباد في إجابته دعوة المضطر

(١) سبق تخريجه.

منهم، وكشف السوء، واستخلافهم في الأرض.

٢٤- قلة تذكر الخلق واتعاظهم، وقلة المتذكر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

٢٥- ينبغي الالتجاء إلى الله تعالى وحده، ودعاؤه دون سواه؛ لرفع الضر وكشف السوء والبلاء، والإكثار من ذكره، والتذكر والاتعاظ بآياته.

٢٦- إثبات أن الله عز وجل هو الذي يهدي في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق العبادة مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

٢٧- منة الله تعالى العظيمة، وقدرته التامة في هدايته العباد في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح تبشرهم بالمطر.

٢٨- أن المطر من رحمة الله تعالى.

٢٩- تنزه الله عز وجل، وتعاليه، وتعاظمه عن شرك المشركين، وعن شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٣٠- إثبات أنه عز وجل هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق الخلق من السماء والأرض، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك، فيستحق العبادة مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

٣١- كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته على العباد، في بدء الخلق وإعادته، ورزقهم من السماء والأرض بالمطر والنبات وغير ذلك.

٣٢- تحدي المشركين بالإتيان ببرهانهم ودليلهم وحجتهم على أن هناك آلهة مع الله، وعلى شركهم بالله؛ وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٣٣- اختصاص الله عز وجل، وتفرده وحده بعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

٣٤- جهل الخلائق بالقيامة، وعدم علمهم متى يبعثون؛ لأن ذلك مما انفرد الله تعالى بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عنها قال ﷺ: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[1].

٣٥- غياب علم المشركين بالآخرة، ومتى وقتها، وشكهم فيها، وعمى بصائرهم عنها؛ ولهذا لم يستعدوا لها، بل أنكروها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وإنما يكمل علمهم بها يوم يرونها حقيقة يوم القيامة حين لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٧].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ إنكارًا منهم للبعث، وتكذيبًا به: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار في الموضعين.

واللام في قوله: ﴿لَمُخۡرَجُونَ﴾ للتوكيد.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا﴾ البعث ﴿نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هذا الوعد بالبعث ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ قصصهم وحكاياتهم الكاذبة، التي سطروها في كتبهم وتناقلوها بينهم للتسلية والتزجية.

﴿قُلۡ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين للبعث، وما جاءت به الرسل.

﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: امشوا فيها، وتنقلوا بين جنباتها.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾؛ بأبصاركم، وتأملوا واعتبروا ببصائركم وقلوبكم.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، أي: كيف كانت نهاية المجرمين المكذبين للرسل، وما

جاؤوا به من عند الله؟ حيث حلت بهم العقوبات والمثلات، وصاروا عبرة للمعتبرين، وخبرًا بعد عين؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تأسف ولا تأس على هؤلاء المكذبين؛ لعدم إيمانهم، فلو علم الله فيهم خيرًا لهداهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنفال:٢٣].

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: من مكرهم، ويجوز كونها موصولة، أي: من الذي يمكرونه.

أي: لا يضيق صدرك بسبب مكرهم وكيدهم لك ولما جئتهم به من الحق؛ فإنهم إنما يمكرون بأنفسهم، ومكرهم عاقبته عليهم، والله معك، حافظك وناصرك ومظهر دينك؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قولهم: بأن الوعد بإخراجهم بعد كونهم ترابًا من قبورهم من أساطير الأولين، ثم ذكر هنا استعجالهم هذا الوعد ومتى يكون؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له.

أي: ويقول الكفار المكذبون بالبعث: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، أي: متى البعث والقيامة؟ والاستفهام: للاستبعاد والتكذيب والاستعجال والتهكم؛ بدليل قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم أيها الرسل صادقين في زعمكم أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاءً.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾، أي: عسى أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥١ – ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣ – ٥٤].

وفي الآية تهديد لهم بقرب العذاب؛ لأن «عسى» من الله واجبة؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، ونكَّر «فضل»: للتعظيم، أي: لصاحب فضل عظيم، وكرم عميم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كلهم، في إسباغه النعم عليهم مع كفر كثير منهم وظلمهم لأنفسهم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله عليهم ونعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«ما»: موصولة، أي: ليعلم الذي تكن صدورهم، أي: الذي تخفيه وتضمره وتنطوي عليه صدورهم.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: والذي يعلنون، أي: والذي يظهرونه ويبدونه ويجهرون به.

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وما من شيء غائب عن أبصار الخلائق، ولا خبيئة في السماء والأرض ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ونكَّر «كتاب»؛ للتعظيم، أي: إلا في كتاب عظيم؛ وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قول المكذبين للبعث، ولِمَا جاء به ﷺ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ثم ذكر في هذه الآيات عظمة القرآن، وما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة والهدى والرحمة الدالة على أنه من عند الله تعالى وأنه حق وصدق.

أي: إن هذا القرآن العظيم المنزل على النبي ﷺ ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: الموجودين في عهد النبي ﷺ ومن يأتي منهم بعد ذلك، أي: يبين لهم.

﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ مما يحتاج إلى بيان القول الفصل فيه؛ كما في اختلافهم في عيسى عليه السلام؛ فاليهود كذبوه وأنكروا رسالته، وافتروا عليه وعلى أمه، والنصارى عبدوه وغَلَوْا فيه، فقالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا!

فجاء القرآن الكريم بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد الله ونبيه ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾[مريم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾[الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾ [مريم: ٣٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: وإن هذا القرآن لهدى، فيه بيان الحق، والدلالة عليه والهداية إليه، والعصمة من الغي والضلال بإذن الله.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: سبب لرحمتهم، فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم، ونجاتهم من العذاب.

وإنما خص بهداية القرآن ورحمته المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يهتدون به، وينتفعون بما فيه، ويعملون به بتوفيق الله وإلا فهو بيان وهدى للناس جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾، أي: إن ربك يا محمد يفصل يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم، وبين الخلائق جميعًا ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾، أي: بحكمه وقضائه النافذ في ذلك اليوم، كما حكم بينهم في الدنيا بما قص عليهم في كتابه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة في حكمه وقضائه وانتقامه، وغير ذلك.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ ذو العلم الواسع لكل شيء من أعمال العباد وأقوالهم، وغير ذلك، فاجتمع في قضائه العزة والقوة، والعلم الواسع، فجاءت أحكامه أعدل الأحكام وأقومها.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: اعتمد على الله في تبليغ رسالة ربك ودينه، وفوض إليه في جميع أمورك، في جلب الخير ودفع الضر، وثق به يكفك كل شيء.

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾؛ الجملة: تعليل لأمره بالتوكل على الله، أي: لأنك على الحق المبين، أي: على الحق الثابت بصدق أخباره وعدل أحكامه، البين الواضح

الظاهر، ولا تكترث بمن خالفك؛ فلن يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم.

والتوكل نصف الدين قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

قال ابن القيم: «وفي ذكر أمره بالتوكل مع إخباره بأنه على الحق؛ دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلًا على الله، واثقًا به، فالدين كله في هذين المقامين»(١).

﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ الإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.

والإسماع المنفي: إسماع الانتفاع، والموتى جمع: ميِّت، والمراد بـ«الموتى»: موتى القلوب؛ من المكذبين والكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، أي: حياة قلبية، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، أي: أن موتى القلوب كأصحاب القبور لا يمكن إسماعهم.

والمعنى: إنك لا تستطيع إسماع من ماتت قلوبهم من المكذبين والكفار إسماعًا ينتفعون به، وإن أسمعتهم حسيًّا إسماع إدراك؛ كما لا تستطيع إسماع الموتى الذين في قبورهم؛ لأن من مات قلبه لا ينتفع بما يسمع، فكأنه لا يسمع كميِّت القبر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير بالياء مضمومة، وفتح الميم، و«الصم» بالرفع: ﴿وَلَا يُسْمَعُ الصُّمُّ﴾، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة، وكسر الميم، ونصب «الصم»: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾.

والصم جمع: «أصم»، وهو من لا يسمع، والمراد: صم القلوب.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٤٤.

أي: ولا تستطيع إسماع صم القلوب الذين لا ينتفعون بسمعهم ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾، أي: النداء والدعوة إسماعًا ينفعهم، وإن أسمعتهم إسماعًا حسيًّا وإسماع إدراك.

﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ «مدبرين» حال، أي: إذا ولوا على أعقابهم مدبرين بأبدانهم، معرضين بقلوبهم عنك وعن دعائك.

كما لا تستطيع إسماع صم الآذان إذا ولوا مدبرين عنك وهذا غاية ما يكون من بُعْد السمع، صم الأذان، وولوا مدبرين، فلا أمل في أن يسمعوا.

وقوله: ﴿مُدۡبِرِينَ﴾، أي: على أدبارهم، وفي هذا تشنيع عليهم.

فاجتمع فيهم ثلاثة موانع من الانتفاع بالسماع:

الأول: الصمم المعنوي؛ وهو عدم انتفاعهم بما يسمعون من الدعوة والموعظة.

الثاني: توليهم مدبرين بأبدانهم عنه.

الثالث: إعراضهم بقلوبهم عن دعوته. وهذا أشد.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾؛ قرأ حمزة بتاء مفتوحة، وسكون الهاء، دون ألف، ونصب «العمي»: «تَهْدِي العُمْيَ»، وقرأ الباقون بباء الجر، وفتح الهاء، وألف بعدها، وخفض «العمي»: ﴿بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾. والعمي جمع، أعمى.

أي: وما أنت بهادي عُمْي القلوب والبصائر وصارفهم عن ضلالتهم وغيهم وتيههم في الباطل إلى الحق، أي: أنك لا تستطيع ذلك.

﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما تسمع، و«إلا»: أداة حصر، و«من»: موصولة، أي: ما تسمع إلا الذي يؤمن بآياتنا، أي: يصدق بقلبه بآياتنا الشرعية والكونية.

﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ الجملة: تعليلية، أي: فهم مستسلمون مستجيبون لها، منقادون بجوارحهم لفعل الواجبات وترك المنهيات؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٣٦﴾ [الأنعام: ٣٦].

الفوائد والأحكام:

١- إنكار الكفار للبعث، وتكذيبهم به واستبعادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧﴾.

٢- تلبيسهم الحق بالباطل بالشبهات والتمويه: لقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧﴾، وقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: ولم يروا شيئًا، وكأنهم وعدوا بذلك في الدنيا.

٣- زعمهم أن ما وعدوا به من البعث هم وآباؤهم، وما جاءت به الرسل من عند الله: من حكايات الأولين وقصصهم وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم، وتناقلوها للتسلية وتزجية الأوقات؛ لقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

٤- الوعيد والتهديد لهم، وأمرهم بالسير في الأرض، والنظر بأبصارهم، والتأمل ببصائرهم وعقولهم: كيف كانت نهاية المجرمين المكذبين للرسل، وما حل بهم من العقوبات والدمار والهلاك؟ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾.

٥- أهمية السير في الأرض والنظر والتأمل في عقوبات الماضين من المكذبين ومصارعهم؛ لأن في ذلك عبرةً وعظة لمن يعتبر، والسعيد من وعظ بغيره فاتعظ.

٦- أن العبرة بعواقب الأمور ونهاياتها، وليست في بداياتها.

٧- تسلية الله تعالى لنبيه ﷺ، بألا يحزن على هؤلاء الكفار من قومه؛ لعدم إيمانهم؛ لأن الله لو علم فيهم خيرًا لهداهم، وألا يضيق صدره بسبب مكرهم؛ لأنهم إنما يمكرون بأنفسهم، والله حافظه وناصره ومؤيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾. وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله والمصلحين بأن عليهم الاستمرار في طريقهم، والنتائج على الله.

٨- أن الرسول ﷺ كغيره من البشر، ينتابه ما ينتابهم من الحزن وضيق الصدر؛ ولكن الله تعالى معه، يذهب حزنه، ويكشف كربه، ويشرح صدره.

٩- استعجالهم بما وعدوا به من البعث والعذاب؛ سفهاً منهم واستبعادًا له، وتكذيبًا به، وتهكمًا بالرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١﴾.

١٠- التهديد لهم بقرب العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم

بَعۡضُ ٱلَّذِى تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

١١- حلم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِى تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، فتوعدهم ببعضه دون كله.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٣- عظم فضل الله تعالى وإنعامه على الناس، وقلة الشاكرين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

١٤- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير شاكرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

١٥- علم الله تعالى الواسع التام بما يخفيه الخلائق وما يظهرونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

١٦- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وسيحاسب الخلائق ويجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

١٧- أن علم الله تعالى بما يسره الخلق كعلمه بما يعلنون؛ لهذا قدم قوله: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

١٨- إحصاء الله تعالى لكل شيء، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ، وأنه لا يغيب عن علمه أيُّ شيء في السماء ولا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾. وفي هذا إثبات مرتبتين من مراتب القضاء والقدر، وهما: العلم والكتابة، والرد على القدرية الذين ينفون تقدير الله السابق، ويزعمون أن أعمال العبد ليست بمشيئة الله، تعالى عن قولهم.

١٩- بيان القرآن الكريم لبني إسرائيل القول الحق العدل في كثير مما اختلفوا فيه؛ كما في اختلافهم في عيسى عليه السلام؛ فاليهود كذبوه وافتروا عليه، والنصارى عبدوه وغلوا فيه، فجاء القرآن فبين القول الحق العدل فيه، وأنه عبد الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠].

٢٠- أن القرآن قص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وهو الذي في قصصه عليهم فائدة دون ما عدى ذلك.

٢١- هيمنة القرآن الكريم على الكتب السماوية السابقة، وأنه الحاكم عليها.

٢٢- التعريض بذم بني إسرائيل بسبب اختلافهم، لأن الخلاف شر ومذموم وغير محمود.

٢٣- أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون به، وينتفعون بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾؛ كما أنه هدى هداية عامة، ورحمة عامة لجميع الخلق.

٢٤- فضيلة الإيمان، لأنه سبب للتوفيق للاهتداء بالقرآن، ونيل الرحمة به

٢٥- قضاء الله عز وجل يوم القيامة بين الخلائق بحكمه العدل، وقضائه الفصل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾، كما له القضاء بينهم في الدنيا، فله الحكم الشرعي بينهم في الدنيا، وله الحكم الجزائي بينهم في الآخرة، وله الحكم القدري في الدارين.

٢٦- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز»، و«العليم»، وصفتي: العزة التامة، والعلم الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٢٧- في اقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«العليم»، وصفتي العزة والعلم في حقه كمال إلى كمال.

٢٨- حاجة الحاكم والقاضي إلى صفة القوة؛ ليكون حكمه زاجرًا نافذًا، وإلى صفة العلم؛ ليكون حكمه عدلًا صوابًا، موافقًا للحق والدليل.

٢٩- أمره تعالى للنبي ﷺ بالتوكل عليه، وتفويض أموره إليه في تبليغ رسالة ربه ودينه، والثقة بكفايته له ونصره؛ لأنه على الحق البين الواضح؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾.

٣٠- شهادة الله تعالى بأن ما جاء به ﷺ هو الحق، وأنه ﷺ على الحق المبين، ومفهوم هذا أن ما خالفه فهو باطل ظاهر

٣١- وجوب التوكل على الله، وأن من جمع بين الاستقامة على الحق، والتوكل على الله

تعالى، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

٣٢- أن الحق وإن كان بينًا واضحًا وضوح الشمس رابعة النهار، فإنه لا يظهر للخفافيش؛ لأن ضياء النهار يعميها؛ ولهذا عقب هذا بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٨٠﴾.

وكما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... فوافقها من ظلمة الليل غيهب

فظلت تحاكي الطير في ظلمة الدجى ... وإن لاح ضوء الصبح للعش تهرب(١)

٣٣- أنه ﷺ لا يستطيع إسماع من ماتت قلوبهم إسماع انتفاع، وإن أسمعهم إسماع إدراك كما لا يستطيع لا هو ولا غيره إسماع موتى القبور إسماع إدراك كإسماع الأحياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

٣٤- أن الموتى لا يسمعون في قبورهم كما يسمع الأحياء، وإن كان لهم سماع كما دلت عليه بعض الأحاديث دون ذلك والله أعلم.

٣٥-أنه ﷺ لا يستطيع إسماع الصم إسماع انتفاع بما يدعوهم إليه، إذا كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، وولوا مدبرين عن الحق معرضين عنه، كما لا يستطيع هو ولا غيره إسماع صم الآذان إذا ولوا مدبرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

٣٦- أن من كان أصمَّ حسيًّا فإنه لا يسمع النداء، ويزداد عدم سماعه إذا ولى مدبراً.

٣٧- أن من مات قلبه ولم يقبل الحق، ولم ينتفع به فهو منزلة الميت الذي لا يسمع وأن من لم ينتفع بسماع الحق فهو بمنزلة الأصم الذي لا يسمع.

٣٨- أنه ﷺ ليس بيده هداية من عميت بصائرهم وضلوا عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾.

٣٩- أن من لم يبصر الحق، ولم يهتد به، وضل عنه فهو بمنزلة الأعمى.

---

(١) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص٣٣.

٤٠- أنه إنما يسمع دعوته ﷺ، وينتفع بسماعه لها من آمن بقلبه بآيات الله، واستسلم وانقاد لها بجوارحه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٤١- أن هداية القلوب بيد الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٤٢- أن الإيمان يستلزم الإسلام فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا وقع القول والقضاء على الناس، وحق عليهم العذاب، وذلك عند فساد الناس، وتبديلهم الدين الحق، وقرب الساعة.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ نكر دابة؛ لأنها غير معروفة، بل منفردة من نوعها، وللتهويل والتعظيم، وهي من علامات الساعة الكبرى.

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، أي: تحدثهم وتخاطبهم، فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح الهمزة: «أن»، وقرأ الباقون بكسرها: «إن».

أي: أن الناس لا يصدقون بآيات الله التصديق الجازم، ولا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها.

واليقين: التصديق الجازم.

وقال بعضهم: إن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، تعليل من كلام الله تعالى؛ لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، وليس من كلام الدابة. فعلى هذا يكون تكليم الدابة لهم لما يُبيَّن.

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم، والدجال، وثلاث خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم حيث باتوا،**

وتقيل معهم حيث قالوا»(١).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾، أي: اذكر يوم نحشر، أي: نجمع، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: من كل أمة من الأمم، ﴿فَوْجًا﴾، أي: جماعة.

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: من الذين يكذبون بآياتنا الكونية والشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: نظراءهم وأشباههم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧]، أي: جمع وقرن كل نظير إلى نظيره.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يدفعون ويساقون، ويحبس أولهم على آخرهم؛ ليكونوا

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة ٤٣١١، والترمذي في أبواب الفتن، ما جاء في الخسف ٢٢٧٤، ٢٢٧٨، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات ٤٠٥٥، وأحمد ٤/ ٧.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، خروج الدجال ومكثه في الأرض ٢٩٤١، وأبو داود في الملاحم ٤٣١٠، وابن ماجه ٤٠٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب بقية من حديث الدجال ٢٩٤٧.

زمرة واحدة، ويشتد خزيهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾، أي: حضروا وأُوقفوا بين يدي الله تعالى في مقام المساءلة والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤].

﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾؛ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: قال الله عز وجل موبخًا ومقرعًا لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾، أي: أنكرتموها بقلوبكم، ولم تنقادوا لها بجوارحكم.

﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾؛ الجملة: حالية، أي: والحال أنكم لم تحيطوا بها علمًا، أي: بادرتم بالتكذيب بها من غير أن تتفهموها وتتأملوا فيها، وتدركوها. قال ابن القيم(١):

إن البـــدار بـــرد شيء لم تحـــط ... علـــمًا بـــه ســـبب إلى الحرمـــان

ويجوز كون الجملة معطوفة على مقول القول.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة بمعنى: «بل».

و«ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: بل ماذا كنتم تعملون؟ أو ما الذي كنتم تعملونه؟ أي: إن أعمالكم لا تدل إلا على تكذيبكم بآيات الله.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾؛ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: صدق القول عليهم وحقت كلمة العذاب عليهم بسبب ظلمهم بتكذيب الآيات، والكفر بها، والشرك بالله.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، أي: قد خرست ألسنتهم وبُهتوا، فلم يستطيعوا الجواب ولم يتكلموا بكلمة لدفع العذاب عنهم؛ لأنه لا حجة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾؛ الاستفهام للتوبيخ، والرؤية هنا علمية، أي: ألم يعلموا ويتأملوا ببصائرهم.

﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾، «جعل» بمعنى: «صير»، و«الليل»: مفعول أول، والمفعول

---

(١) في «النونية؛ الكافية الشافية» (ص٣٠٥).

الثاني محذوف، والتقدير: صيرنا الليل مظلماً.

﴿لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يسكنوا فيه، ويناموا، ويستريحوا من نصب العمل في النهار.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾، أي: وجعلنا النهار مبصرًا أي: صيرناه مبصراً، أي: مضيئًا بالشمس، يبصرون فيه؛ ليتصرفوا فيه في معاشهم ومكاسبهم وأسفارهم وتجاراتهم، وغير ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في جعل الليل سكنًا، والنهار مبصرًا، ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اللام: للتوكيد، أي: دلالات على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وتمام نعمته على العباد.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: لقوم يؤمنون بالله وآياته، ويصدقون بها، وينتفعون بالنظر والتأمل فيها، ويستفيدون منها، ويشكرون الله عليها.

الفوائد والأحكام:

١- ثبوت خروج الدابة- التي هي من علامات الساعة الكبرى- بعد فساد الناس، وتبديلهم الدين الحق، في آخر الزمان، واستحقاقهم للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢- تكليم هذه الدابة ومخاطبتها للناس بما هم عليه من الكفر وعدم الإيمان بآيات الله؛ تقريعًا وإنذارًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

٣- قدرة الله تعالى التامة على تبديل الأحوال وتغييرها، وعلى كل شيء، فيجعل الدابة البهيم ناطقة؛ كما يجعل الناطق أخرس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾ الآية.

٤- وجوب الإيمان بآيات الله تعالى ومراقبته وتقواه، والحذر من التفريط والغفلة قبل حلول العذاب.

٥- إثبات حشر الناس يوم القيامة، وجمع المكذبين بآيات الله من الأمم بعضهم إلى بعض، وحبس بعضهم على بعض؛ ليزداد خزيهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ٨٣﴾.

٦- تقريع المكذبين وتوبيخهم على تكذيبهم بآيات الله من غير فهم لها، ولا تأمل

فيها؛ وعلى أعمالهم الباطلة الدالة على تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

٧- أن أعمال هؤلاء المكذبين تدل على تكذيبهم بآيات الله، وكفرهم.

٨- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٩- تهديدهم بوقوع القول عليهم وصدقه فيهم، ووجوب العذاب عليهم بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾.

١٠- التحذير من الظلم بالكفر، وتكذيب الآيات، وغير ذلك، وأنه سبب للعذاب.

١١- إثبات الأسباب، وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

١٢- عدم استطاعتهم النطق للجواب على تقريعهم وتوبيخهم، ولدفع العذاب عنهم؛ لأنه لا حجة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

١٣- بيان كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته في جعل الليل وقتًا للسكن، وجعل النهار مبصرًا لأجل العمل، وما في ذلك من الآيات العظيمة والنعم الجليلة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٤- أنه إنما يستفيد من الآيات الكونية، ويستدل بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته؛ المؤمنون.

١٥- أن ما عليه كثير من المسلمين اليوم من جعل الليل وقتًا للسهر والحركة والعمل، وجعل النهار وقتًا للسكن والراحة والنوم مخالف للشرع والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو من أعظم أسباب انتكاس الأمة وضعفها، فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة -نسأل الله تعالى أن يرد المسلمين إلى رشدهم، وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، «الصور»: هو القرن العظيم الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أي: واذكر يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، نفخة الفزع والصعق؛ ليموت كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٣ – ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾[النازعات: ٦ – ٧].

فالراجفة: النفخة الأولى، وهي نفخة الفزع والصعق، والرادفة: النفخة الثانية، نفخة البعث والنشور، وخروج الناس من قبورهم لموقف الحساب.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين- لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا- فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه، فيهلكه، ثم يمكث سبع**

سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبَل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ. قال: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصْغَى لِيتًا ورفَعَ لِيتًا**[1]». قال: «**وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله، أو قال: ينزل الله مطرًا كأنه الطل**[2] **فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلم إلى ربكم:** ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]، **ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألفٍ تسعَمئة وتسعةً وتسعين، قال: فذاك يومَ يجعل الولدان شيبا،وذلك:** ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]»[3].

﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: خافوا وانزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم في بعض، وقلقوا خوفًا مما هي مقدمة له، وعبر بالماضي "فزع"، لتحقق وقوعه وقربه.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ «إلا» أداة استثناء، و«من» موصولة، أي: إلا الذي شاء الله أن يأمن من الفزع، فأكرمه وثبته وحفظه.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه أول من يفيق فيجد موسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش قال ﷺ: «**فلا أدري أجوزي بصعقة الصور أم أفاق قبلي**»[4].

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ لا يعلم هل موسى ممن استثنى الله في الآية أم لا، وإذا

---

(١) أي: أمال عنقه؛ ليستمعه من السماء جيدًا.

(٢) الطل: المطر الخفيف.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب في خروج الدجال ٢٩٤٠.

(٤) أخرجه البخاري في الديات ٦٥١٩، ومسلم في الفضائل- فضائل موسى عليه السلام ٢٣٧٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كان ﷺ لا يعلم ذلك فغيره من باب أولى لا يعلم من الذي استثناه الله في الآية.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾؛ قرأ حمزة وخلف وحفص بفتح التاء وقصر الهمزة: ﴿أَتَوْهُ﴾، وقرأ الباقون بمد الهمزة وضم التاء: «آتُوهُ».

ومعنى القراءتين واحد، أي: وكل من في السموات ومن في الأرض جاؤوا إلى الله تعالى يوم القيامة.

﴿دَاخِرِينَ﴾؛ حال، أي: صاغرين ذليلين، منقادين مطيعين، لا يتخلف منهم أحد عن أمره؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[مريم: ٩٣ – ٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣ – ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ – ٨].

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، أي: وتشاهد أيها المشاهد يوم القيامة الجبال تظنها واقفة مستقرة ثابتة على ما كانت عليه.

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ﴾، أي: والحال أنها تمر مر السحاب، أي: تسير بسرعة سير السحاب من خفتها وشدة الأهوال؛بعد أن اقتلعت من أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطور: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ – ١٠٧].

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾؛ «صنع»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: صنع الله ذلك صنعًا، وفي إضافة صنع إلى الله تعظيم له، أي: أن هذا من الأمور العظيمة التي هي من صنع الله.

وقيل: منصوب على الإغراء، أي: انظروا صنع الله وتأملوه وعليكم به.

﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾؛ أي: أحكم كل شيء صنعه أو شرعه، فجاء خلقه وتقديره وشرعه في غاية الإتقانْ، من غير اختلاف ولا تفاوت ولا زيادة ولا نقصانْ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالغيب: «بِمَا يَفْعَلُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَفۡعَلُونَ﴾.

و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: إنه خبير بفعلكم، أو بالذي تفعلونه، مطلع على دقيق أفعالكم وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾، أي: من أتى بالحسنة يوم القيامة، قلبية، أو فعلية؛ قولًا أو فعلًا أو بذلًا.

﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ بمضاعفتها الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾[الحديد: ١١].

﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتنوين: ﴿فَزَعٖ﴾.

وقرأ الباقون بدون تنوين على الإضافة: «فَزَعِ».

وقرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بفتح الميم.

وقرأ الباقون بكسرها: «يَوْمِئِذٍ».

أي: وهم بسبب إتيانهم بالحسنة، من كل فزعٍ يوم القيامة، أو من فزع يوم القيامة وخوفه وقلقه ووجله- آمنون؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: ومن أتى يوم القيامة بالسيئة قلبية أو قولية أو فعلية، التي توجب النار كالشرك والمعاصي.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: كبوا وألقوا على وجوههم في النار.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الاستفهام بمعنى النفي، وفيه تقريع وتبكيت أي: ما تجزون إلا بما كنتم تعملون، و«إلا»: أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي كنتم تعملونه.

والمعنى: فيقال لهم: ما تجزون إلا الذي كنتم تعملونه أي: إلاجزاء الذي كنتم تعملونه من السيئات، لأن الجزاء من جنس العمل ؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، ولم يقل: من فعل الحسنة، ومن فعل السيئة؛ لأن الإنسان قد يفعل الحسنة ولا يثاب عليها، لارتكابه ما يحبطها ويبطل ثوابها، وقد يفعل السيئة ولا يعاقب عليها، لإتيانه بما يكفرها من التوبة والحسنات الماحية ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾:

أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾، أي: إنما أمرني الله عز وجل، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر

محذوف، أي: بعبادة رب هذه البلدة، أي: مكة المكرمة، شرفها الله.

كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤].

وأضاف الربوبية إلى البلدة تشريفًا لها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش: ٣].

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، أي: الذي جعلها حرمًا يجب احترامها، وحرامًا، أي: محرمة فلا يدخلها مشرك ولا يسفك فيها دم، ولا ينفر صيدها، ولا يختلى خلاها، وفي هذا تعظيم لها، وامتنان على أهلها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه**»[1].

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ﴾؛ من عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة ربوبية خاصة، ورب كل شيء ربوبية عامة أي: خالقه ومالكه والمتصرف فيه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: وأمرت بأن أكون من المسلمين.

أي: وأمرني ربي أن أكون من المسلمين المستسلمين له بتوحيده، والإخلاص له، المنقادين لطاعته.

كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الآية: ٣٦].

وهو ﷺ أول المسلمين؛ كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الآية:

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج، تحريم مكة وصيدها ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك، تحريم مكة ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، وأحمد ١/ ٢٥٣، ٢٥٩.

١٦٣].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: وأمرت أن أتلو القرآن، أي: أمرت بتلاوة القرآن، أي: باتباعه وقراءته على الناس وتبليغه لهم، فما أنا بالنسبة لهم إلا مبلغ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فمن اهتدى من الناس بهدي القرآن إلى الصراط المستقيم.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما» أداة: حصر، أي: فإنما نفع اهتدائه يعود إلى نفسه دون غيره.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى وعن الصراط المستقيم بعد بلوغ القرآن إليه.

﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، أي: إنما أنا كغيري من المنذرين، أي: من المحذرين المخوفين من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

أي: ليس بيدي هداية من ضل، وليس عليَّ حسابه، وإنما ذلك على الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: احمد الله تعالى، وأخبر بأن الحمد المطلق والوصف بصفات الكمال لله تعالى وحده على تمام ربوبيته ووحدانيته، ووضوح سبيله، وبيان حجته، وكمال عدله.

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، السين تفيد تحقق وقوع الشيء وقربه أي: سيبين ويظهر لكم آياته الشرعية، وآياته الكونية في الآفاق وفي السماء والأرض والأنفس والأرزاق، وغير ذلك. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تمام المعرفة؛ لتقوم عليكم الحجة بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢٢].

وقد أراهم الله تعالى من الآيات ما أوقع بهم يوم بدر، وغير ذلك مما لا يخفى من الآيات الكونية والشرعية.

ومن عميت بصيرته عن رؤية الآيات في هذه الدنيا فسيراها في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨]، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالتاء: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ .

أي: وما الله بغافل عن عملكم، أو عن الذي تعملونه، بل هو شهيد رقيب على أعمالكم، سيحصيها عليكم، ويحاسبكم ويجازيكم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب:٥٢].

قال ابن كثير(١): «ذُكر عن الإمام أحمد رحمه الله؛ أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور النفخة الأولى نفخة الفزع؛ ليصعق ويموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

٢- إثبات الصور؛ وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، كما دلت على ذلك السنة.

٣- شدة النفخ في الصور، وفزع الخلائق وقلقهم وخوفهم وانزعاجهم عند النفخ

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٢٩.والبيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص٣٤).

في الصور؛ خوفًا مما هو مقدمة له، وهو الصعق؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية.

٥- إثبات البعث، ومجيء الخلائق كلهم يوم القيامة إلى الله تعالى صاغرين ذليلين منقادين، لا يتخلف منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

٦- تغيّر حال الجبال- مع عظمتها- وتسييرها بسرعة، بعد أن كانت ثابتة راسية، من شدة هول ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ﴾.

٧- عظمة خلق الله وبديع صنعه، وإتقانه كل شيء خلقه وقدره وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾.

٨- علم الله تعالى التام، واطلاعه على أفعال العباد، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وإحصاؤه لها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء وحث على إحسان العمل وتحذير من إساءة العمل.

٩- فضل الله عز وجل بمجازاته الحسنة بخير منها ومضاعفتها؛ جودًا منه وكرمًا، وهذا في مقام الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

١٠- أن الجزاء أفضل من العمل وأعظم.

١١- أمن وطمأنينة من لقي الله تعالى يوم القيامة محسنًا قد عمل الصالحات من فزع ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

١٢- إثبات الفزع يوم القيامة، لشدة أهواله.

١٣- شدة عذاب من وافى ذلك الموقف بالسيئات، وإلقاؤهم على وجوههم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

١٤- أن المدار في الإثابة على الحسنات المجئ بها يوم القيامة سالمة من البطلان، وأن المدار في العقاب على السيئات المجيء بها من غير توبة.

١٥- إثبات النار وعذابها.

١٦- تبكيت من جاؤوا بالسيئات وتقريعهم بأن هذا جزاء عملهم، وأنهم لا يجازون إلا بما عملوه، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٧- أن الجزاء من جنس العمل وكما يدين المرأ يدان.

١٨- كمال عدل الله تعالى فلا يجازي أحدًا إلا بما عمل.

١٩- أنه ﷺ- كغيره من الأمة- مأمور بعبادة الله تعالى وحده، رب البلدة الحرام، الذي حرمها، ورب كل شيء ومليكه، وأن يكون من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾. وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الولي يصل إلى درجة يسقط بها عنه التكليف.

٢٠- شرف مكة وفضلها؛ لأن الله أضافها إلى ربوبيته الخاصة وحرمها.

٢١- أن الذي حرم مكة هو الله عز وجل فقوله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة**»[1] أي: حرمها بتحريم الله، أي: أظهر وأبان تحريمها.

٢٢- أن لله عز وجل كل شيء، فهو خالق كل شيء، ومالكه، والمتصرف فيه وربه ربوبيته عامة.

٢٣- أن مهمته ﷺ في الدعوة: هي تلاوة القرآن على الناس، وتبليغهم رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾.

٢٤- أن من اهتدى بهداية القرآن فإنما ثمرة هدايته لنفسه، ومن ضل فإنما ضلاله على نفسه؛ لمنطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

٢٥- وجوب تلاوة القرآن واتباعه والعمل به.

٢٦- أنه ﷺ- مع تفضيله على جميع الرسل- هو منذر كغيره من المنذرين، وليس

---

(١) سبق تخريجه.

إليه هداية الناس إلى الحق، وعصمتهم من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

٢٧- الحث على حمد الله تعالى، والاعتراف باطنًا وظاهرًا بأن له وحده الحمد المطلق، والوصف التام؛ لتمام ربوبيته ووحدانيته، ووضوح سبيله، وكمال عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

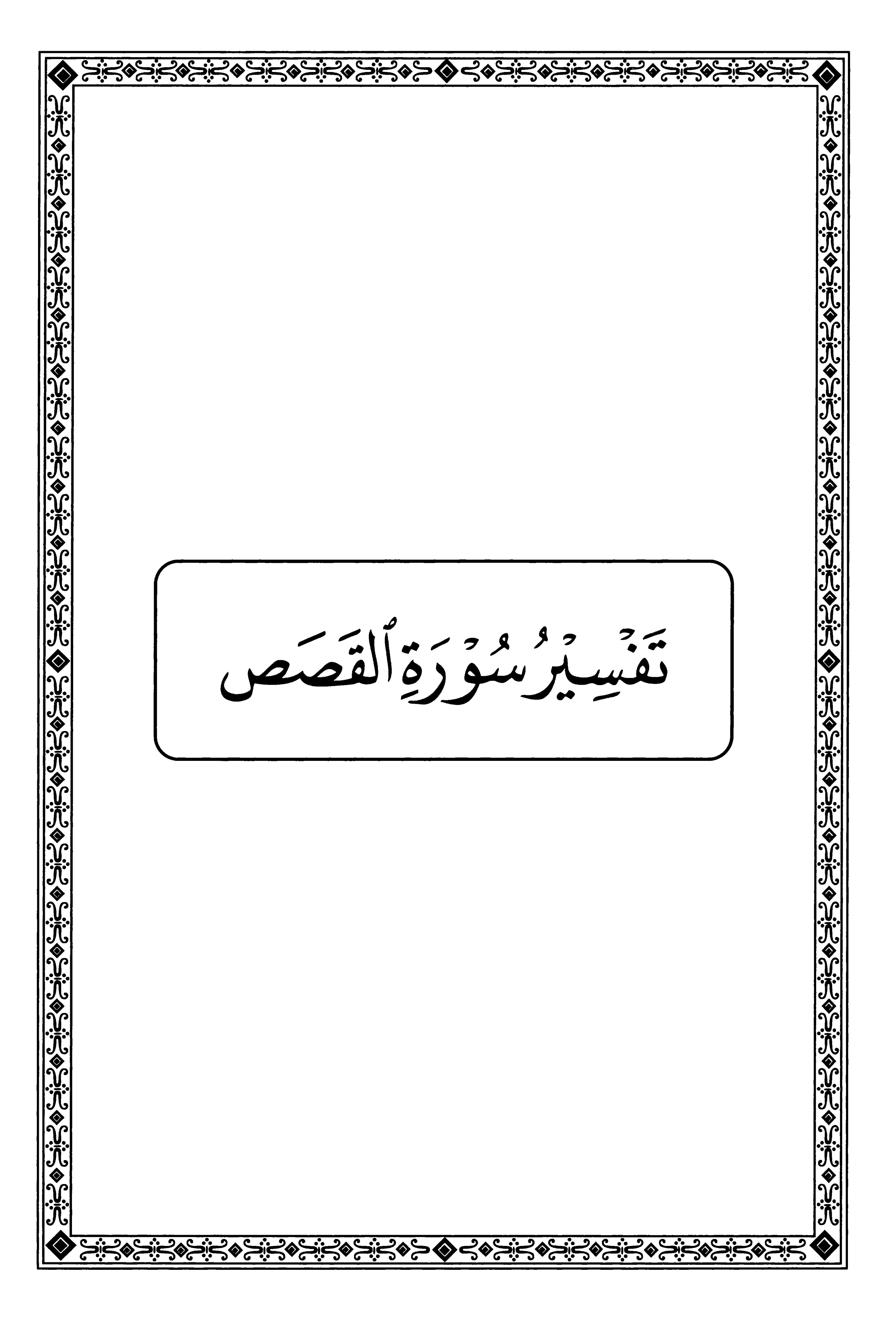
٢٨- بيانه عز وجل وإظهاره آياته الشرعية والكونية، وإقامته الحجة على الخلق؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، فيعرفها المؤمن في الدنيا، ويعرفها غيره في الآخرة حين لا ينفعه ذلك.

٢٩- أن الله عز وجل رقيب على الخلائق، شهيد على أعمالهم، ليس بغافل عنها، بل يحصيها عليهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

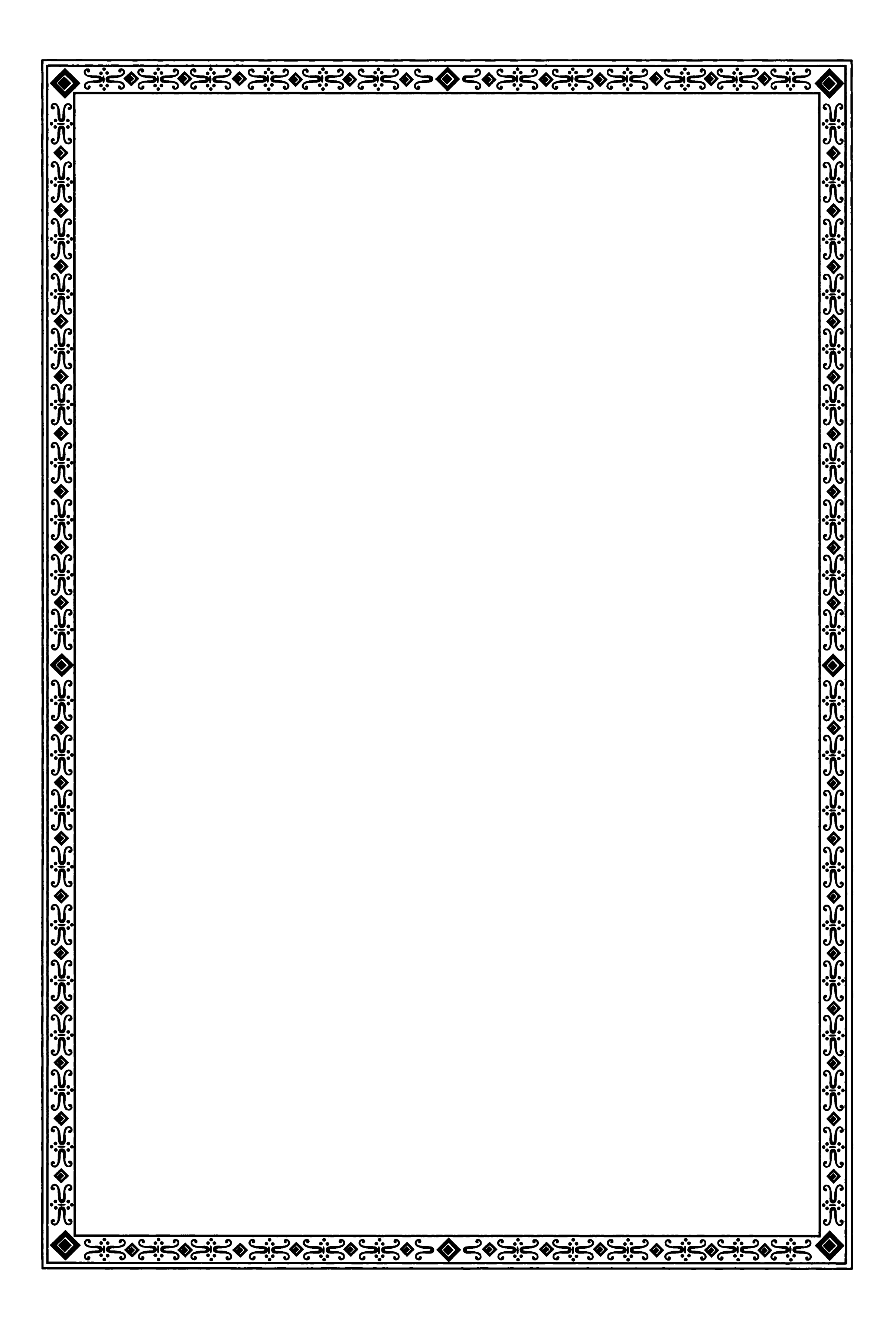
٣٠- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والحذر من التفريط والغفلة.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

* * *



تَفۡسِيرُ سُورَةِ ٱلۡقَصَص



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة القصص» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية: ٢٥].

والمراد بالقصص: ما قصه موسى عليه السلام على صاحب مدين مما لقيه عليه السلام في مصر قبل خروجه منها.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ كسورة الشعراء، تعظيمًا للقرآن العظيم وبيانًا لإعجازه؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

٢- تحدثت عن قصة موسى مبسوطة، فذكرت ما جرى له، ولأمه، ولبني إسرائيل من أذى فرعون وجنوده، وما حصل منه من قتل الرجل القبطي، ومن الخوف، وخروجه من مصر، بعد نصح الرجل الذي جاء يسعى له بالخروج منها، وتوجهه صوب مدين، وما جرى له هناك إلى أن قضى الأجل الذي كان بينه وبين صاحب مدين وسار بأهله، ونداء الله تعالى له: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وإيتائه العصا واليد، برهانان من ربه إلى فرعون وملائه، وطلبه عليه السلام شد عضده بأخيه هارون، واستجابة الله تعالى له.

وتكذيب فرعون وملئه له، وزعمهم أن ما جاء به من الآيات ما هو إلا سحر مفتري، وتمادي فرعون بالطغيان وزعمه أنه لا إله غيره، واستكباره هو وجنوده. وأخذهم وإهلاكهم في أليم، وجعلهم يوم القيامة من المقبوحين.

٣- ذكر إيتائه عز وجل موسى عليه السلام التوراة بعد إهلاك القرون الأولى، بصائر للناس وهدى لعلهم يتذكرون.

٤- بيان أن ما جاء من ذكر خبر موسى عليه السلام وما جرى له، وإرساله، ونداء الله له ليس لكونه ﷺ شاهداً ذلك، ولكن بوحي الله تعالى إليه ﷺ وإرساله رحمة من الله

عز وجل له ﷺ وللأمة؛ لينذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يتذكرون، ولإقامة الحجة عليهم وقطع عذرهم إذا جاءهم العذاب، فلا يحتجوا أنه ما جاءهم رسول.

٥- تكذيب المشركين للرسول ﷺ، ولما جاءهم به من الآيات، واتباعهم أهواءهم بغير هدى من الله، وضلالهم مع بيان القول لهم وتفصيله لعلهم يتذكرون.

٦- إيمان أهل الكتاب المنصفين بالقرآن، وأنه الحق من ربهم، ووعد الله لهم بإيتائهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم، ودرئهم بالحسنة السيئة، وإنفاقهم مما رزقهم الله، وإعراضهم عن اللغو، وعن الجاهلين.

٧- اختصاص الله عز وجل بهداية التوفيق لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

٨- زعم المشركين الباطل أنهم إن اتبعوا الهدى مع الرسول ﷺ تخطفوا من أرضهم، وتذكيرهم بمنته عز وجل عليهم بتمكينه لهم حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء، وتذكيرهم بكثرة القرى التي أهلكها الله لما بطرت معيشتها، وأنه ما كان مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياته، وأنه ما كان مهلك القرى إلا وأهلها ظالمون. وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

٩- بيان أن ما أوتي العباد من شيء، فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى، وأنه شتان بين من وعده الله وعداً حسناً فهو لاقيه حقًا وحتمًا، وبين من متعه الله متاع الحياة الدنيا فعاش فيها كالبهيمة ثم هو يوم القيامة من المحضرين في العذاب.

١٠- فضح المشركين وتقريعهم يوم القيامة، وبراءتهم وشركاؤهم بعضهم من بعض ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾.

١١- تقريعهم بندائهم ماذا أجبتم المرسلين؟ وعمى الأخبار عليهم فهم لا يتساءلون.

١٢- البشارة بالفلاح لمن آمن وعمل صالحًا ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ

أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾.

١٣- بيان أن له عز وجل كامل الملك والخلق والتدبير يخلق ما يشاء ويختار، ويعلم ما تكن صدور الخلائق وما يعلنون، لا معبود بحق إلا هو، له الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

١٤- الامتنان على العباد برحمته لهم بإيجاد الليل وقتًا للسكن، والنهار وقتًا للعمل، فلا إله غير الله يقدر على الإتيان بذلك، مما يوجب شكره وعبادته وحده.

١٥- إخراجه عز وجل من كل أمة شهيداً يشهد عليهم وهو رسولهم، وإفحام المشركين بالإتيان ببرهانهم على صحة ما ادعوه من الشركاء لله وعلمهم آنذاك أن الحق لله، وغياب ما كانوا يفترون.

١٦- ذكر قصة قارون وبغيه على قوم موسى، وما آتاه الله من الكنوز العظيمة، وفرحه وبطره واختياله، ونهي قومه له عن ذلك، وأمرهم له أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ويحسن كما أحسن الله إليه ولا يبغ الفساد في الأرض، لأن الله لا يحب المفسدين.

وتماديه بالكفر والبغي والطغيان وكفره نعمة الله عليه ونسبته ما أعطاه الله إلى علم عنده. وتهديده بأن الله قد أهلك قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا.

١٧- خروجه على قومه في زينته بطراً وخيلاء، وتمني الذين يريدون الحياة الدنيا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، واستعظامهم حظه جهلاً منهم، ورد الذين أوتوا العلم عليهم بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾.

١٨- عقوبة الله تعالى له بخسف الأرض به وبداره، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين بنفسه، وإقرار الذين تمنوا مكانه بالأمس أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه لولا لطف الله بهم لخسف بهم مثله، وأنه لا يفلح الكافرون.

١٩- تعظيم الدار الآخرة وما فيها من النعيم، وأن الله جعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

٢٠- بيان عظيم فضل الله تعالى، وتمام عدله، فمن جاء بالحسنة فله خير منها؛ فضلاً من الله عز وجل، ومن جاء بالسيئة جوزي بمثلها؛ عدلاً منه عز وجل.

٢١- إثبات المعاد والبعث والحساب والجزاء، وإثبات علمه عز وجل بمن جاء بالهدى ودعا إليه وهو هو ﷺ، ومن كان في ضلال مبين وهم المشركون المكذبون له.

٢٢- الامتنان عليه ﷺ بالرسالة، وبيان أنه ﷺ ما كان يرجو ويؤمل أن يلقى إليه القرآن ويوحى إليه ويكلف بالرسالة إلا رحمة من ربه عز وجل له وللأمة.

٢٣- نهيه ﷺ أن يكون ظهيراً للكافرين، وأن يصدوه عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليه، وأمره بالدعوة إلى ربه وتحذيره من الشرك وأهله، وهو نهي وأمر وتحذير له ولأمته.

٢٤- تقرير أن كل شيء هالك فان إلا وجهه عز وجل، له الحكم وحده، وإليه مرجع الخلائق وعليه حسابهم.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

قوله: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾: سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾: سبق الكلام على هذه الآية في أول سورة يوسف، أي: تلك آيات القرآن العظيم، البين الواضح، المبين للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولحقائق الأمور، ولكل ما يحتاج إليه العباد في طريقهم إلى الله تعالى.

وأشار إلى آيات القرآن الكريم بإشارة البعيد: «تلك» تعظيمًا لها.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾، أي: نقرأ ونقص عليك يا محمد، ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾، أي: بعض نبأ موسى وفرعون، أي: خبرهما. والنبأ: الخبر العظيم المهم.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الباء: للملابسة، أي: بالحق الثابت والخبر الصادق؛ كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣]، أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهده، وكأنك حاضر.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: اللام: للتعليل، أي: لأجل قوم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون بالقرآن بقلوبهم، وينقادون له بجوارحهم، ويصدقون أخباره الثابتة، ويعملون بأحكامه العادلة.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تكبر وتجبر وطغى في الأرض، فادعى الربوبية والألوهية، وآذى عباد الله.

والمراد بالأرض: أرض مصر، وأرض مملكته.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي: وجعل أهل أرض مملكته طوائف متفرقة؛ ليضرب بعضهم ببعض؛ ليتم له ما يريد.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، أي: يذل ويقهر طائفة وجماعة منهم، وهم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على عالمي زمانهم، فكان يحتقرهم ويستغلهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ بدل من قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، أي: يذبح أبناءهم، وهم الذكور من المواليد؛ لأجل إذلالهم بالقضاء على الرجال أو خوفًا أن يوجد غلام منهم يكون سبب هلاكه، وذهاب دولته على يديه.

﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾، أي: يستبقيهن فلا يقتلهن؛ ليعملن في الخدمة وفي الأعمال الحقيرة والوضيعة والشاقة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: من المفسدين في الأرض، بتجبره وتكبره، وجعل أهل مملكته شيعًا، واستضعافه طائفة منهم يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نريد»، أي: ونريد المن على الذين استضعفوا.

أي: ونريد أن ننعم ونتفضل على الذين استضعفهم فرعون في الأرض- وهم بنو إسرائيل- فنقويهم ونخرجهم من قبضته وحكمه.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾، أي: نصيِّرهم أئمة في الدين والدعوة إلى الله وقدوة في الخير في أهل زمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ للأرض بعد فرعون وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: نثبت سلطانهم في الأرض ونقويهم، والمراد: أرض مصر والشام.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء وفتحها، وإمالة فتحة الراء بعدها، ورفع الأسماء الثلاثة: «وَيَرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا»، وقرأ الباقون بالنون، وضمها وكسر الراء، وفتح الياء، ونصب الأسماء الثلاثة: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾.

وقوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾؛ معطوف على «نريد»، أي: ونريد أن نري فرعون، ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾؛ وهو وزير فرعون، ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾، أي: من هؤلاء المستضعفين، بني إسرائيل.

﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي كانوا يحذرونه منهم؛ وهو ذهاب ملكهم على أيديهم، بل على يد رجل منهم؛ وهو موسى عليه السلام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾.

٢- تعظيم القرآن العظيم وآياته؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣- وضوح آيات القرآن الكريم، وبيانه للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولكل ما يحتاج إليه العباد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- أهمية قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وما فيها من العبر و العظات، مما لا يوجد في كثير من قصص الأنبياء عليهم السلام؛ لهذا تلاها عز وجل على نبيه محمد ﷺ، وكرر ذكرها في القرآن أكثر من غيرها من قصص الأنبياء.

٥- أن الحكمة من تلاوة نبأ موسى وفرعون وقصصه على النبي ﷺ؛ لأجل المؤمنين الذين يصدقون أخبار القرآن، ويعملون بأحكامه، ويتعظون به؛ لقوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

٦- أن ما أخبر الله به في القرآن الكريم من الأخبار حق ثابت، وصدق لا شك فيه؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

[الأنعام: ١١٥].

٧- أنه إنما ينتفع بالوحي وبما جاء به الرسل المؤمنون فقط؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو منزل هداية لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٨٥].

٨- علو فرعون في الأرض وتجبره وتكبره وطغيانه، فادعى الربوبية والإلهية، وآذى العباد، وخرب البلاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٩- اتباعه سياسة «فرِّقْ تَسُدْ»، بجعله أهل مملكته شيعًا وطوائف وأحزابًا؛ ليضرب بعضهم ببعض، ويتم له ما يريد؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾، وهذه سياسة الطغاة والمجرمين في كل عصر ومصر.

١٠- استضعافه بني إسرائيل، وإذلاله إياهم، واحتقاره لهم، وتسخيره إياهم بأخس الأعمال وأشقها، وتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم للخدمة والأعمال الوضيعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾.

١١- إفساده في الأرض غاية الإفساد بما ذكر وبغير ذلك من أوجه الفساد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

١٢- إثبات الإرادة الكونية والشرعية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية.

١٣- إثبات الجعل الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

١٤- قدرة الله تعالى التامة، ونعمته العظيمة على بني إسرائيل؛ بتقويتهم بعد الاستضعاف في الأرض، وجعلهم أئمة في الدين والدعوة، وتوريثهم الأرض وتمكينهم فيها وإظهارهم، وإهلاك فرعون وهامان وجنودهما، وزوال ملكهم على يد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾.

١٥- أنه بالاستقامة على أمر الله تعالى والصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ووراثة

الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة: ٢٤]، قال ابن تيمية: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

١٦- أنه لا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

١٧- انتقام الله تعالى من الظالم، ونصره للمظلوم ولو بعد حين، وأن العاقبة للمتقين.

١٨- أن الأمة المستضعفة مهما بلغت من الضعف وتسلط العدو عليها ظلمًا، لا ينبغي أن يستولي عليها اليأس من استعادة حقها، وتمكين الله تعالى لها؛ فالأيام دول.

١٩- أن الأمة الذليلة المغلوبة على أمرها، التي لا تأخذ حقها ولا تطالب به؛ لا يقوم لها أمر دينها، ولا يكون لها إمامة فيه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، أي: ألهمناها ونفثنا في روعها، وقيل: أوحينا إليها في المنام.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ تفسير لقوله: «أوحينا»، ويجوز أن تكون «أن»: مصدرية، والمصدر المؤول: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ في محل جر بباء محذوفة، أي: بأن أرضعيه.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ من أن يعلم به فرعون وجنوده، الذين يتتبعون المواليد من الأبناء، حيث كان يقتل الغلمان عامًا، ويتركهم عامًا.

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، أي: في النهر، والمراد: نهر النيل، الذي كانت أم موسى ساكنة على ضفافه.

﴿وَلَا تَخَافِي﴾؛ عليه من الغرق أو غير ذلك، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾؛ على فقده وفراقه،

بل اطمئني وثقي بحفظنا له.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، أي: مرجعوه إليك سالمًا من كيد فرعون، ومن كل شر

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: جاعلوه في عداد المرسلين، أي: سيكبر ويجعله الله رسولًا.

فبشرها ببشارتين: رده إليها سالمًا، وتشريفه بجعله رسولًا، ولا بشارة تفوق هذه البشارة.

وفي تقديم هذه البشارة طمأنة لقلبها، وتسكين لروعها؛ ولهذا خافت عليه ووضعته في تابوت مغلق، وألقته في النهر؛ تسليمًا لأمر الله تعالى، وثقة بحفظه لها.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: التقطوه من النهر، حيث حمله النهر إلى قريب من دارهم، فأخذوه لقيطاً واللقيط: هو الطفل المنبوذ؛ ولهذا قال: فالتقطه آل فرعون، ولم يقل: فأخذه.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وإسكان الزاي: «وَحُزْنًا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَحَزَنًا﴾.

واللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾: للتعليل؛ لأن الله قيضهم لالتقاطه؛ ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، وفي شدة حسرتهم؛ إذ كيف يلتقطونه لأجل أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، أي: يُظهر العداوة لهم، ويُحزنهم بهلاكهم وزوال ملكهم على يديه؟!

وقيل: اللام: لام العاقبة؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، وإنما كانت عاقبة التقاطهم له أن كان لهم عدوًّا وحزنًا.

قال ابن القيم في تأييد القول الأول:

«فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنا، وذكَرَ فعلهم دون قضائه؛ لأنه أبلغ في كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم؛ فإن من اختار أخذ ما يكون

هلاكه على يديه إذا أصيب به، كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته.. فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه، وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فَذِكْر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يُذكر القضاء والقدر»[١].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، أي: متعمدين لارتكاب الخطايا والآثام، والإفساد في الأرض بالمكر والإجرام.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ولما هم فرعون بقتل موسى، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وهي: آسية بنت مزاحم، المؤمنة الفاضلة الجليلة، التي اختارت الجار قبل الدار؛ فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

وفي الحديث: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**»[٢].

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾، أي: هذا الطفل قرة عين لي ولك، أي: سبب قرة عين لي ولك، تحصل به المسرة لنا في حياتنا، وتقر به أعيننا، ونسعد به.

وذلك أنها لما رأته أعجبها، وأوقع الله محبته في قلبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩].

وذلك من توفيق الله تعالى له ولها، وسعادتها، وشقاوة زوجها؛ ولهذا صار قرة عين لها كما قالت، ورفعة لها في الدنيا والآخرة، وصار عدوًا وحزنًا لفرعون وقومه.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: أبقوه، ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾؛ الجملة موضع التعليل لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: عسى أن ينفعنا بخدمته لنا أو غير ذلك.

وقد نفعها الله به أعظم نفع؛ حيث كان سببًا لإيمانها، وذلك لحسن نيتها وقولها

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤١١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الحق، ولزومها العدل، وعطفها ورحمتها.

﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، أي: أو نجعله ولدًا لنا بالتبني ونكرمه، وذلك أنها- فيما ذكر- ليس لها ولد منه.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه، أي: وهم لا يدرون ولا يعلمون خفي إرادة الله تعالى، وما له من الحكمة البالغة في جعلهم يلتقطونه، ويتربى على أيديهم؛ ليكون هلاكهم وزوال ملكهم على يديه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١ ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣﴾.

قوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، أي: صار قلبها ولبُّها حين ذهب النهر بولدها ﴿فَٰرِغًاۖ﴾، أي: خاليًا من كل شيء إلا من هم موسى، وكيف يكون مصيره؟.

وقيل: خاليًا من العقل، أي: قد طار عقلها من شدة قلقها عليه.

﴿إِن كَادَتۡ﴾، أي: قاربت وأوشكت من شدة وجدها وحزنها وقلقها، ﴿لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾، أي: لتظهر ما في فؤادها، وتبوح بسرها، وتخبر أنه ذهب ولدها، وتخبر بحالها.

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾؛ «لولا»: حرف شرط غير جازم، أي: لولا أن ثبتناها، وقوينا قلبها، وألهمناها الصبر.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكون من المؤمنين الإيمان الكامل، بصبرها وثباتها، وتصديقها بوعد الله لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾؛ وقالت أم موسى لأخته: ﴿قُصِّيهِۖ﴾، أي: تتبعي

أثره، وابحثي عنه، وخذي خبره، وتطلبيه سرًّا.

﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾، أي: فخرجت تقص أثره، وتتبع خبره، ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾، الفاء: للترتيب والتعقيب؛ أي: أنها ما ذهبت بعيدًا حتى رأته.

ومعنى ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾ أي: أبصرته عن بعد، ونظرت إليه خلسة ومسارقة وهي مارة، وكأنها لا تريده، مبالغة في التخفي، حتى لا يعرفوا علاقتها به، ومعرفتها بمن ألقاه بالنهر، فربما قتلوه عقوبة لهم.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: لا يدرون ولا يعلمون بأنها أخته، وأنها ترقبه عن بُعد؛ لأنه لم يظهر منها ما يشعر بصلتها به لذكائها.

﴿۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾، أي: وحرمنا عليه المراضع تحريمًا كونيًّا قدريًّا.

﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: في قدر الله السابق، أو من قبل رده إلى أمه، بأن منعناه قدَرًا من قبول ثُدِيِّ النساء كلهن فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة له؛ كرامة له، وليكون ذلك سببًا لرجوعه إلى أمه؛ لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة.

﴿فَقَالَتۡ﴾، أي: فقالت أخته لما رأت حُنُوَّهم عليه، ورأتهم حائرين فيمن يرضعه:

﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾، أي: يتعهدون لكم بإرضاعه وحضانته، ويقومون بذلك أتم قيام، ولم تقل على أهله حتى لا يفتضح أمرها، ونكَّرت: ﴿بَيۡتٖ﴾ حتى لا يعرفوها مع أنها أخت موسى، وصاحبة البيت هي أمه.

﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ في القيام عليه وحفظه ورعايته، والعناية به، فجاؤوا به إلى أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، فأكرموها وجعلوا لها أجرًا ونفقة، مقابل إرضاعها إياه، وتربيتها له، وقيامها عليه؛ ولهذا قال:

﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، أي: فأرجعناه إلى أمه؛ كما وعدناها بذلك؛ ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾، أي: لكي تقر عينها به وتسعد، ولا تحزن عليه وعلى فقده.

قال ابن كثير[1]: «ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة، أو نحوه،

---

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٣٤.

والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر! ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل همٍّ فرجًا، وبعد كل ضيق مخرجًا».

﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، والمصدر المؤول: ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ في محل نصب سد مسد مفعولي «تعلم».

أي: ولتعلم أن وعده الله برده إليها حق، أي: صدق، وأمر محقق واقع وثابت حق اليقين، بل عين اليقين، ويعقبه بعد كبره تحقق وعده بإرساله.

فجمع الله لها- بسبب قوة إيمانها وصبرها وتصديقها بوعد الله تعالى- بين رجوع ولدها إليها، وإرضاعها إياه، وحضانته في بيتها وهي آمنة مطمئنة، وبين الأجر والنفقة التي أَجْروها لها مقابل ذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير؛ كمثل أم موسى: ترضع ولدها، وتأخذ أجرها**»(١).

وهذا لعمر الله هو الموفق: صاد عصفورين بحجر واحد.

وفرق بين هذا وبين كثير من العاملين في أعمال الأمة من الموظفين كبيرهم وصغيرهم، ومن القضاة والمدرسين، وأئمة المساجد والمؤذنين، وغيرهم، ممن لا يخطر الاحتساب لهم على بال، نظرتهم مادية فقط، ونظرهم لا يتجاوز أقدامهم، حالهم كمن يسوق الإبل أو البقر أو غيرها من السواني بلا ماء، أو كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول(٢)

فهذا والله الغبن، والخسارة التي لا تشبهها خسارة؛ أن يظل الإنسان يكدح في العمل أكثر عمره دون أن يستحضر أن هذا العمل من دينه، فيحتسب في ذلك، ويحمد الله على ذلك، فيعطى أجره مرتين: أجر من الله تعالى على احتسابه وخدمته في مصالح الأمة، مع الأجر الذي يتقاضاه من بيت مال المسلمين، أو ممن استأجره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم حقًّا، وهو العلم بالله عز

---

(١) أخرجه أبو داود في «مراسيله»، والبيهقي في «سننه» عن جبير بن نفير مرسلًا. انظر: «الجامع الصغير» الحديث ٨١٤٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٤.

(٢) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» (ص١٢٦٨).

وجل، وما يجب له؛ كما أنهم لا يعلمون ما لله عز وجل من الحكم العظيمة في جعل كثير من النعم والمنن الجسيمة، والعواقب الحميدة في طي بعض المحن؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

الفوائد والأحكام:

١- عناية الله تعالى بموسى وأمه منذ كان وليدًا، وحفظه له، وإلهامها بإرضاعه، ووضعه في النهر إذا خافت عليه، وأنه عز وجل إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، وأتى بها شيئًا فشيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ الآية.

٢- لطف الله تعالى بأم موسى، وطمأنته لها بألا تخاف ولا تحزن على وليدها إذا ألقته في البحر، وبشارته لها برده إليها، وتشريفه بالرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٣- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان؛ كما جرى لأم موسى، وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٤- قوة إيمان أم موسى وامتثالها لأمر الله، حيث أرضعت وليدها وألقته في البحر لما خافت عليه ثقة بوعد الله تعالى بحفظه.

٥- تقدير الله تعالى بحكمته لموسى أن يلتقطه آل فرعون ويأخذوه من النهر إلى دارهم؛ لأجل أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، بهلاكهم وزوال ملكهم على يديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾.

٦- عظم آيات الله ودلائل قدرته العجيبة أن تكون نجاة موسى عليه السلام بإلقائه في البحر مورد الهلاك، وأن تكون تربيته في حضن عدوه فرعون.

٧- أنه لا ينجي حذر من قدر، وأن الحذِرَ قد يؤتى من مأمنه؛ ففرعون يقتل أبناء بني إسرائيل حذرًا من مولود منهم يكون هلاكه وزوال ملكه على يديه، ويشاء الله

تعالى ويريد بحكمته البالغة أن يتربى هذا المولود على يديه.

٨- تعمد فرعون وهامان وجنودهما فعل الخطايا والآثام، والإفساد في الأرض بالمكر والإجرام، واستحقاقهم بذلك المكر بهم، وأخذهم بأنواع العقوبات والانتقام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾.

٩- تسخير الله تعالى لموسى امرأة فرعون؛ بإلقاء محبته في قلبها، وعطفها عليه، ورحمتها له، وتوسلها إلى فرعون بكون هذا الوليد قرة عين لهما، ونهيها لهم عن أن يقتلوه، رجاء أن ينفعهم أو يجعلوه لهم ولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

١٠- أن فرعون وأعوانه قد هموا بقتل موسى عليه السلام بدليل قول امرأته: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

١١- عدم إدراك فرعون وآله ما وراء التقاط هذا الوليد وتربيته على أيديهم؛ مما هو مخبوء لهم في طي القدر على يد هذا الوليد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

١٢- فراغ قلب أم موسى لما ذهب النهر بولدها من كل شيء إلا من ذكره، وذهاب عقلها ولبها من شدة قلقها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ﴾.

١٣- تثبيت الله تعالى لأم موسى، وربطه على قلبها بعد أن كادت أن تفصح عن حالها، وتبوح بسرها، وتخبر بأن وليدها ذهب في النهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ وهذا من أعظم نعم الله على العبد؛ أن يثبته ويربط على قلبه في المواقف المذهلة.

١٤- إثبات القضاء والقدر؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

١٥- أن الصبر والثبات في الشدائد من أعظم دلائل الإيمان، والتصديق بوعد الله تعالى العاجل والآجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- أن الإيمان يزيد وينقص، ومن أعظم ما يزيد الإيمان الصبر عند الشدائد، والتثبيت من الله على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليزداد

إيمانها ويطمئن قلبها.

١٧- إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٨- أمر أم موسى- شفقة منها عليه- لأخته بقص أثره وتتبعه؛ لعلها أن تجده، وتعرف خبره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾؛ وهذا من فعل الأسباب، ولا ينافي إيمانها بوعد الله لها برده إليها.

١٩- تتبع أخته لأثره، وسعيها في طلبه حتى بصرت به عن جنب، أي: وهي مارة حول بيت فرعون، من غير أن يعلموا بها، ولا بقصدها، ولا بكونها بصرت به، مبالغة منها في التخفي؛ حتى لا يعلموا بعلاقتها به فتكون تحت طائلة المساءلة عن خبره؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٠- جواز خروج المرأة في حوائجها بلا محذور.

٢١- حكمة الله تعالى في تقديره كونًا عدم قبول موسى ثُدِيَّ النساء؛ ليكون ذلك سببًا لرجوعه إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

٢٢- انتهاز أخته فرصة عدم قبوله ثُدِيِّ النساء؛ لتدلهم على أهل بيت يكفلونه، ويتعهدون لهم بإرضاعه وتربيته، وهم له ناصحون؛ لكي يرجع إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

٢٣- أنه لا أفضل ولا أنفع للمولود من رضاعة أمه، ولا أحسن رعاية له، وعناية به، ولا أنصح له من أمه؛ لقول أخت موسى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

٢٤- جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

٢٥- إرجاع موسى إلى أمه- كما وعدها الله عز وجل بذلك- لكي تقر عينها به وترضعه مطمئنة، وترعاه، ولا تحزن لفقده أو بعده عنها، ولتعلم أن وعد الله برده إليها حق، ويزداد إيمانها؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل يبتلي العبد ببعض المشاق من الحزن الشديد، والهم البليغ،

وأسباب ذلك وغيره؛ ليوصله بالصبر على ذلك إلى ما هو خير له في دينه ودنياه وأخراه؛ كما حصل لأم موسى عليه السلام.

٢٧- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم حقًّا؛ وهو العلم بالله تعالى وما يجب له؛ كما لا يعلمون ما لله عز وجل من الحكم العظيمة في جعل كثير من النعم والمنن والمنح الجسيمة في طي بعض المحن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، أي: ولما كبر موسى وبلغ أشده، أي: اشتدت وتكاملت قواه البدنية والجسمية، وبلوغ الأشد، ببلوغ ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: قريبًا من الأربعين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، أي: تكاملت قواه العقلية والفكرية.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، أي: أعطيناه حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ الواو: اعتراضية، والكاف للتشبيه، أي: ومثل هذا الجزاء بإيتاء الحكم والعلم نجزي المحسنين، أمثال موسى عليه السلام، الذين يحسنون في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾، أي: ودخل موسى المدينة، أي: مدينة من مدن مصر يسكنها أقباط وإسرائيليون.

﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، أي: في وقت غفلة من أهلها، إما وقت القيلولة، أو غير ذلك من الأوقات التي يغفل فيها الناس عن الانتشار.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾، أي: في هذه المدينة، ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أي: يتضاربان ويتصارعان ويتنازعان.

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، أي: أحدهما من شيعة موسى وقومه، أي: من بني إسرائيل، والآخر من عدوه، أي: من القبط قوم فرعون أعداء بني إسرائيل.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾، أي: طلب منه الغوث والعون، ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ الإسرائيلي.

﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، أي: على القبطي.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: فوكز موسى القبطي، أي: ضربه بجُمْع كفه.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: فأماته بتلك الوكزة؛ لشدتها؛ لقوة موسى عليه السلام.

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: ندم موسى على فعله، وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ الإشارة ترجع إلى ما حصل منه من وكز القبطي والقضاء عليه، وما لابس ذلك من الغضب، أي: هذا كله من تزيين الشيطان وتسويله ووسوسته.

وفي هذا دلالة على أنه إنما حمله الغضب على فعله، وأنه لم يقصد القتل.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لكون ما فعله من عمل الشيطان، أي: لأن الشيطان عدو لبني آدم ﴿مُّضِلٌّ﴾؛ ساعٍ جهده في إضلالهم ما استطاع ذلك.

كما قال أعاذنا الله منه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧]، وقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

﴿مُّبِينٌ﴾، أي: مبين عداوته لبني آدم ومظهرها، ومبين سعيه في إضلالهم وإهلاكهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى معترفًا بذنبه، مقرًّا بخطئه، نادمًا على فعله، تائبًا إلى ربه:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: يا رب، إني ظلمت نفسي بهذا الفعل، ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾، أي: فتجاوز عني واستر علي.

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾؛ الفاء: تفيد التعقيب. فاستجاب الله دعوته، فغفر له، وتجاوز عنه، وستر عليه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾، أي: لأنه عز وجل هو الغفور الرحيم، و«الغفور»: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، و«الرحيم»: ذو الرحمة الواسعة لكل شيء، العامة لكل حي، والرحمة الخاصة بأوليائه من رسله، وعباده المؤمنين.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾، أي: قال موسى عليه السلام اعترافًا بنعم الله تعالى عليه، وشكرًا لمننه وأفضاله إليه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: يا رب، بالذي أنعمت به عليّ، أو بإنعامك عليّ بالمغفرة وغير ذلك.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلن أكون نصيرًا ومعينًا للمجرمين المخالفين لأمرك.

وهذا وعد من موسى عليه السلام، وشكر منه لربه، بسبب منة الله تعالى وإنعامه عليه بالمغفرة وغير ذلك: ألا يعين مجرمًا؛ كما فعل في قتل القبطي.

ويحتمل كونه دعاء من موسى وسؤال منه لربه بعد أن غفر له ألا يكون بعد هذا ظهيرًا للمجرمين، أي: لا تجعلني بعد هذا ظهيرًا لهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾، أي: فصار في المدينة بعد قتله القبطي، أو دخل في صباح ليلته بعد أن قتل القبطي ﴿خَآئِفًا﴾؛ خبر أصبح، أي: خائفًا من مغبة ما فعل، وأن يقتاد بدم القبطي الذي قتله.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ خبر ثانٍ لـ«أصبح»، أي: ينتظر ما يناله بسبب القتيل، ويتوقع أن يؤخذ بذلك في أيِّ لحظة.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«إذا»: للمفاجأة، أي: فإذا الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس واستنصره على القبطي الذي قتله.

﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾، أي: يستنصره اليوم، ويستغيثه مرة أخرى على قبطي آخر، والاستصراخ: المبالغة في الصراخ؛ لطلب الإنقاذ من الشدة.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾، أي: قال موسى للإسرائيلي المستغيث بالأمس، والمستصرخ اليوم، موبخًا له وزاجرًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«غوي»، أي: شديد الغواية، ضال، بعيد عن الرشد، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بين الغواية؛ لما فعلته بالأمس واليوم، تورط نفسك بمشاكسة من لا تطيقه، ثم تروم الغوث مني يومًا بعد يوم.

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، «أن» في قوله: ﴿أَنۡ أَرَادَ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: فحين أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدو لهما، أي: بالقبطي، عدوه وعدو الإسرائيلي.

و«أن» والفعل «يبطش» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أراد»، أي: فلما أراد البطش بالذي هو عدو لهما، أي: أراد ضربه بشدة وعنف، والبطش: الأخذ بقوة.

﴿قَالَ﴾ القبطي زاجرًا لموسى عن قتله، ومنكِرًا عليه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِى كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَتُرِيدُ﴾ للإنكار، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«تريد»، أي: أتريد قتلي؟! والكاف: للتشبيه، و«ما»: مصدرية، أي: مثل قتلك نفسًا بالأمس. يريد: القبطي الأول.

وقد استنتج القبطي الثاني هذا من قول موسى للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فعرف أن موسى هو القاتل للقبطي بالأمس، ومن ثم سعى إلى فرعون وأخبره بذلك.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما تريد إلا أن تكون ﴿جَبَّارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ بالقتل والبطش ونحو ذلك، والجبار: المتعالي المترفع على غيره.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ «أن» والفعل «تكون» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«تريد»، أي: وما تريد الإصلاح، أي: وإلا لو أردت أن تكون من المصلحين لأصلحت بيني وبين هذا الرجل من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره.

وذهب ابن كثير إلى أن الذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ هو الإسرائيلي، وذلك أنه لما عزم موسى على البطش بالقبطي اعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه أن موسى يريده؛ لقوله له قبل هذا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ فبادر بقوله دفاعًا عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ الآية.

قال ابن كثير(١): «فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون، فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه وبعثوا وراءه؛ ليحضروه لذلك».

والراجح الذي يدل عليه سياق الآيات ومعناها هو القول الأول.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: من آخرها، وأبعد مكان فيها.

﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع ركضًا على قدميه من فرط عطفه على موسى، ونصحه له، وخوفه عليه.

وقدم هنا «رجل» فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾، بينما أخره في سورة يس فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [الآية: ٢٠] والحكمة- الله أعلم- أنه في هذه السورة قدمه اهتمامًا بالخبر الذي جاء به فقدم ذكره على ذكر المكان.

وفي سورة يس قدم قوله: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ اهتمامًا بكون هذا الرجل بعيدًا عن الرسل، وما جاء إلا ليؤكد صحة ما جاؤوا به قبله.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾، أي: فرعون وملأه. وفي ندائه لموسى باسمه دلالة على أن له به معرفة.

﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، أي: يتشاورون فيك، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾: اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقتلوك، أي: لأجل قتلك، ﴿فَٱخْرُجْ﴾: عن المدينة، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: تعليل لمجيئه إليه، وإخباره بائتمار الملأ لقتله، ولأمره له بالخروج، أي: إني لك من المخلصين بالنصح.

الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى على موسى لما بلغ أشده واستوى بإيتائه الحكم والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٢- ثناء الله عز وجل على موسى بوصف الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣- مجازاة الله تعالى المحسنين بالإحسان إليهم، والترغيب في الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٤- ابتلاء موسى بوكز القبطي الذي من عدوه؛ انتصارًا للإسرائيلي الذي من شيعته، والقضاء عليه، بسبب تسويل الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وفي هذا دلالة على أنه عليه السلام إنما حمله على فعله الغضب، وأنه لم يقصد القتل، وهذا قبل بعثته.

٥- جواز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، دون ما لا يقدر عليه، مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٦- إثبات الولاء والبراء في الدين، والولاية والعداوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

٧- قوة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

٨- حكمة الله تعالى في إجراء الأسباب من دخول موسى المدينة وقتله القبطي؛ ليكون ذلك سببًا لخروجه، ومن ثم وحي الله تعالى إليه وإرساله.

٩- إثبات الأسباب؛ لقول موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ أي: بسببه.

١٠- عداوة الشيطان القديمة البينة الظاهرة لبني آدم، وحرصه على إضلالهم، وإيقاعهم في المعاصي؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

١١- اعتراف موسى عليه السلام بظلمه لنفسه بهذا الفعل، وسؤاله ربه أن يغفر له، ويتوب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾.

١٢- سرعة استجابته عز وجل لموسى ومغفرته له؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ بفاء التعقيب.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

١٤- أن الاعتراف بالذنب توبة، وأن ارتكاب الذنب ظلم للنفس.

١٥- أن أفضل ما يكون الدعاء باسم الرب ووصف الربوبية؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾، وهكذا كان جل دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى «الرب»: الخالق المالك المدبر، الذي بيده العطاء والمنع، والضر والنفع.

١٦- إثبات اسمي الله عز وجل: «الغفور» و«الرحيم»، وصفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١٧- اعتراف موسى عليه السلام بنعم الله تعالى عليه، وشكره لمنن ربه وأفضاله عليه مذ كان وليدًا، ومغفرته له وتوبته عليه، وندمه عليه السلام على ما فرط منه من قتل القبطي، ووعده أو دعاؤه بسبب تلك النعم ألا يكون معينًا للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

١٨- عدم جواز إعانة أهل الإجرام والشرور على إجرامهم وشرورهم؛ ولهذا قال ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله هذا الظالم فكيف ننصر المظلوم؟ قال: تمنعه من الظلم»[(١)].

١٩- أن المنعم بسائر النعم كلها، المستوجب للشكر؛ هو الله عز وجل وحده.

٢٠- أن شكر الله كما يكون بطاعته، يكون أيضًا باجتناب معصيته، وأن النعم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٣١٢-٢٤٤٣، من حديث أنس رضي الله عنه.

تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

٢١- ملازمة الخوف لموسى بعد قتله القبطي، وتوقعه أن يؤخذ ويقتاد بدمه كل لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

٢٢- مفاجأة موسى أن الرجل الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم على قبطي آخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾، أي: يطلب منه النصرة.

٢٣- توبيخ موسى عليه السلام لهذا الرجل وزجره له؛ لما هو عليه من الغواية والضلال المبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

٢٤- إرادة موسى البطش بالقبطي نصرة للإسرائيلي؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾.

٢٥- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبور على أفعاله، مسلوب الإرادة.

٢٦- تأثر موسى عليه السلام بموعظة القبطي له، وامتناعه عن البطش به لما وعظه، واحترازه عما لاحظه عليه بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

٢٧- عدم جواز قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف؛ لندم موسى على قتله القبطي، وعده ذلك من عمل الشيطان، واعترافه بظلمه لنفسه بهذا الفعل، وقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وقوله للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، واتعاظه بقول القبطي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

٢٨- أن الذي يقتل النفوس بغير حق يكون من الجبارين المفسدين في الأرض.

٢٩- وصول خبر قتل موسى للقبطي إلى فرعون وملئه، وتشاورهم في قتله، ومنة الله تعالى عليه وحفظه منهم بتسخير ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، فأخبره بائتمارهم لقتله، ونصحه بالخروج من مصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

٣٠- مشروعية النصيحة، والتحذير مما ينبغي التحذير منه، ولا يكون ذلك من الغيبة والنميمة.

٣١- صدق هذا الرجل الناصح، ومحبته لموسى، وحرصه على سلامته؛ لهذا جاء يسعى ركضًا على قدمه؛ خوفًا من أن يوقعوا بموسى قبل أن يحذره منهم، وهذا من تسخير الله تعالى لموسى، وحفظه له.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾، أي: فخرج من المدينة ومن مصر فرارًا من فرعون وقومه؛ امتثالًا لنصح ذلك الرجل الناصح له بالخروج.

﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ حالان، أي: حال كونه خائفًا من لحاق جنود فرعون به، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾، أي: يتلفت ويتوقع لحاقهم بهم ويترقب فرج الله له وغوثه.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: من فرعون وقومه الظالمين بتقتيلهم أبناء بني إسرائيل، واستحيائهم نساءهم، وبتآمرهم على قتله مع أنه قد تاب من ذنبه، ولم يقصد القتل.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي: قصد بوجهه جهة «مدين» جنوب فلسطين، حيث لا سلطان لفرعون عليها.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: أن يدلني ويرشدني إلى قصد السبيل، أي: إلى وسط الطريق وأقومها وأخصرها إلى مدين، فهداه الله إليها، وإلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾، أي: ولما وصل إلى مدين، وورد ماءها، أي: بئرها الذي يرده الرعاة لسقي مواشيهم.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾، أي: وجد على مائها، ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾، أي: جماعة من الناس يسقون مواشيهم.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾، أي: من دون تلك الجماعة؛ أي: سواهم من الناس الذين يسقون.

﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ﴾، أي: تذودان أغنامهما عن الماء، أي: تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد مع أغنام الرعاة؛ لعدم قدرتها على مزاحمة الرجال الواردين، وخلو قلوبهم من المروءة والرقة والرحمة بهما، والسقي لهما، فهما ينتظران مهما طال الانتظار حتى يُصْدِروا.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾، أي: رق لهما موسى، وقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾، أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ولماذا لا تردان الماء مع الواردين؟

﴿قَالَتَا﴾؛ مبينتين لماذا لا يسقيان: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾.

قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضم الدال: «يَصْدُرَ»، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال: ﴿يُصْدِرَ﴾.

أي: جرت العادة بأنا لا نسقي أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾، أي: إلى غاية أن يُصدر الرعاء، أي: ينتهوا من سقي مواشيهم، وينصرفوا بها عن الماء، فإذا خلا لنا الجو سقينا.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾؛ لا يستطيع بسبب الكبر والضعف أن يسقي ماشيته؛

لهذا وكَلَ ذلك إلينا.

فذكرتا لموسى أمرين:

الأول: أنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاة من سقي مواشيهم؛ لعدم استطاعتهما مزاحمتهم.

الثاني: أن أباهما شيخ كبير لا يستطيع سقي ماشيته؛ لكبره وضعفه، فوكَلَ ذلك لهما.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، أي: فرَقَّ لهما موسى عليه السلام، وسقى لهما غنمهما رحمة بهما من غير أجر.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذَنوبًا واحدًا، حتى رويت الغنم»[١].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ ليستظل فيه من الشمس، ويستريح من التعب، وكان في وقت شدة الحر وسط النهار.

﴿فَقَالَ رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ اللام للتوكيد، و«ما» موصولة، أي: إني للذي ﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: محتاج، ومفتقر إلى الخير الذي تسوقه إلي، وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، وكما قيل:

حال المَقِلِّ ناطقٌ ... عما خفى من عيبه

فإن رأيت عاريًا ... فلا تسل عن ثوبه[٢]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا، فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس في

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٧؛ من رواية أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: «إسناد صحيح».

(٢) البيتان لبدر الدين الشافعي. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٨٧).

الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾، أي: إحدى البنتين اللتين سقى لهما.

﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾؛ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونها تمشي على استحياء؛ لكرم عنصرها، وحسن خلقها، ولما رأته من حسن خلق موسى وكرمه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: «جاءت مستترة بكم درعها، أو بكم قميصها»[(٢)].

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾؛ يظهر من هذا أنهما أخبرتا أباهما بأن موسى سقى لهما، واللام في قولها: ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾؛ للتعليل، أي: لأجل أن يجزيك، أي: يعطيك جزاء وأجر.

﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ «ما» مصدرية، أي: أجر سقيك لنا، أي: يكافئك على إحسانك إلينا بسقيك لنا.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾، أي: فاستجاب موسى لدعوة أبيهما، فلما

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٧، وأخرجه مختصرًا الطبري وابن أبي حاتم؛ انظر: «جامع البيان» ١٧/ ٢١٦، «تفسير ابن أبي حاتم» ٩/ ٢٩٦١، ٢٩٦٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢١٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٣٨- وقال: «هذا إسناد صحيح».

جاءه وقص عليه قصصه وخبره، وما جرى له في مصر، وسبب خروجه منها.

﴿قَالَ﴾؛ مطمئنًا له: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، أي: كن آمنًا مطمئنًّا، وطب نفسًا، وقر عينًا.

﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، أي: لأنك نجوت من القوم الظالمين، أي: من فرعون وملئه، بوصولك إلى بلادنا «مدين»؛ لأنه لا سلطان لهم عليها.

ومن عجيب لطف الله ودقيق صنعه وتقديره أن يأت جواب صاحب مدين لقوله: ﴿لَا تَخَفۡ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موافقًا لسؤال موسى عليه السلام ودعائه لما خرج من المدينة خائفًا يترقب، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾، أي: إحدى ابنتيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء: «يَا أَبَتَ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

والمعنى: يا أبي، ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾، أي: اجعله أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها.

﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾؛ تعليل لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾، أي: إن موسى خير من استأجرت ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، أي: الذي جمع بين القوة والأمانة.

وهذان الوصفان لا بد منهما لكل من يتولى عملًا من الأعمال؛ لأن الخلل إنما يكون بفقدهما أو فقد أحدهما، واجتماع هذين الوصفين ليس بالكثير.

ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال: «اللهم إليك أشكو جلَدَ الفاجر وعجز الثقة»[١].

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ۝٢٦﴾؛ قال: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته، فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك، ثم قال

(١) انظر «السياسة الشرعية» ص ١٥، «مجموع الفتاوى» ٢٨/ ٦٨.

لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسرِّيَ عن أبيها، وصدقها، وظن به الذي قالت»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾؛ قال: يا بنية، ما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته: فرفعه الحجر لا يرفعه إلا عشرة»(٢).

والأظهر: أنها أخذت وصفه بـ «القوي» من نشاطه في نزعه الدلو، وأخذت وصفه بـ «الأمين» من كونه سقى سقيًا كاملًا وأتى بذلك على وجهه وجعل الغنم ترتوي.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾»(٣).

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به للفعل «أريد»، أي: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، وفي الإشارة بقوله: ﴿هَاتَيْنِ﴾؛ دلالة على وجودهما معهما.

﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾، أي: على أن تكون أجيرًا عندي ثماني حجج، ترعى غنمي وتسقيها وتقوم عليها. و«على» من صيغ الشرط في العقود.

و«حجج»: جمع «حِجَّة» بكسر الحاء، وهي السَّنَة، أي: ثماني سنين، سميت السنة: حجة اشتقاقًا من الحج؛ لأن الحج يقع كل سنة، وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية.

والمعنى: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن يكون صداقها ومهرها عملك أجيرًا عندي ثماني سنين.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٢٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٩٦٦، وانظر ٩/ ٢٩٦٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦. وذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص٨٤)، ونسبه لابن سعد والحاكم.

وهذا التخيير قبل انعقاد النكاح، فليس فيه جهل المعقود عليها.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، أي: فإن أتممت رعي عشر سنين فهو تبرع من عندك ليس بواجب عليك.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾، أي: وما أريد أن أشق عليك باشتراط العشر، وما أريد أن أكلفك مشقة في العمل، فهو سهل يسير.

وفي الحديث: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»[(١)].

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ السين: للاستقبال والتحقيق والتقريب، أي: ستجدني في معاملتي لك من الصالحين في حسن معاملتك، والرفق بك، والتيسير عليك، ونحو ذلك. وهذا ترغيب لموسى بقبول العمل عنده.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مخاطبًا لصهره: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، والإشارة تعود إلى قوله: ﴿أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ إلى آخر الآية، أي: قد تم الأمر بيني وبينك، وقبلته على ما شرطته علي وعليك، كل فيما هو من عمله، وبهذا تم العقد بينهما بحصول الإيجاب من صاحب مدين، والقبول من موسى عليه السلام.

﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾؛ «أي»: اسم شرط جازم، و«ما»: زائدة للتوكيد، أي: أيّ المدتين أتممت أجيرًا عندك، سواء قضيت ثماني سنين؛ كما هو الشرط الواجب بيني وبينك، أو تبرعت بسنتين فأتممتها من عندي عشر سنين.

﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾؛ بتجاوز الشرط، والمطالبة بزيادة على مدة العقد، وهي ثمان سنين. أو طلب أو فعل ما ينافي مطلق العقد، والعدوان: تجاوز الحد والحق.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾؛ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله على الذي نقوله أنا وأنت وسائر الخلق، أو على قولنا.

﴿وَكِيلٌ﴾، أي: شهيد مطلع حفيظ رقيب علينا في هذا العقد.

فاستشهد عليه السلام على نفسه وصهره بشهادة الله، ووعد بمراقبة الله تعالى في

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، والترمذي في البيوع (١٣٢٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٣)؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

ذلك، وصدق عليه السلام، فقد وفّى وكفّى. وقد ذكر أنه أتم أطول الأجلين، تبرعًا منه وجودًا وكرمًا.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ متعلق بالخبر ﴿وَكِيلٌ﴾ وقدّم عليه؛ لتأكيد تمام وكالته عز وجل على كل قول، كما أنه عزوجل على كل شيء وكيل كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾[الزمر: ٦٢].

وإذا سبرت أحوال الناس وجدت كثيرًا منهم يتبجح بقوله بلسانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾؛ ليخدع بذلك خصمه، وهو مضمر الخيانة، ولا شك أن الله وكيل على قوله، صدقًا كان أو كذبًا، لكن استشهاده بهذه الآية مع إضمار الخيانة استهزاءٌ بالله وآياته، يجب الحذر منه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤﴾[البقرة: ٢٠٤].

الفوائد والأحكام:

١- خروج موسى عليه السلام من مصر خائفًا على نفسه، يترقب ويتلفت حذرًا من لحاق جند فرعون به، بعد إخبار الرجل الناصح له بتآمرهم لقتله، ونصحه له بالخروج، وفي هذا دلالة على مشروعية ترك الإنسان الإقامة والخروج؛ حفاظًا على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾.

٢- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾.

٣- توجهه عليه السلام إلى ربه بالدعاء، وسؤاله أن ينجيه من فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

٥- دعاؤه عليه السلام وسؤاله الله بوصف الربوبية؛ كما هو أكثر دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى «الرب»: الخالق المالك المدبر؛ فكأن السائل بهذا الاسم يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير، وبيده الأمر والنهي، والعطاء والمنع، استجب

دعائي، وأعطني سؤالي.

٦- أنه لا مُنْجي ولا منقذ من ظلم الظالمين، ومن الشدائد كلها، إلا الرب عز وجل، فيجب اللجوء إليه وحده، وسؤاله النجاة دون سواه.

٧- بلوغ فرعون وقومه الغاية في الظلم؛ لظلمهم بني إسرائيل والمستضعفين، وظلمهم لموسى عليه السلام، في تآمرهم لقتله، مع أن ما حصل منه من قتل القبطي وقع من غير قصد منه للقتل، وقد اعترف بظلمه، واستغفر ربه، فغفر له؛ ولهذا وصفهم بالظلم موسى في دعائه، كما وصفهم صاحب مدين بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٨- توجه موسى عليه السلام جهة مدين، وسؤاله ربه أن يهديه إلى وسط الطريق وأقومها وأخصرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- أنه لا هادي إلى الطريق السوي المستقيم حسيًّا كان أو معنويًّا، ولا موفق للحق إلا الرب عز وجل، فيجب سؤاله الهداية وحده.

١٠- في خروج موسى عليه السلام وتوجهه إلى مدين- وهو لا يعرف الطريق- خوفًا من القتل، ارتكاب أخف الضررين؛ لأن خروجه أقرب لسلامته.

١١- وصول موسى عليه السلام إلى مدين، ووروده ماءها، ووجوده عليها جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ومن دونهم امرأتين تذودان غنمهما، ومبادرته بسؤالهما عن شأنهما عطفًا عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

١٢- إخبار المرأتين له عن حالهما، وأنهما ينتظران صدور الرعاء، ليسقيا غنمهما؛ لعدم استطاعتهما مزاحمة الرجال، ولأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع لضعفه وكبره سقي غنمه، فرَقَّ لهما موسى عليه السلام، ورحمهما وسقى لهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

١٣- بر هاتين المرأتين بوالدهما وخدمتهما له ورحمتهما به وعطفهما عليه وأدبهما

وتلطفهما معه؛ لقولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ وقول إحداهما : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾.

١٤- كرم خلق موسى عليه السلام، ونبل ما جبله الله عليه من جليل الصفات؛ من العطف على المساكين والمستضعفين، والرقة لهم، والرحمة بهم، وغير ذلك، وهذه أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

١٥- أن في الناس من ليس عنده أدنى مروءة، ولا في قلبه أي رحمة، أمثال هؤلاء الرعاة الجفاة الذين يسقون، ولا يلتفتون لهاتين المرأتين الضعيفتين، وقد قال ﷺ: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[(١)]، وقال ﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[(٢)].

ولا عجب أن يحصل مثل هذا من غلاظ القلوب؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبِّلون أبناءكم؟ إن لي عشرة من الأبناء ما قبَّلت واحدًا منهم! قال النبي ﷺ أرحم الخلق بالخلق: «**أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!**»[(٣)].

١٦- تولي موسى عليه السلام بعد أن سقى لهما إلى الظل؛ ليستريح ويستظل من شدة حر الشمس، وتضرعه عليه السلام إلى ربه عز وجل، وتوسله إليه بحاله وفقره وحاجته إلى الخير من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

١٧- أن السؤال بالحال مع الرضا بما قسم الله تعالى، أبلغ من السؤال بلسان المقال.

١٨- فضيلة موسى عليه السلام، وقوة إيمانه ويقينه، وتعلقه بربه، وتضرعه إليه، وسؤاله إياه، ولجوؤه إليه في كل حال، فسأل ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، ثم سأله أن يهديه سواء السبيل، ثم سأله وتوسل إليه بفقره وحاجته إلى الخير من ربه؛ كما سأله

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨؛ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤؛ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٨، ومسلم في الفضائل ٢٣١٧، وابن ماجه في الأدب ٣٦٦٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

قبل هذه الآيات أن يغفر له، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].

١٩- شدة حاجة الإنسان إلى ربه، واستحباب دعائه وسؤاله بربوبيته، والتوسل إليه بإظهار المسكنة والافتقار إليه؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾.

٢١- كرم خلق هاتين المرأتين وأبيهما ووفاؤهم، وتقديرهم لجميل صنع موسى ومعروفه، حيث أخبرت البنتان أباهما بسقيه لهما، فأرسل إحداهما تدعوه؛ ليجزيه ويكافئه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

٢٢- تمام عفة هاتين البنتين، وشدة حيائهما؛ كما هو حال البيوت الصالحة الأصيلة العريقة، والحياء من الإيمان، ومن الأخلاق الممدوحة.

٢٣- ما كان عليه موسى عليه السلام من الوقار، حيث جاءت إليه إحداهما تمشي على استحياء توقيرًا واحتراماً له.

٢٤- أن الإنسان إذا عمل عملًا لأحد من الناس قاصدًا بذلك وجه الله تعالى، ثم حصل له مكافأة على ذلك من غير استشراف لها، فلا بأس بذلك.

٢٥- طمأنة أبيهما لموسى، وبشارته له بالنجاة لَمَّا جاءه وقص عليه ما جرى له في مصر من قتل القبطي، وتآمر آل فرعون على قتله، وخروجه من مصر خائفًا يترقب بسبب ذلك؛ وذلك لأنه لا سلطان لفرعون وملئه على بلاد مدين.

وهذه أول بشائر الخير له عليه السلام، جزاء صبره، وصنيعه المعروف، وأول الغيث قطرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٦- قوة موسى وأمانته؛ لهذا طلبت إحدى هاتين البنتين من أبيها استئجاره؛ لقوته وأمانته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ

﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦﴾.

٢٧- ينبغي لمن يتولى اختيار أرباب المسئوليات في الأمة أن يختار ممن تتوفر فيهم القوة والأمانة؛ لأنه لا بد لنجاح كل من يتولى عملًا من الأعمال أن يتوفر فيه هذان الوصفان: القوة، والأمانة؛ لأن الخلل إنما يكون بفقدهما، أو فقد أحدهما.

٢٨- جواز مشورة الصغير على الكبير والأدنى على الأعلى والولد على والديه.

٢٩- عرض أبيهما على موسى أن ينكحه إحدى ابنتيه مقابل أن يعمل أجيرًا عنده ثماني سنوات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾.

٣٠- جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة في صلاحه، ومراعاة لمصلحتها، وقد عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته حفصة رضي الله عنها لما تأيمت على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، ثم تزوجها النبي ﷺ[1].

٣١- جواز كون المهر منفعة أجرة أو غير ذلك، وقد قال ﷺ لرجل: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»[2].

٣٢- رغبة صهر موسى أن يزيد موسى في العمل أجيرًا عنده سنتين، فيتم عشر سنوات، دون إلزامه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

٣٣- حسن معاملة صاحب مدين، وترغيبه لموسى بالعمل أجيرًا عنده؛ لوعده له بعدم تكليفه ما يشق عليه، أو إلزامه بالزيادة على ما تم العقد عليه، وهو ثمان سنوات، وأن يكون من الصالحين في معاملته والتيسير عليه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ وهذا من مكارم الأخلاق؛ أن يحسن خلقه لخادمه وأجيره.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٥، والنسائي في النكاح ٣٢٤٨؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٩، ومسلم في النكاح، وأبو داود في النكاح ٢١١١، والنسائي في النكاح ٣٣٥٩، والترمذي في النكاح ١١١٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٨٩؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

٣٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن مشيئة الخلق كلهم تابعة لمشيئة الله تعالى؛ لقول موسى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٣٥- أن صاحب مدين مؤمن، وعلى ملة؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٣٦- أن الرجل الصالح يطلب منه ويؤمل فيه من حسن المعاملة أكثر من غيره.

٣٧- جواز مدح الإنسان لنفسه إذا كان لغرض في الدين أو المعاملة لداعٍ حسن؛ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

٣٨- أن من الأدب أن يقرن ما وعد أن يفعله في المستقبل بالمشيئة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل شيئًا إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ﴿٢٤﴾﴾[الكهف: ٢٣ - ٢٤].

ولهذا قال ﷺ في قصة سليمان عليه السلام: «**لو قال إن شاء الله لم يحنث، وكان دركًا لحاجته**»(١).

٣٩- قبول موسى لهذا العقد بينه وبين صهره بشروطه بينهما، على أن له أن يقضي أي الأجلين: ثماني سنين، أو عشر سنين، ولا يُعتدى عليه بإلزامه إتمام العشر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ﴾.

٤٠- أن العقود عهود وأن المتشارطين على شروطهم إلا ما كان منها باطلًا، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا.

عن عوف المزني، قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون على شروطهم، إلا شرطًا حرم حلالًا، أو أحل حرامًا**»(٢).

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان – الاستثناء في الإيمان ٣٦٤١، ومسلم في الإيمان– الاستثناء ١٦٥٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[1].

٤١- جواز إشهاد الله على القول والعقد؛ لأن موسى عليه السلام أشهد الله على قوله هو وصهره، وما تم بينهما؛ لقول موسى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ وفي هذا وعد منه عليه السلام بالوفاء بهذا العقد، وهكذا فعل عليه السلام، بل الأظهر والأقرب أنه أتم أطول الأجلين، عشر سنين؛ كرمًا منه وتفضلًا.

٤٢- جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، ما عدا عقد النكاح، فالإشهاد عليه شرط من شروط النكاح في شريعتنا.

٤٣- إحاطة علم الله تعالى واطلاعه وشهادته ووكالته على جميع الخلق وأقوالهم وأفعالهم.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٢١، ومسلم في النكاح ١٤١٨، وأبو داود في النكاح ٢٦٣٩، والنسائي في النكاح ٣٢٨١، والترمذي في النكاح ١١٢٧، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٤.

قال الله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾، أي: فلما فرغ وأتم موسى الأجل الذي بينه وبين صهره في العمل عنده أجيرًا ثماني سنين، أو زاده سنتين فأتم عشرًا، وهو المتوقع من موسى؛ لكرمه وإحسانه ووفائه.

عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال:

«خيرهما وأطيبهما»(١).

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، أي: وسار بزوجه إلى مصر، حيث اشتاق إلى أهله ووالدته وعشيرته، ووطنه، وعزم على زيارتهم على خفية من فرعون وملئه، ولعلهم من طول المدة قد نسوا ما صدر منه، وبينما هو في مسيره في ليلة مظلمة مطيرة باردة، وقد ضل الطريق، واحتاج إلى الدفء ومعرفة الطريق.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، أي: أبصر ورأى من جانب جبل الطور، أي: من جهته نارًا تضيء من بُعْد، وهي ليست نارًا حقيقية، ولكنها نور.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾، أي: اجلسوا وأقيموا هنا، ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: أبصرت ورأيت نارًا، أي: حتى أذهب إليها، أو سأذهب إليها، أي: أرجو أن أجئكم من هذه النار، أي: من أهلها بخبر؛ أي: بخير.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: أرجو أن أجيئكم من هذه النار، أي: من أهلها بخبر نعرف به الطريق ونهتدي إليه، ونعرف ما تبقى منه، ونحو ذلك، ويظهر أن موسى قد ا شتبه عليه الطريق، واحتاج إلى دليل.

﴿أَوۡ جَذۡوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ قرأ عاصم بفتح الجيم: ﴿جَذۡوَةٍ﴾، وقرأ حمزة وخلف بضمها: «جُذْوَةٍ»، وقرأ الباقون بكسرها: «جِذْوَةٍ».

و«أو» عاطفة، أي: أو آتيكم بجذوة، أي: بقطعة وشعلة من النار.

والجذوة: عود في طرفه نار مشتعلة.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، أي: لأجل أن تصطلوا، أي: تستدفئوا بها من البرد؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠]، وقال في سورة النمل: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾[النمل: ٧].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، أي: فلما أتى النار التي أبصرها من جانب الطور، أي: جاءها ووصل إليها.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨٤، والطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٢٣٥.

﴿نُودِيَ﴾، أي: ناداه الله، بدليل قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانب الوادي الأيمن. وشاطئ الشيء: جانبه، يقال: شاطئ البحر، وشاطئ النهر، أي: جانبه.

والوادي: مجرى الماء، و«الأيمن»: صفة للوادي، أي: الأيمن بالنسبة لموسى، أي: شاطئ الوادي الأيمن أي: الذي على يمين موسى، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [الآية: ٥٢]، فناداه عز وجل من بُعد ثم قرّبه وناجاه.

﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾؛ البقعة: القطعة من الأرض، ﴿الْمُبَارَكَةِ﴾ ذات الخير الكثير، التي بارك الله فيها لموسى عليه السلام، واختارها لنزول الوحي عليه، وسماعه كلام الله تعالى فيها.

﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ، فهو تخصيص بعد تخصيص، أي: من جانب الشاطئ الأيمن، ومن ناحية الشجرة وجهتها.

﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾؛ «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير للنداء، أي: يا موسى إني أنا الله رب العالمين الذي أناديك وأكلمك وأخاطبك، لا رب لهم غيري، ولا معبود لهم سواي، فاعبدني، وادع إلى عبادتي؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١١ - ١٤]، وقال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل: ٨ - ٩].

وبدأ بالألوهية؛ لأنها هي المقصود وثنى بالربوبية؛ لأنها وسيلة للألوهية، فمن أقر بالربوبية لزمه الإقرار بالألوهية.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾،معطوف على قوله: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾، أي: وأن ألق عصاك من يدك، أي: ضعها على الأرض، فألقاها، كما قال في سورة طه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ

يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا﴾ [الآيات: ١٧ – ٢٠].

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: تتحرك وتضطرب وتسعى سعيًا شديدًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠].

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، أي: كأنها حية حقيقية في سرعة حركتها وصورتها المخيفة. والجان: ذكر الحيات، وهو الثعبان، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧].

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: ﴿مُدْبِرًا﴾: حال مؤكدة لعاملها، أي: ولاها دبره، أي: ظهره، هاربًا منها.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: ولم يلتفت، ولم يرجع، وهذا من مقتضى الطبيعة البشرية.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، أي: فقال الله له: يا موسى أقبل ولا تخف، أي: وكن آمنًا مطمئنًا.

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، أي: لأنك من الآمنين وهم الرسل وأتباعهم؛ كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الآية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فأقبل عليه السلام آمنًا مطمئنًا غير خائف، واثقًا بوعد ربه، فقال الله له:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾، أي: أدخل يدك في جيب درعك، أي: في فتحة وطوق قميصك، أي: ثم أخرجها؛ ولهذا قال: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ أي: شديدة البياض وكان موسى عليه السلام «آدَمَ» أي: بشرته بين البياض والسواد.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير برص، ولا عيب؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، أي: واضمم يدك إلى جنبك وصدرك.

﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن كثير بفتح الراء والهاء: «الرَّهَبِ»، وقرأ حفص بفتح الراء وإسكان الهاء: ﴿ٱلرَّهۡبِ﴾، وقرأ الباقون بضم الراء وإسكان الهاء: «الرُّهْبِ».

والرَّهْب: الخوف، والمعنى: لتأمن الرهب، أو ليزول عنك الرهب والخوف.

قال ابن كثير[1]: «وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجد من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده يزول عنه ما يجد أو يخف إن شاء الله وبه الثقة».

﴿فَذَٰنِكَ﴾؛ قرأ أبو عمرو ورويس عن يعقوب بتشديد النون: «فَذَانِّكَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها على الأصل في التثنية: ﴿فَذَٰنِكَ﴾، أي: فهذان، أي: العصا، واليد، وكل منهما مؤنث، وإنما ذُكِّر المشار به إليهما «فذانك» مراعاة لخبره: «برهانان»، أي: انقلاب عصاك حية، وخروج يدك بيضاء من غير سوء.

﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: دليلان قاطعان، وحجتان ظاهرتان، وآيتان باهرتان من ربك على صدقك وصحة ما جئت به، وأنه حق وصدق.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، أي: أرسلك ربك بهما أو أرسلناك بهما إلى فرعون وملئه.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، أي: لأنهم كانوا قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله بالكفر والشرك والظلم والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسًا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾:

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسًا﴾، أي: قال موسى: يا رب، ﴿إِنِّي قَتَلۡتُ

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٤٥.

﴿مِنۡهُمۡ﴾، أي: من آل فرعون ﴿نَفۡسٗا﴾؛ يعني: الرجل القبطي.

﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾؛ إذا رأوني بدم ذلك القتيل؛ كما في سورة الشعراء: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشعراء: ١٤].

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾أي: أبين مني منطقًا، وأوضح كلامًا؛ وذلك أن موسى كان في لسانه لثغة وثقل في التعبير؛ كما قال في سورة الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾ [الشعراء: ١٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨].

﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر بالتخفيف: «رِدًا».

وقرأ الباقون بالهمز على الأصل: ﴿رِدۡءٗا﴾.

وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، وقرأ الباقون بجزمها: «يُصَدِّقْنِي».

أي: اجعله رسولًا معي، ﴿رِدۡءٗا﴾؛ حال، أي: مؤيدًا لي ومعينًا ومساعدًا ووزيرًا، ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: يشهد بصدقي، ويفصح لهم من معنى الأدلة ما قصر عنه نطقي.

وقوله: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾؛ صريح في أن موسى لم يرد بكلامه السابق الاعتذار عن قبول الرسالة، ولكنه أراد أن يرسل الله معه أخاه هارون؛ ليكون مؤيدًا له ووزيرًا، ومعينًا له وظهيرًا؛ كما قال في سورة طه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢].

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أي: يكون مصدقًا لي، يقوي كلامه كلامي ويصدقه.

وخص هارون وعينه؛ لعلمه بصدقه وأمانته وإخلاصه، وفصاحة لسانه، وغير ذلك، وفيه محض النصح لأخيه، حيث شفع فيه إلى ربه أن يجعله معه رسولًا.

ولهذا فإن أعظم منة منَّ بها أخ على أخيه هي منة موسى على أخيه هارون بوجاهته له عند الله أن يكون معه رسولًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ تعليل لسؤاله إرسال أخيه هارون معه، وتأكيد لقوله: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: إني أخشى أن يكذبون.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى مجيبًا لسؤال موسى إرسال أخيه هارون معه.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، السين: للتوكيد والتقريب، أي: سنقويك ونعز جانبك بأخيك هارون، ونؤيدك به، ونرسله معك؛ كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ [مريم: ٥٣].

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، أي: ونجعل ونصيِّر لكما- شرعًا وكونًا- حجة ظاهرة، وتسلطًا وغلبةً وتمكنًا، وهذه بشرى ثانية لهما جميعًا.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾؛ بسوء، وهذا وعد من الله تعالى بحفظهما، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٦].

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ الباء: سببية، أي: بسبب تأييدنا لكما بآياتنا، وتبليغكما إياها، وما دلت عليه من الحق المبين.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ لكل من ناوأكم وخالفكم؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ [المجادلة: ٢١].

الفوائد والأحكام:

١- إكمال موسى الأجل الذي بينه وبين صهره، ومسيره بأهله قاصدًا مصر؛ حيث اشتاق إلى والدته وعشيرته ووطنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾.

٢- في اشتغاله عليه السلام برعي الغنم طيلة هذه السنوات تهيئة من الله تعالى له للنبوة والرسالة ورعاية مصالح الخلق، وقد قال ﷺ: «**ما بعث الله نبيًا إلا راعي غنم**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٦٢، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- إبصاره وهو في مسيره وقد ضل الطريق في ليلة مظلمة باردة نارًا تضيء من بُعْد؛ لقوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾. وذلك من أسباب تهيئته للوصول إلى المكان الذي أراد الله أن يوحى إليه فيه.

٤- أمره أهله بالمكث، وذهابه صوب هذه النار؛ ليلتمس خبرًا عن الطريق، أو جذوة نار يستدفئون بها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. وهذا يدل على أنه قد اشتبه عليه الطريق، وأنهم كانوا في الشتاء، وفي برد.

٥- حسن معاملته عليه السلام ومعاشرته لأهله، حيث أخبرهم سبب ذهابه ومقصده منه، وأنه لالتماس خبر، وجذوة من النار لتدفئتهم، وقد قال ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١).

٦- نداء الله تعالى وتكليمه لموسى عليه السلام لما أتى النار من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وإعلامه بأن الذي يكلمه هو الله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٧- إثبات صفة النداء والتكليم لله عز وجل، وتكليمه عز وجل لموسى بحرف وصوت يسمعه كما يليق بجلال الله عز وجل وعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦].

وفي هذا رد على الجهمية والأشاعرة الذين ينفون أن يكون الله يتكلم بحرف وصوت مسموع، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

٨- فضيلة موسى عليه السلام وتشريفه وتكريمه من بين الرسل بتكليم الله تعالى له، وإثبات نبوته عليه السلام ورسالته.

---

(١) سبق تخريجه.

٩- مباركة الله تعالى في هذه البقعة التي نادى عز وجل فيها موسى وكلمه وأوحى إليه.

١٠- إثبات ألوهية الله عز وجل وربوبيته العامة للعالمين، والاستدلال بتفرده في الربوبية على تفرده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

١١- أمره عز وجل لموسى بإلقاء عصاه؛ ليريه آية من آياته الكبرى التي سيؤيده بها، وامتثاله عليه السلام لذلك، وإلقاؤه إياها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

١٢- المعجزة الكبرى والآية العظمى في انقلاب عصاه بعد إلقائه إياها حية تهتز كأنها جان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

١٣- أن موسى عليه السلام، وكذا غيره من الرسل، يعتريهم الخوف الطبيعي كغيرهم من البشر، لكن الله يثبتهم ويطمئنهم ويسكن قلوبهم، ويؤمنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

١٤- طمأنة الله تعالى له، وأمره بالإقبال وعدم الخوف، وتأمينه وعنايته به؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

١٥- أمره عز وجل له بإدخال يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: ٢٢].

١٦- أمره عز وجل له بأن يضمم يده إلى جنبه وصدره؛ ليزول عنه الرهب ويطمئن ويسكن قلبه؛ آية من آيات الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾.

١٧- أن هاتين المعجزتين الكبيرتين هما برهانان من الله عز وجل لموسى، للدلالة على صدقه، وصحة ما جاء به أرسله الله بهما إلى فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

١٩- عظم الآيات والمعجزات التي أيد الله تعالى بها موسى، الدالة على كمال قدرة الله عز وجل، وتمام حكمته في كونها مناسبة لحال المرسل إليهم.

٢٠- بلوغ فرعون وملئه الغاية بالفسق والكفر والخروج عن طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

٢١- إقامة الحجة على العباد بإرسال الرسل، وتأييدهم بالآيات والمعجزات، وتحذيرهم من الكفر والفسوق والخروج عن طاعة الله.

٢٢- إبداء موسى عليه السلام تخوفًا من أن يقتله فرعون وملؤه بدم القبطي الذي قتله منهم قبل خروجه من مصر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾، وهذا خوف طبيعي لا ينافي الإيمان.

٢٣- سؤاله عليه السلام ربه أن يرسل معه أخاه هارون؛ لأنه أفصح منه لسانًا؛ ليكون مؤيدًا له ومعينًا ومصدقًا له ووزيرًا؛ لقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

٢٤- أن هارون أفصح من أخيه موسى، وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣].

٢٥- إنصاف موسى عليه السلام وإقراره بالفصاحة لأخيه، فإن من الناس من يكون ناقصًا لكن لا يستطيع أن يقول الحق بكمال غيره ونقصه هو.

٢٦- أن فصاحة اللسان لها أثر قوي في الدعوة والتأثير على القلوب وفي الحديث: «**إن من البيان لسحرا**»[(١)].

٢٧- أن التعاون في الدعوة إلى الله من أعظم أسباب النجاح فيها.

٢٨- فضيلة موسى عليه السلام، وعظم منزلته، ووجاهته عند الله تعالى؛ حيث

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح - باب الخطبة ٤٨٥١، ومسلم في الجمعة - تخفيف الصلاة والخطبة ٨٦٩ - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

أجاب عز وجل سؤاله، بل وأعطاه أكثر مما سأل وشد عضده بأخيه هارون رسولًا معه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ وهذا من توفيق الله وعونه لموسى؛ لأن ما خافه من فرعون وملئه من التكذيب وقع.

٢٩- أنه لا أحد أعظم منة على أخيه من موسى على أخيه هارون عليهما السلام؛ حيث شفع فيه فجعله الله نبيًّا رسولًا، وإنما اختار موسى أخاه هارون بعينه؛ لعلمه بصدقه وأمانته، وإخلاصه وفصاحته، ونحو ذلك.

٣٠- تكفله عز وجل لهما بجعل الحجة والسلطان لهما وحفظهما، فلا يصل فرعون وملؤه إليهما، بسبب ما يؤيدهما به عز وجل من الآيات والمعجزات، وأنهما ومن اتبعهما الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

٣١- أن من أيده الله تعالى بالسلطان والحجة والآيات، واستقام على صراط الله المستقيم، ودعا إليه، فهو الغالب لا محالة، وهم الرسل عليهم السلام وأتباعهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، الباء للمصاحبة والملابسة أي: فلما جاء موسى إلى فرعون وملئه بآيات الله البينات، والحجج الواضحات والمعجزات الباهرات، والدلائل القاطعات، على صدقه وأخيه، وصحة ما جاءا به من إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

ولم يذكر «هارون»؛ لأن موسى هو الأصل في الرسالة.

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال فرعون وملؤه عنادًا واستكبارًا، وظلمًا وطغيانًا: ﴿مَا هَٰذَآ﴾؛ الإشارة إلى ما جاءهم به موسى من الآيات البينات الحسية، كالعصا واليد، والآيات المعنوية.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا سحر مفتعل مختلق مكذوب بادعاء أنه من عند الله، وإخفاء كونه سحرًا؛ كما قالت قريش: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾؛ يعنون: ما جاءهم به موسى من الرسالة، وما دعاهم إليه من وجوب عبادة الله وحده.

﴿فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، أي: في وقت أبائنا الأولين؛ أي: السابقين، وهذا كذب منهم فقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[غافر: ٣٤].

وأيضًا فإن الرسل من لدن نوح إلى موسى، بل وإلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وما هذا منهم إلا كإنكار ضوء الشمس في رابعة النهار، وقد قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(١)

وقال المتنبي(٢):

وهبني قلت: هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء؟!

وكون آبائهم كذبوا الرسل وعاشوا على الشرك والضلال ليس حجة لهم في رد ما جاءهم من الحق وإبطاله، وعلى فرض صحة أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين، فهذا لا يبرر رد ما جاءهم به موسى من الحق وإبطاله؛ لأن الحق إذا جاء وجب قبوله، وإن لم يكن موجودًا في الأولين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾؛ قرأ ابن كثير: «قَالَ» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَقَالَ﴾.

﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ «من» موصولة، أي: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى، أي: بالوحي.

﴿مِنْ عِندِهِۦ﴾، أي: من عند الله عز وجل، أهو أنا أو أنتم؟ وسيفصل بيني وبينكم؛ ولهذا قال:

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء: «يكون»،

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢) بترقيم الشاملة.

وقرأ الباقون بالتاء: «تكون»، وهو معطوف على قوله: «من جاء بالهدى».

أي: وأعلم بمن تكون له عاقبة الدار، أي: وأعلم بالذي تكون له العاقبة المحمودة، من النصر والظفر والتأييد في الدنيا، والفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة، أي: أهو أنا أم أنتم. وهم في الحقيقة موسى وأتباعه، وجميع المؤمنين.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: من أيِّ الفريقين كانوا، أي: لا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب، فلا يسعدون في حياتهم، ولا ينجون من النار في آخرتهم، بل لهم سوء العاقبة، ولهم سوء الدار، وهم في الحقيقة فرعون وأتباعه، ومن سلك مسلكهم بالكفر والشرك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾؛ اجتراءً منه على الله، وطغيانًا وكفرًا، وعلوًّا واستكبارًا، وتمويهًا على ضعاف العقول والسفهاء من قومه:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، «من» لتأكيد عموم النفي، و«إله» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ما علمت لكم أيّ إله غيري، أي: أنا إلهكم ومعبودكم، لا إله ولا معبود لكم سواي ولا رب لكم غيري، وليس ربكم «الله» كما يقول موسى ولا إلهكم.

ولهذا هدد موسى وتوعده بقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ كما قال لموسى منكرًا ربوبية الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: مخاطبًا قومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وبهذا استخف قومه فعبدوه وأطاعوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾؛ «هامان»: وزير فرعون، ومدبر رعيته، ومشير دولته، أي: فأشعل النار وأوقدها لي يا هامان على الطين، أي: اطبخه حتى يكون آجُرًّا وفخَّارًا.

﴿فَاجْعَل لِّي﴾، أي: فابن لي من هذا الطين بعد طبخه وصنع اللَّبِن منه ﴿صَرْحًا﴾، أي: قصرًا عاليًا منيفًا، وبناء شاخًا مرتفعًا.

﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، أي: لأجل أن أطلع إلى إله موسى الذي يدعيه، وانظر إليه وأقف عليه وهكذا قال المشركون: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ الواو اعتراضية، أو عاطفة، واللام للتوكيد، أي: وإني لأظن موسى في زعمه أن له إلهًا غيري، أو أن للعالمين ربًّا ومعبودًا سواي، ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ الذين بلغوا الغاية في الكذب.

وهذا كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الآيتان: ٣٦، ٣٧].

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: استكبر هو وجنوده استكبارًا شديدًا، بلغ الغاية في الاستكبار والتعالي والتعاظم.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أي: في أرض مصر و«ال» للعهد الذهني.

ويجوز أن يراد بها: جنس الأرض؛ لأنهم كانوا يومئذٍ أعظم أمم الأرض، فادعى فرعون الربوبية والألوهية، واستكبر هو وجنوده عن قبول الحق، وعلى الخلق، وكذبوا موسى وطغوا وتجبروا، وساموا المستضعفين من العباد سوء العذاب، وأكثروا في الأرض الفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

[الفجر: ١٠ – ١٤].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: بالباطل وهذا بيان للواقع، ومبالغة في تقبيحه؛ لأن الاستكبار لا يكون بالحق.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، أي: اعتقدوا ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي بفتح ياء المضارع: «يَرْجِعُونَ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿يُرْجَعُونَ﴾.

أي: أنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وصرح بهذا؛ لإبطال هذا الاعتقاد، والتعريض بالمشركين الذين ينكرون البعث مثلهم.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾، الفاء: للسببية أي: فعاقبناه وجنوده، بسبب استكبارهم، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أي: فطرحناهم وألقيناهم في البحر وأغرقناهم على وجه الإذلال لهم والإهانة مقابل استكبارهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ الخطاب لكل من يصلح له.

أي: فانظر وتأمل بقلبك وفكرك كيف كانت عاقبة الظالمين بالكفر والاستكبار، ونهايتهم الأليمهْ، وعقوبتهم الوخيمهْ، فأجسادهم للغرَقْ، وأرواحهم للنار والحَرَقْ، متواصل عذابهم في الدنيا مع عذابهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ كونًا وقدرًا،أي: صيرناهم في الدنيا ﴿أَئِمَّةً﴾، أي: قادة يقتدى بهم في الكفر والشرك، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: يدعون بأقوالهم وأفعالهم من اتبعهم إلى ما يوجب دخول النار من الكفر والاستكبار، ورد الحق، وتكذيب الرسل.

وإذا كانوا يدعون إلى النار فهم من أهلها ومرتكبون ما يوجب دخولها والخلود فيها.

وفي هذا تعريض بالمشركين، وما هم عليه من الكفر، والتكذيب للنبي ﷺ، وصد الناس عن دعوته.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصرهم فيدفع عنهم عذاب

الله، أو يرفعه، بل يتبرأ منهم القريب والبعيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: وألحقناهم في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ من الله بطردهم وإبعادهم عن رحمته، ولعنة من خلق الله بالدعاء عليهم بطردهم عن رحمة الله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾، أي: من المذمومين، المستقذرة أفعالهم وصفاتهم، المطرودين المبعدين عن الجنة، المخلدين في النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- تكذيب فرعون وملئه لِما جاءهم به موسى من الآيات البينات، وزعمهم أنها سحر مختلق؛ عنادًا منهم واستكبارًا، وطغيانًا وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

٢- مسارعة أهل الباطل عندما تدمغهم براهين الحق ودلائله وآياته ومعجزاته الواضحة البينة إلى المكابرة والعناد، ورمي الحق بأسوأ الأوصاف وأقبحها، كقولهم: سحر، ومفترى، ورمي ما جاء به بأنه ساحر، ونحو ذلك؛ كما قال فرعون للسحرة لما آمنوا وأسقط في يده: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩، طه: ٧١].

وصدق الله العظيم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

٣- نفي فرعون وملئه أن يكونوا سمعوا بما جاءهم به موسى من الدعوة إلى توحيد الله تعالى في آبائهم الأولين؛ لقولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

وهذا كذب؛ فإن الرسل منذ وقع الشرك في الأرض متتابعون في الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، من لدن نوح عليه السلام إلى أن ختموا بمحمد ﷺ.

وقد أرسل الله إليهم يوسف قبل موسى عليهما السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

وعلى تقدير صحة زعمهم أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين فليس ذلك بحجة لهم في رد ما جاءهم من الحق.

٤- جهلهم وسفههم؛ لاعتدادهم بما عليه آباؤهم ولو كان باطلًا، وتقليدهم لهم تقليدًا أعمى.

٥- صبر موسى عليه السلام ومضيه قُدمًا في دعوته لهم بعد تكذيبهم له، وتنزله معهم في الخطاب، وهو يعلم أنه هو الذي جاء بالحق من عند الله، ويعلم أن الله أعلم بذلك، وأن العاقبة له ولأتباعه، وهذا من باب إرخاء العنان للخصم؛ لعل ذلك ينجع فيه؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ﴾.

٧- إثبات علم الله الواسع بالخلق وأحوالهم وأعمالهم ونياتهم، وأن ما جاء به موسى هو الهدى من عنده عز وجل، وأن عاقبة الدار الحسنى له ولأتباعه، وثقة موسى بوعد الله تعالى له بذلك.

٨- إثبات أن الهدى هدى الله، والتعريض بأن ما عليه فرعون وملؤه هو الضلال، وتهديدهم بأن العقبى السيئة لهم؛ لمفهوم قوله: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾.

٩- التعريض بما هم عليه من الظلم، والوعيد لهم ولغيرهم من الظالمين بالخيبة والخسران، وعدم الفلاح، والتحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠- جراءة فرعون ومكابرته وزعمه الباطل أنه لا إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، وهذه أعظم كذبة كذبها الخلق كلهم.

١١- تمويهه على قومه وترويجه لزعمه الباطل بباطل آخر، وهو بناء صرح لكي

يطلع- بزعمه- إلى إله موسى، ليبين كذبه؛ لقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

١٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن قول فرعون هذا يدل على أن موسى قال له: إن الله في السماء.

١٣- أن هامان كان وزيرًا لفرعون، ومدبرًا لرعيته، ومشيرًا لدولته.

١٤- أن الطين إذا أوقد عليه في النار وطبخ قوي واشتد، وصار آجُرًّا وفخارًا يصنع منه اللَّبِن، ويتماسك به البناء الرفيع.

١٥- تنقُّص فرعون لله جل وعلا بقوله: ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بل وتكذيبه بوجود الرب الخالق الصانع المعبود وحده؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

١٦- تمادي فرعون وجنوده بالاستكبار والفساد في الأرض، بتكذيب موسى، ورد الحق، والتعالي على الخلق وأذيتهم، والطغيان والتجبر والتكبر بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

١٧- إنكارهم الرجوع إلى الله تعالى والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، ويفهم من هذا إثبات البعث والرجوع إلى الله.

١٨- عقوبة الله تعالى العاجلة لفرعون وجنوده؛ بإلقائهم في البحر وإغراقهم وإهلاكهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾.

١٩- حكمة الله تعالى التامة وقدرته في إهلاك فرعون وجنوده بالغرق في الماء الذي كان يفتخر به بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

٢٠- ينبغي النظر والتفكر في عقوبة الله تعالى لفرعون وجنوده، وإهلاكهم بالغرق؛ بسبب ظلمهم بتكذيب موسى، واستكبارهم عن قبول الحق وعلى الخلق، ففي ذلك عبرة وعظة لكل من ينظر ويتأمل، وتهديد والتحذير للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢١- بلوغ فرعون وجنوده الغاية في الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٢- قضاء الله عز وجل وتقديره الكوني عليهم؛ لكفرهم وعنادهم أن يكونوا في الدنيا أئمة وقادة يدعون إلى النار بأقوالهم وأفعالهم، ومصيرهم يوم القيامة إليها؛ حيث لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٢٣- إلحاقهم في هذه الدنيا لعنة من الله، وطردهم عن رحمته، وعن كل خير، ولعنة من الخلق بالدعاء عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ﴾.

٢٤- تقبيحهم وذمهم في الآخرة بحرمانهم من الجنة وتخليدهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

٢٥- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطينا موسى الكتاب؛ يعني: التوراة.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: من بعد إهلاك القرون الأولى، أي: الأمم المكذبة؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم من الأمم الماضية.

وفي هذا إشارة- كما قال المفسرون- إلى أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف، كما أن فيه إشارة إلي حاجة الناس إلى الرسالة بعد تطاول الزمن.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ «بصائر»: حال من الكتاب، أو مفعول لأجله، أي: ذا بصائر للناس، أو لأجل تبصرة الناس وهم قوم موسى خاصة، بنو إسرائيل.

و«بصائر»: جمع بصيرة وهي: نور القلب، كما أن البصر: نور العين، أي: دلائل وبينات يستبصرون بها من الضلال والغي؛ كما قال موسى مخاطبًا فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ معطوفان على «بصائر»، أي: ﴿وَهُدًى﴾؛ يهديهم ويدلهم ويرشدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

«لعل»: للتعليل أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون، ويعملون بما فيه من الأحكام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

لَمَّا ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ قصة موسى عليه السلام، وما اشتملت عليه من الأخبار الغيبية؛ أكد صحة هذه الأخبار، ودلالتها على صدق رسالته ﷺ؛ لأنها لا تعلم إلا من جهة الوحي.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، وقيل: الوادي الغربي، وقيل: المكان.

وموسى عليه السلام نودي من جانب جبل الطور، ونودي بالواد المقدس طوى.

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، أي: حين قضينا وأوحينا إلى موسى أمر الرسالة إلى فرعون؛ أي: فتسمع وحينا إليه.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: وما كنت من الشاهدين الحاضرين لذلك، فترى خبر موسى عن معاينة، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق أو ذاك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾، أي: خلقنا وأوجدنا أممًا من بعد موسى.

﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، التاء والطاء في: ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ للمبالغة. والعمر:

الزمن. ومعنى «فتطاول»؛ أي: زاد في الطول، أي فطالت أعمارهم فنسوا العهود، واندرس العلم، وطمست آثاره، وانقطع الوحي، واحتاج الناس إلى الرسالة، فجئنا بك، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: وما كنت مقيمًا في أهل مدين، ونازلًا بينهم تقرأ وتقص عليهم آياتنا فتعرف قصتهم، فتخبر بها.

والمراد بأهل مدين القوم الذين أتى إليهم موسى واستأجره والد المرأتين وزوَّجه إحداهما؛ أي لم تكن يا محمد مقيمًا في أهل مدين حتى تخبر بذلك، وإنما جاءك ذلك عن طريق الوحي.

وقيل الضمير في «عليهم» يعود على المشركين، أي: وما كنت: تتلو على المشركين آياتنا.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: ولكنا أرسلناك وأوحينا إليك، وأخبرناك بذلك كله، بدءًا من أول إيحاء الله إلى موسى وتكليمه له إلى آخر قصته؛ كما أخبرناك بكثير من قصص الأنبياء السابقين وأممهم؛ كأنك شاهد وحاضر لها.

قال ابن القيم: «كأنه قال: وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه السلام، ولكنا أوحينا إليك، وسبب هذا الوحي: أنا أنشأنا قرونًا إلى زمانك، فتطاول عليهم العمر، أي: مدة الفترة، فنُسي ما كان جرى، فأوحينا إليك، فيكون المحذوف هو السبب، والمذكور الدال عليه هو سببه»(١).

وهذا كما قال تعالى بعد ذكر قصة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال تعالى بعد أن أخبره بقصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى بعد ذكر قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٠.

إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالى في آخر سورة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩].

﴿وَمَا كُنتَ﴾، أي: وما كنت يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، أي: بجانب جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى،وهو الجبل المعروف في سيناء، وجانب الشيء جهته، ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، أي: حين نادينا موسى وكلمناه، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات: ١٦].

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: وما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك، ولكن ربك أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه عز وجل، و«رحمة»: مفعول لأجله، أي: ولكن أرسلناك رحمة من ربك بك، وبالعباد بإرسالك إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿لِتُنذِرَ﴾؛ اللام للتعليل، أي: أرسلناك لأجل أن تنذر.

﴿قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ وهم كفار قريش، الذين بلغوا حدًّا بعيدًا في الكفر، فهم أول من أنذرهم ﷺ، وإلا فقد بُعث لهم ولغيرهم، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

و«من» في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما أتاهم أيُّ نذير من قبلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون، فيمتثلون أمر الله، ويجتنبون نهيه، ويعبدون الله وحده، ويدعون ما هم عليه من الشرك.

وهو رسول عام لهم ولغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾؛ الواو عاطفة، و«لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: ولولا أن تنزل بهم عقوبة أو عذاب.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب الذي قدمته أيديهم، أي: بسبب الذي عملوه من الكفر والمعاصي.

﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾؛ الفاء عاطفة، و«لولا» حرف تحضيض، أي: فيقولوا: يا ربنا، هلا أرسلت إلينا رسولًا.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾؛ الفاء للسببية، أي: فنتبع آياتك التي أرسلت بها إلينا رسولك، ونعمل بها بجوارحنا.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ معطوف على جملة: «نتبع»، أي: ونكون من المؤمنين بك، المصدقين بما جاء به رسولك بقلوبنا، المنقادين له ظاهرًا وباطنًا.

وجوب الشرط محذوف؛ أي: لعاجلناهم بالعقوبة أو لما أرسلناك إليهم.

أي: فأرسلناك يا محمد إليهم؛ لنقيم الحجة عليهم، ولنقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب الله بسبب كفرهم وضلالهم، فلا يحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير.

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فلما جاء المشركين القائلين: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾، أي: القرآن الكريم الذي أرسلنا به محمدًا ﷺ.

﴿قَالُوا﴾؛ على وجه التكذيب والتعنت والعناد، والكفر والجهل والإلحاد:

﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، «لولا»: تحريضية، أي: هلا أعطي محمد مثل الذي أعطي موسى من الآيات الظاهرة، مثل: العصا، واليد، والطوفان، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات الحسية الظاهرة.

وفي هذا تجاهل منهم عن كون القرآن أعظم الآيات، وأكبر المعجزات.

ويحتمل أيضًا: مثل ما أوتي موسى من كون التوراة أنزلت عليه جملة واحدة. فيرون لجهلهم المركب، وفهمهم الفاسد، ونظرهم القاصر؛ أن القرآن ما دام ينزل مفرقًا فليس من عند الله؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وما علموا أن من سر إعجاز القرآن، وكماله، وعناية الله تعالى به وبمن أنزله عليه؛ أن نزل مفرَّقًا؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ الاستفهام للإنكار، و«ما»

موصولة، أولم يكفروا بالكتاب الذي أوتي موسى من قبل؟!

والمراد: أولم يكفر فرعون وملؤه من المكذبين أمثالهم بالكتاب الذي أوتي موسى؟ أي: التوراة؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ۝٧٨﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ۝٤٨﴾ [المؤمنون: ٤٨].

عن مجاهد: ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ قال: يهود تأمر قريشًا أن تسأل محمدًا مثل ما أوتي موسى، يقول الله لمحمد ﷺ: قل لقريش يقولوا لهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾(١).

وقد قيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ﴾ لليهود، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾، وهذا بعيد؛ لأن السورة مكية واليهود بالمدينة.

﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿سِحۡرَانِ﴾؛ بكسر السين وإسكان الحاء من غير ألف قبلها، وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء: «سَاحِرَانِ».

أي: قال المشركون- بعد الإنكار عليهم كيف يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾؛ وقد كفر المكذبون أمثالهم بما أوتي موسى من قبل:

﴿سِحۡرَانِ﴾؛ يعنون: التوراة والقرآن، ﴿تَظَٰهَرَا﴾، أي: تعاونا في سحرهما وإضلال الناس، وصدّق كل منهما الآخر في ذلك.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: قال المكذبون بكل من الكتابين؛ التوراة والقرآن: ﴿إِنَّا بِكُلّٖ﴾، «بكل» متعلق بالخبر «كافرون»، وقُدِّم لإفادة الحصر والتوكيد والإغاظة، ﴿كَٰفِرُونَ﴾، أي: جاحدون مكذبون.

وهذا على قراءة: ﴿سِحۡرَانِ﴾؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٢٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٨٤.

ﵟٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَﵞ.

أما على قراءة: «ساحران» فقالوا: المراد محمد ﷺ وموسى عليه السلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو رزين وغيرهم: «ساحران تظاهرا» يعنون: موسى وهارون»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وهذا قول جيد».

ﵟقُلۡﵞ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين وأمثالهم من المكذبين للتوراة والقرآن: ﵟفَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِﵞ، أي: منزل من عند الله.

ﵟهُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآﵞ، أي: هو أهدى من هذين الكتابين: التوراة والقرآن، أي: هو أعظم وأكمل هداية للخلق، وأشد تأثيرًا في قلوبهم منهما.

وهذا من باب التحدي والتعجيز لهم؛ إذ لا سبيل لهم إلى هذا.

ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين القرآن والتوراة؛ لأن القرآن الكريم أعظم وأشرف وأفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، يليه في المرتبة الثانية التوراة؛ كما قال تعالى: ﵟقُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖﵞ؛ إلى قوله تعالى: ﵟوَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥ﵞ [الأنعام: ١٥٥]، وقالت الجن: ﵟإِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰﵞ [الأحقاف: ٣٠].

ﵟأَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَﵞ؛ في قولكم، هذا مبالغة في التعجيز لهم، وبيان أن تكذيبهم للتوراة والقرآن ليس طلبًا للحق والهدى، وإنما ذلك لمجرد اتباع الهوى؛ ولهذا قال: ﵟفَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَﵞ، أي: فإن لم يجيبوك عما قلت لهم من الإتيان بكتاب هو أهدى منهما؛ لعدم استطاعتهم ذلك، ولم يجيبوك فيما دعوتهم إليه من اتباع الحق بعد قيام الحجة عليهم.

ﵟفَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚﵞ، أي: فاعلم أنهم في عدم استجابتهم، وعدم اتباعهم لك، وفي كفرهم وردهم ما جئت به بلا حجة ولا دليل، ﵟأَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

(١) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٢٦٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٨٥- ٢٩٨٦.

(٢) في «تفسيره» ٦/ ٢٥٢.

أَهْوَآءَهُمْ﴾ «أنما»: أداة حصر.

أي: ما يتبعون إلا ما تهواه نفوسهم، وليسوا يطلبون الحق والهدى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؛ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد ﴿أَضَلُّ﴾، أي: أشد ضلالًا.

﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: من الذي اتبع ما تهواه نفسه الأمارة بالسوء.

﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: بغير توفيق من الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يوفق القوم الظالمين بالكفر والمعاصي واتباع أهوائهم، وذلك لأن الهوى يعمي ويصم عن الحق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد أحسن القائل:

وآفة العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقله فقد نجا[١]

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾؛ الواو استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر؛ و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد وصلنا لهم القول، أي: بلغناهم القرآن، وفصلناه لهم وبيناه، وتابعناه شيئًا بعد شيء؛ رحمة بهم ولطفًا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون ويعملون به، أي: لأجل أن يتعظوا ويعتبروا ويعملوا به.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإيتائه التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا

﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢- فضيلة التوراة وشرفها؛ لأنها أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالتنكير؛ تعظيمًا وتشريفًا لها.

٣- أن موسى إنما أوتي التوراة بعد إهلاك الأمم المكذبة؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ وفي هذا- والله أعلم كما قال المفسرون- : إشارة إلى أنه بعد نزول التوراة انقطع الإهلاك العام.

٤- أن في التوراة بصائر ودلالات يُستبصر بها من العمى، وهداية إلى طريق الحق، ورحمة للعباد؛ ليتذكروا ويتعظوا، ويعملوا بأحكامها؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٥- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى الكونية الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- تقرير رسالة النبي ﷺ، وذلك بما أخبر به عن وقائع رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾. الآية.

٧- أن النبي ﷺ لم يكن بجانب الجبل الغربي حين أوحى الله إلى موسى وعهد إليه بالنبوة والرسالة، ولم يكن من الشاهدين لذلك، وإنما أخبره الله بوحيه إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤﴾؛ الآية إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

٨- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

٩- أن الشاهد لا تقبل شهادته إلا إذا كان حاضرًا يسمع، أو شاهدًا يرى.

١٠- أن الله عز وجل أرسل نبينا محمدًا ﷺ بعد فترة من الرسل، واندراس العلم، وانطماس السبل؛ لبيان الحق، وإقامة الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا

قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

١١- أنه ﷺ لم يكن مقيمًا في أهل مدين يتلو عليهم آيات الله تعالى، وإنما أخبر عنهم فيما أخبر؛ لوحي الله تعالى إليه بذلك بالرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

١٢- أنه ﷺ لم يكن حاضرًا بجانب جبل الطور حين نادى الله موسى وكلمه؛ فينقل لنا خبر ذلك عن معاينة، وإنما رحمة من الله تعالى به وبالعباد أوحى الله تعالى إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٣- الرد على المكذبين له ﷺ، المنكرين لرسالته، المدَّعين تقوله للقرآن من ذات نفسه؛ بما أخبر به ﷺ في القرآن مما لا يمكن معرفته إلا من طريق الوحي والرسالة؛ من أخبار بعثة موسى عليه السلام، ونداء الله تعالى له، وخبر أهل مدين، وغير ذلك.

١٤- الرد على الذين يزعمون أنه ﷺ يعلم الغيب؛ لأن ما أخبر به من الغيوب السابقة أو اللاحقة إنما أوحاه الله تعالى إليه.

١٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

١٧- أن الله تعالى أوحى إليه ﷺ وأرسله رحمة؛ لإنذار مشركي مكة الذين ما أتاهم من نذير من قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وهو نذير لهم ولغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا ينافي أن إسماعيل عليه السلام قد أتاهم قبل النبي ﷺ، ولكن لما طال العهد، واندرست معالم رسالة إسماعيل وفشا الشرك فيهم، وصاروا محتاجين إلى النذر ما جاءهم طوال هذه الفترة نذير قبله ﷺ؛ فأرسله عز

وجل إليهم، وبه ختمت الرسالات، وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

١٨- أن الحكمة من إرساله ﷺ؛ ليتذكر الناس ويتعظوا بامتثال أمر الله، واجتناب نهيه، وطلب مرضاته، والحذر من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٩- أن هؤلاء المكذبين لو تصيبهم عقوبة بسبب ما هم عليه من الكفر والمعاصي قبل إنذارهم لقالوا: ربنا، هلا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك قبل أن تعذبنا ونكون من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٢٠- أن ما يقع من المصائب والعقوبات؛ إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا﴾.

٢٢- أنه بعد حلول العذاب لا مجال لاتباع الآيات والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

٢٣- كذبهم في دعواهم أنه لو أرسل الله إليهم رسولًا اتبعوا الآيات وآمنوا، وكفرهم بالقرآن لما جاءهم من عند الله، وعنادهم وتعنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، أي: مثل ما أوتي موسى من الآيات والمعجزات الحسية الظاهرة، كالعصا واليد، ونحو ذلك، أو مثل ما أوتي موسى من كون التوراة أنزلت عليه جملة واحدة.

٢٤- تجاهل المشركين المكذبين أن القرآن الكريم أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، وفهمهم الفاسد، ونظرهم القاصر، وجهلهم، بطعنهم في كون القرآن منزلًا من عند الله، بسبب كونه ينزل مفرقًا، ولم ينزل جملة واحدة، وما علموا أن ذلك من أسرار

إعجازه.

٢٥- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق من عند الله.

٢٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وتأييد الله له بالآيات.

٢٧- أنه لا حجة للمشركين في تكذيبهم النبي ﷺ بدعوى أنه لم يؤت مثل ما أوتي موسى من الآيات الظاهرة؛ لأنه ﷺ أوتي القرآن الكريم، وهو الآية الكبرى، والمعجزة العظمى، ولأن موسى عليه السلام كُذِّب مع ما جاء به من الآيات الظاهرة؛ كما أنه لا حجة لهم في تكذيبهم بالقرآن؛ لكونه لم ينزل جملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، وفي هذا إفحام لهم بإبطال قولهم بفعلهم.

٢٨- جرأة المشركين والمكذبين على وصف القرآن والتوراة بأنهما سحران تعاونا، وإظهارهم كفرهم بكل منهما، وعلى وصف النبي ﷺ وموسى عليه السلام بأنهما ساحران تعاونا، وكفرهم بهما وهذا ديدن المكذبين للرسل وأتباعهم من الدعاة إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

٢٩- التنزل معهم، وتحديهم أن يأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، ويتبعه ﷺ إن كانوا صادقين أن هناك ما هو أهدى منهما؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

٣٠- إثبات أن التوراة والقرآن كل منهما من عند الله.

٣١- إعلامه عز وجل له ﷺ بأنهم إن لم يستجيبوا له بالإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن؛ لعدم استطاعتهم ذلك، ولم يستجيبوا له باتباعه والإيمان بما جاء به بعد قيام الحجة عليهم؛ فإنهم إنما يتبعون أهواءهم، وليسوا يطلبون الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

وفي هذا دلالة على جواز التعليق بالشرط فيما هو محقق الوقوع، كما في الحديث: **«وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز – ما يقال عن دخول القبور والدعاء لأهلها ٩٧٤- من حديث عائشة رضي الله عنها، ٩٧٥- من حديث بريدة رضي الله عنه.

٣٢- أن من لم يستجب للرسول ﷺ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول ﷺ؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، بل ذهب إلى هوى.

٣٣- أنه لا أحد أضل طريقًا ممن اتبع هواه، وتنكب هدى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾، وفي هذا دلالة على اختلاف مراتب الناس في الضلال.

٣٤- أنه لا هادي ولا موفق للحق وإلى الطريق المستقيم إلا الله عز وجل.

٣٥- أن الهوى قد يكون موافقًا للهدى، وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[1].

٣٦- حرمان الظالمين من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ بسبب ظلمهم بالكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٣٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لم يقدر أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وفيها أيضًا: رد على الجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مجبور على أفعاله وأقواله لا اختيار له؛ لأنه لو كان هذا صحيحًا لكانت نسبة الظلم إليهم ووصفهم به ظلمًا، والله تعالى لا يظلم أحدًا.

٣٨- إقامة الحجة على الخلق بتبليغهم القرآن وتفصيله وبيانه لهم؛ لعلهم يتذكرون ويتعظون، ويعملون بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٢ رقم (١٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾، أي: الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: هم بالقرآن يصدقون ويعملون به.

والمراد بهذا: العلماء الأولياء منهم، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، أمثال ورقة بن نوفل، وصهيب، وعبدالله بن سلام، ورفاعة القرظي وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا يقرأ عليهم القرآن، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾،قالوا ذلك مباشرة؛ أي: صدقنا به قولًا وعملًا واعتقادًا.

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ تعليل لقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، أي: لأنه الحق الثابت المنزل من ربنا، أخباره صدق، وأحكامه عدل.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾، أي: إنا كنا من قبل القرآن ونزوله على محمد ﷺ.

﴿مُسْلِمِينَ﴾، أي: موحدين مستسلمين لله تعالى ظاهرًا وباطنًا، آمنا بالكتاب الأول، وآمنا بالقرآن؛ لأن كلًّا منهم مصدق للآخر، فالتوراة والإنجيل أخبرتا عن بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه، وهو مصدق لهما، ومصداق ما أخبرتا به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أي: الذين آمنوا من أهل الكتاب بكتابهم، وآمنوا بالقرآن.

﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، أي: يعطون أجرهم مرتين: أجر إيمانهم بكتابهم، وأجر إيمانهم بالقرآن الكريم.

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب صبرهم على اتباع الحق، والانقياد له في كتابهم وفي القرآن، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على الطاعة، وعن معصية الله، وعلى أقداره المؤلمة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها وأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها**»[1].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أي: ويدفعون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون السيئة

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، تعليم الرجل أمته وأهله ٩٧، ومسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته ١٥٤، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٦.

بالسيئة، بل إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالإحسان بالعفو والصفح عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وأيضًا: يدرؤون بالحسنة السيئة من فعلهم بأنفسهم، فإذا فعلوا سيئة أتبعوها بفعل الحسنة، فتمحوها وتدفعها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ومن الذي رزقناهم وأعطيناهم ينفقون من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغيرهم ممن تجب نفقتهم، ومن النفقات المستحبة كالصدقة والهدية.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾؛ اللغو: الباطل، وما لا نفع فيه، ولا فائدة منه.

﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، بقلوبهم وأبدانهم، ولم يصغوا إليه، ولم يخالطوا أهله ولم يعاشروهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، أي: كل منا سيجازى بعمله الذي عمله وحده، فلا تُسئلون عن أعمالنا، ولا نُسئل عن أعمالكم، ونحن نتبرأ مما أنتم عليه من اللغو والباطل.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: سلام عليكم منا، ومفارقة لكم، فلا نستمع للغوكم.

﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: لا نريدهم ولا نسلك طريقهم، ولا نصحبهم، ولا نقابل جهلهم بمثله. والمراد بالجاهلين: السفهاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذا يوحي بأن أهل اللغو يريدون منهم أن يصانعوهم ويوافقوهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

سبب النـزول:

عن المسيب رضي الله عنه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال آخر ما كلمهم: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «**والله، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «**قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**». قال: لولا أن تعيرني قريش؛ يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾»(٢).

وعلى هذا جمهور الصحابة رضي الله عنهم: أنها نزلت في أبي طالب.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي: إنك يا محمد لا تستطيع هداية من أحببت هداية توفيق بجعل الإيمان في قلبه، لا أنت ولا غيرك من الخلق.

لأنه إذا كان ﷺ لا يستطيع هداية من أحب فغيره من الخلق لا يستطيع ذلك من باب أولى؛ لأن ذلك مما اختص الله تعالى به؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، أي: يهدي هداية توفيق ﴿مَن يَشَاءُ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ٤٧٧٢، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز، النهي عن الاستغفار للمشركين ٢٠٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥، والترمذي في تفسير سورة القصص ٣١٨٨، وأحمد ٢/ ٤٣٤.

هدايته وتوفيقه للإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فالمراد بالهداية في الآية: هداية التوفيق والقبول؛ كما أن المراد بالمحبة في قوله ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: المحبة الطبيعية، لا المحبة الشرعية.

قال ابن القيم: «وقد ثبت في «الصحيحين» أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه، ويحبه حبًّا طبيعيًّا لا شرعيًّا، فلما حضرته الوفاة، وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطفه من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة»(١).

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو عز وجل أعلم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الغواية، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾، أي: وقال كفار قريش: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من العرب المشركين الذين عادوك وخالفوك.

﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾، أي: أن نقصد بالقتل والأسر والأذى في أرضنا أينما كنا. والتخطف: سرعة أخذ الشيء وانتزاعه ؛ والتاء فيه للمبالغة.

أي: فلا نأمن على أنفسنا ولا على أهلينا وأولادنا وأموالنا؛ لمعاداة الناس لنا، وهذا كذب واعتذار باطل؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾؛ الاستفهام للإنكار، والتوبيخ والتقرير، أي: أولم نجعل لهم حرمًا آمنًا معظمًا منذ وضع، يأمنون فيه من الإغارة والقتل، مما يقع على غيرهم.

أي: أما قد مكنا لهم حرمًا آمنًا. فكيف يكون هذا الحرم آمنًا في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمنًا وقد أسلموا واتبعوا الحق؟! وقد قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بالتاء على التأنيث: «تُجْبَى»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يُجْبَىٰ﴾، أي: يجلب إليه ويجمع

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٢.

ثمرات كل شيء، أي: من سائر الثمار من قريب ومن بعيد.

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، أي: عطاءً لهم من عندنا؛ بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون؛ ولهذا قالوا ما قالوا؛ كما أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويرفعهم عند الله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١- إيمان علماء أهل الكتاب المنصفين بالقرآن، وتصديقهم به؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾..

٢- إصغاؤهم واستماعهم لتلاوته، وإيمانهم به، عن اقتناع، وشهادتهم أنه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

وفي هذا كله شهادة ودلالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به، وتأنيب للجاهلين المكذبين على الكفر به، وثناء على الذين آمنوا به من أهل الكتاب ولم يستكبروا، وشهدوا بالحق ولم ينكروا.

٣- أن القرآن من عند الله تعالى، وهو الحق.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾.

٥- جمع أهل الكتاب بين الاستسلام والانقياد للكتاب الأول وللقرآن؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾.

وفي هذا جواز الثناءعلى النفس إذا كان ذلك لمصلحة وعلى سبيل الإخبار، لا الافتخار.

٦- إعطاؤهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم وانقيادهم لكتابهم وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

٧- أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما انقادوا للكتاب الأول والكتاب الثاني أوتوا أجرهم مرتين، وهذا من تمام عدل الله عز وجل.

٨- فضيلة الصبر والترغيب فيه؛ لأن عاقبته حميدة.

٩- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

١٠- أن من صفاتهم الحميدة دفع السيئة بالحسنة، وعدم مقابلة المسيء بالإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

١١- الترغيب في درء السيئة بالحسنة، بمقابلة الإساءة بالإحسان، وإتباع السيئة الحسنة تمحها؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

١٢- امتداحهم بالانفاق مما رزقهم الله وأعطاهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١٣- أن الرزق كله من الله تعالى، لا رازق للخلق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

١٤- الترغيب في الانفاق من رزق الله وفضله.

١٥- إعراضهم عن اللغو إذا سمعوه، وتميزهم بأعمالهم عن أعمال أهل اللغو، ومسالمتهم لهم، وبعدهم عن الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

١٦- الترغيب في الإعراض عن اللغو وأهله، والبعد عن الجاهلين. قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1].

١٧- أن النبي ﷺ لا يستطيع هداية من أحبه هداية توفيق، وغيره من الخلق من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإنما عليه ﷺ هداية البلاغ والإرشاد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

١٨- محبة النبي ﷺ لعمه أبي طالب محبة طبيعية لا شرعية؛ لما له عليه من الأيادي البيضاء في الدفاع عنه، وعن دعوته.

١٩- جواز محبة الكافر غير المحارب محبة طبيعية لا شرعية.

٢٠- أن الله عز وجل يهدي ويوفق من شاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لقوله

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق – حفظ اللسان ٦٤٧٥، ومسلم في الإيمان – الحث على اكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، وكون ذلك كله من الإيمان ٤٧ –من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، وله الحكمة التامة في ذلك كله.

ولعل من حكمة الله تعالى في عدم إيمان أبي طالب أنه لو آمن ما تمكن من الدفاع الذي حصل منه للرسول ﷺ، إذ لو آمن لكان محل إيذاء للمشركين، لكن لما بقي على ملتهم كانوا يحترمونه، فكان من حكمة الله في بقائه على الكفر ما هو ظاهر، وإلا لما استطاع أن يحمي الرسول ﷺ تلك الحماية.

٢١- أن الله تعالى أعلم بمن هو أهل للهداية فيهديه بفضله، ومن هو أهل للغواية فيغويه بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

٢٢- أن على المؤمن الدعوة إلى الله ما استطاع، وهداية القلوب بيد علام الغيوب، فلا تذهب نفسه حسرات على من لم يهتد.

٢٣- اعتذار المشركين المكذبين للنبي ﷺ عن اتباع ما جاء به من الهدى بعذر كاذب؛ وهو خشية تخطف الناس لهم من أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾؛ وفي هذا سوء ظن بالله أنه لا ينصر دينه وأولياءه، وأن الباطل سيعلو على الحق.

٢٤- إقرارهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ الهدى.

٢٥- إبطال عذرهم الكاذب؛ لأن الله قد مكن لهم حرمًا آمنًا منذ وضع، فكيف يكون آمنًا في حال كفرهم ولا يكون آمنًا لهم بعد أن أسلموا واتبعوا الحق؟! لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾.

٢٦- الامتنان على أهل الحرم بكونه آمنًا تُجلَب إليه ثمرات كل شيء رزقًا من الله عز وجل؛ لقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

٢٧- أن أكثر هؤلاء المشركين القائلين: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ لا يعلمون؛ ولهذا قالوا هذه المقالة؛ كما أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويرفعهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

لما ذكر زعم كفار قريش أن اتباعهم له ﷺ سبب لتخطفهم، وزوال أمنهم، أتبع ذلك ببيان أن الكفر والظلم ومخالفة الرسل هو سبب هلاك كثير من أهل القرى وزوال أمنهم؛ تحذيرًا لهم. وهكذا وقع فكان هلاك كفار مكة بسبب كفرهم.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ الواو: استئنافية، و«كم»: هي الخبرية، تفيد التكثير، أي: وكثيرًا من القرى أهلكنا، والمراد: أهلها.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله تعالى عليها.

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وفي الآيتين تعريض بأهل مكة، وتحذير لهم؛ ولهذا قال بعد آية النحل: ﴿وَلَقَدْ

جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٣].

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا زمنًا قليلًا، أو إلا ساكنًا قليلًا، أي: فتلك مساكنهم باقية، خاوية خالية؛ لهلاكهم عن بكرة أبيهم، موحشة لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا، فيها أكبر العظة والعبرة للمعتبرين.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ للأرض ومن عليها؛ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ﴾، أي: حتى يقيم الحجة عليها بأن يبعث، أي: يرسل.

﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾؛ وهي مكة أم القرى وأشرفها وأعظمها؛ كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وسميت مكة: أم القرى؛ لأنها هي القرية والمدينة التي يرجع إليها وينتجعها كل ما حولها من القرى للميرة وغير ذلك.

﴿رَسُولًا﴾ وهو النبي الهاشمي الخاتم، أفضل الرسل، وسيد الخلق، نبينا محمد ﷺ.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾، أي: يقرأ عليهم آياتنا القرآن الكريم.

وفي هذا دلالة على عموم رسالته ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١٧].

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ٥٨].

أي: بعد قيام الحجة عليها ببعثة محمد ﷺ برسالته العامة لجميع القرى وعامة الخلق.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، والواو: حالية، أي: إلا والحال أن أهلها ظالمون، أي: بالكفر والمعاصي، وتكذيب الرسل، مستحقون للعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۞﴾:

قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾، أي: وما أعطيتم أيها الناس ﴿مِّن شَيْءٍ﴾؛ تمييز «ما»، أي: من شيء من الأشياء أيًا كان في هذه الحياة من المآكل والمشارب والملابس والأثاث والمراكب، وغير ذلك من الملذات.

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾، أي: فهو كله متاع الحياة الدنيا وزينتها، يتمتع به ويتزين به في هذه الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة الفانية متاعًا قليلًا مَشُوبًا بالأكدار والمنغصات، ثم يزول سريعًا، وينقضي جميعًا، ولا يبقى إلا ما أريد به وجه الله؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والنعيم المقيم لعباده الصالحين.

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مطلقًا، أي: أفضل وأعظم وأدوم من الدنيا كلها ومتاعها وزينتها.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۞﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۞﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال ﷺ: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه- يعني السبابة- في اليم، فلينظر بم ترجع؟»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ روى الدوري عن أبي عمرو: «يَعْقِلُونَ»؛ بياء الغيبة، وقرأ الباقون: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب.

والاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تكون لكم عقول تدركون بها فرق ما بين الحياة الدنيا، والدار الآخرة، وتعرفون حقارة الدنيا وفناءها، فلا تغترون بها، وعظم منزلة الآخرة وبقاءها، فتعملون لها؟ وكيف تؤثرون الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة العظيمة الباقية؟! قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧].

﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، أفيستوي المؤمن الذي عمل صالحًا ووعدناه وعدًا حسنًا بالجنة وما فيها من النعيم المقيم.

﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ لا محالة؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: كالكافر المكذب بلقاء الله ووعده ووعيده، الذي متعناه المتاع الزائل في الحياة الدنيا، يأكل ويشرب كالبهيمة.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾؛ للجزاء ومناقشة الحساب، وللخلود في النار والعذاب؟! كما قال تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن لما أشرف على صاحبه وهو في الدرجات، وذلك في الدركات: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢﴾ [الآية: ١٢].

وشتان شتان بين من آمن وعمل صالحًا ووعده الله وعدًا حسنًا بدخول الجنة فهو لاقيه وصائر إليها، وبين من كفر وتمتع في الحياة الدنيا كالبهيمة، ثم هو يوم القيامة من المحضرين إلى النار، شتان بين العاملين، وشتان بين الجزاءين.

٤١٠٨؛ من حديث المستورد رضي الله عنه.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

لما ذكر سوء حال المشركين والكفار، وتوعدهم بإحضارهم إلى النار، أتبع ذلك بذكر تقريعهم وتوبيخهم على اتخاذ الشركاء مع الله.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي: واذكر يوم ينادي الله عز وجل المشركين ويسألهم منكرًا عليهم، وموبخًا لهم، ومبينًا عجز شركائهم، ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم:

﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، وفيه معنى النفي، أي: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم لي شركاء، واتخذتموهم آلهة من دوني، ترجون منهم جلب النفع لكم، ودفع الضر عنكم؟ أين هم بذواتهم؟ وأين هم بنفعهم لكم ودفعهم عنكم عذاب الله؟.

كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الآيتان: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي: الذين وجب وتعين وتحتم وثبت عليهم القول، أي: الذين حقت عليهم كلمة العذاب الشديد في النار، وهم رؤوس الكفر

---

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

ودعاة الضلال منهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: يا ربنا، هؤلاء، يشيرون إلى أتباعهم.

﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾، أي: الذين أوقعناهم في الغي والضلال.

﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، أي: دعوناهم للغواية فاتبعونا؛ كما دعانا غواة قبلنا فاتبعناهم، وكلنا مشترك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، أي: أننا لم نكرههم على الغواية.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: نحن براء إليك منهم ومن عبادتهم وعملهم.

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾؛ «ما»: نافية، أي: ما كانوا يعبدوننا نحن.

فشهدوا أنهم أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرؤوا منهم ومن عبادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]،

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: نادوهم واسألوهم أن يخلصوكم مما أنتم فيه من العذاب؛ كما كنتم ترجون ذلك منهم وتؤملونه فيهم.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فنادوهم وهتفوا بهم وسألوهم.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، والسين والتاء: للمبالغة، أي: فلم يجيبوهم، فيدفعوا عنهم عذاب الله.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: وشاهدوا العذاب الذي كانوا يكذبون به، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾؛ «لو»: حرف شرط جازم، وجواب الشرط محذوف، تقديره: لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب في الآخرة.

وحمل بعضهم «لو» على أنها حرف تمنٍّ، أي: ودوا وتمنوا حين عاينوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾، أي: لو أنهم كانوا في الحياة الدنيا يهتدون إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ويتحرونه ويتطلبونه، ويستمعون لمن يدعوهم إليه، فندموا حيث لا ينفع الندم، فلو كانوا يهتدون في الدنيا إلى طريق الحق، لاهتدوا في الآخرة إلى طريق الجنة، ونجوا من العذاب.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٢ – ٥٣].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ سألهم أولًا عن التوحيد، ثم سألهم هنا عن إثبات النبوات وتصديق المرسلين.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي: واذكر يوم يناديهم، أي: يسألهم.

﴿فَيَقُولُ﴾؛ في سؤاله إياهم: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي به أجبتم المرسلين الذين دعوكم إلى توحيد الله ونبذ الشرك؟ هل صدقتموهم واتبعتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ كما يسأل الإنسان في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قعد المؤمن في قبره أُتيَ ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**وأما المنافق والمرتاب**

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣، والترمذي في الزهد ٦٩، وأبو داود في السنة ٤٧٥٠.

فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»(١).

والمراد بالمرسلين: ما يعم جميع المرسلين سواء كان الخطاب لجميع المشركين من سائر الأمم، أم للمشركين من هذه الأمة؛ لأن من كذب محمدًا ﷺ أو غيره من الرسل فقد كذَّبَ جميع المرسلين، ومن صدقه أو غيره من الرسل فقد صدق جميع المرسلين.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾، أي: فخفيت عليهم الأخبار، وانطمست عليهم الحجج، فلم يجدوا جوابًا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة في ذلك الموقف العصيب، فأخرسوا وسكتوا، فلم يحيروا جوابًا.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: لا يتساءلون عن الأنباء؛ لأنهم لو سألوا ما وجدوا خبرًا، ولا يتراجعون بينهم فيماذا يجيبون به ولو كان كذبًا؛ لشدة الهول والموقف، وعلمهم أنهم لم يقابلوا الرسل إلا بالتكذيب والعناد، فأي جواب يجيبونه؟ فآثروا السكوت.

وقيل: لا يتنادون بالقرابة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾، أي: رجع وأناب إلى الله تعالى مما هو عليه من الشرك والكفر، ﴿وَءَامَنَ﴾؛ بقلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما أوجب الله تعالى الإيمان به.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: وعمل عملًا صالحًا بجوارحه، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج البيت الحرام، وغير ذلك مما أوجبه الله تعالى على المؤمن من الأعمال، كبر الوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك، مع القيام بما استطاع من الأعمال المندوبة.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ وأبقى الصفة؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب الشرط «من»، أي: فعسى أن يكون من اتصف بهذه الصفات: التوبة والإيمان، والعمل الصالح.

﴿مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ الفائزين بالجنة والثواب، الناجين من النار والعذاب، السعداء في الدنيا والآخرة.

و«أن» والفعل «يكون» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «عسى» و.

و«عسى» من الله واجبة، أي: أن هذا وعد واقع بفضل الله ومنِّه لا محالة.

الفوائد والأحكام:

١- الإخبار بكثرة القرى التي أهلكها الله بسبب كفرها بنعم الله تعالى، فصارت مساكنهم خاوية خالية موحشة لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾.

٢- وجوب شكر النعم والتحذير من كفرها وتعريضها للزوال بالكفر أو المعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

٣- أن الله عز وجل هو الوارث للأرض ومن عليها، وإليه يرجعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

٤- إقامة الحجة على الخلق قبل إهلاكهم، وأن الله عز وجل ما كان مهلك القرى المشركة الكافرة حتى يبعث في أمها رسولًا يتلو عليهم آياته، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له والإيمان به، ويقيم بذلك الحجة عليهم، وفي هذا تعريض بالمشركين وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾.

وقد بعث عز وجل في أم القرى مكة سيد الرسل وخاتمها نبيَّنا محمدًا ﷺ، فأقام به الحجة على الخلق جميعًا.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٦- إثبات رسالته ﷺ وبعثته في أم القرى مكة شرفها الله تعالى رسالة عامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل، وأنه ما كان مهلك القرى- بعد إقامة الحجة على أهلها- إلا بظلم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

٨- التحذير من الظلم بالكفر والشرك والمعاصي وغير ذلك؛ لأنه سبب هلاك العباد، وخراب البلاد.

٩- أن كل ما أوتيه الخلق في هذه الحياة من النعم فهو مجرد متاع الحياة الدنيا وزينتها الحقيرة الفانية الزائلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾.

١٠- أن ما عند الله من الأجر العظيم والنعيم المقيم لعباده الصالحين؛ أفضل وأعظم وأدوم من الدنيا كلها ومتاعها وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

١١- التزهيد في الدنيا ومتاعها وزينتها الفانية، والترغيب في الآخرة وثوابها ونعيمها المقيم.

١٢- الإنكار والتقريع لمن كفر وأشرك بالله وآثر الدنيا وزينتها الزائلة، على الآخرة ونعيمها المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أن من اختار الكفر على الإيمان وآثر الدنيا على الآخرة فليس بعاقل وإن ادعى ذلك.

١٤- شتان بين من آمن وعمل صالحًا ووعده الله تعالى وعدًا حسنًا بالجنة ونعيمها، وهو لاقيه لا محالة، وبين من كفر ومتع متاع الحياة الدنيا كالبهيمة، وتُوعد بكونه يوم القيامة من المحضرين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

١٥- الترغيب والإغراء بالإيمان؛ لوعد الله الحسن المحقق للمؤمنين، والترهيب والتحذير من الكفر لما تُوعد به الكفار من إحضارهم إلى النار.

١٦- إثبات القيامة، والحساب والجزاء، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.

١٧- نداء الله عز وجل وسؤاله المشركين عن إثبات التوحيد، وسؤاله إياهم عن شركائه الذين أشركوهم معه بزعمهم: أين هم؟ وأين نفعهم لهم ودفعهم عنهم؟ وذلك إنكارًا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لبطلان شركهم، وعجز شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

١٨- إثبات النداء والكلام لله عز وجل بحرف وصوت يسمع؛ كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

١٩- تبرؤ الذين حق عليهم كلمة العذاب من دعاة الكفر ورؤساء الضلال ممن أغووهم من الأتباع، وأنهم أغووا هؤلاء الأتباع، كما غووا هم قبلهم، وكلهم مشترك في الغواية والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ﴾.

٢٠- إنكار المعبودين من دون الله عبادة عابديهم؛ لقولهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

٢١- أمرهم بدعاء شركائهم وسؤالهم أن يخلصوهم مما هم فيه من العذاب تبكيتًا لهم، وإظهارًا لعجزهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾.

٢٢- دعاؤهم وسؤالهم شركاءهم؛ ليخلصوهم من العذاب، وعدم استجابتهم لهم؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم نفعًا ولا ضرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾.

٢٣- رؤيتهم العذاب، وتيقنهم أنهم صائرون إلى النار لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾.

٢٤- تمنيهم ومودتهم لما رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون؛ لقوله تعالى:

﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾.

٢٥- نداء الله تعالى لهم، وسؤاله إياهم ثانيًا عن إثبات النبوات وتصديق المرسلين، وهو نداء لجميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾.

٢٦- خفاء الأنباء عليهم، وسكوتهم وعجزهم عن الجواب، وعن التساؤل والتراجع بينهم فيما يجيبون به؛ لهول الموقف وشدة الأمر، وعلمهم أنهم لم يقابلوا الأنبياء إلا بالتكذيب؛ ولهذا آثروا السكوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾.

٢٧- أنه في ذلك اليوم لا يسأل أحدٌ أحدًا، ولا يغني أحد عن أحد.

٢٨- وعد الله تعالى المحقق، الذي لا يخلف لمن تاب من الشرك والكفر، وآمن بقلبه، وعمل صالحًا بجوارحه بكونه من المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾.

٢٩- الترغيب في التوبة والإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله رتب على ذلك الفلاح.

٣٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾؛ الآية، فلا بد من التخلي أولًا عما يضاد الإيمان من الكفر والشرك، ونحو ذلك، ثم الدخول في الإيمان.

٣١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، والعمل الصالح بالجوارح الظاهرة.

٣٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة النبي ﷺ.

٣٣- أن «عسى» من الله واجبة، أي: دالة على الوعد المحقق من الله عز وجل؛ لأنه سبحانه لا يخلف وعده؛ كما قال عز وجل ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وربك يا محمد يخلق الذي يشاء خلقه من المخلوقات؛ لأنه الرب المتفرد بالخلق سبحانه وتعالى ﴿وَيَخْتَارُ﴾، أي: ويصطفي من خلقه ويجتبي الذي يشاء، من الأشخاص والأماكن والأزمان والأوامر والأحكام وغير ذلك؛ لأنه الرب المتفرد بالملك والتدبير: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، ولم يقل: «من يشاء» تغليبًا لغير العاقل؛ لأنه أكثر، أو لأنه روعيت الأوصاف.

قال ابن القيم: «وليس المراد ههنا بالاختيار: الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار ههنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ فإنه لا يخلق إلا باختياره، وداخل في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ فإن المشيئة هي الاختيار، وإنما المراد بالاختيار ههنا: الاجتباء

والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق»[(١)].

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ «ما»: نافية، أي: ما كان للخلق الاختيار لأنفسهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقيل: يجوز كون «ما»: موصولة، أي: ويختار الذي لهم الخيرة.

والصحيح: أنها نافية؛ لأن الآية في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له؛ ولهذا قال بعده: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال ابن القيم: «وأصح القولين: أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ ويكون: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ نفيًا، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده؛ فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ موصولة، وهي مفعول «يختار»، أي: ويختار الذي لهم الخيرة. وهذا باطل»، ثم ذكر بطلانه من ستة أوجه[(٢)].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزيهًا لله عز وجل ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: وتعاظم وتقدس.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: عن شركهم، أو موصولة، أي: عن الذي يشركون به من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، و«ما»: مصدرية، أي: وربك يعلم الذي تكنه صدورهم، أي: تخفيه وتضمره قلوبهم، وتستره من الكفر وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٣.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٣- ٣٥٥.

نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، أي: ويعلم الذي يعلنونه ويظهرونه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو؛ كما لا رب يخلق ويختار سواه.

﴿لَهُ﴾، أي: له خاصة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ «ال» للاستغراق والاستحقاق، أي: له وحده جميع المحامد، ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله عز وجل الحمد المطلق، وهو المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والكمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، أي: وله خاصة الحكم المطلق التام في الدنيا والآخرة، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

لما استدل على انفراده بالإلهية بصفات ذاته؛ أتبع ذلك بالاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته وجلائل نعمه ورحمته، مع التعريض بكفر المشركين.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ الاستفهام للتقرير في الموضعين؛ أي قل: أخبروني إن صيَّر الله عليكم الليل سرمدًا، أي: مستمرًّا دائمًا أبدًا بلا انقطاع؛ مما يضر بكم وبأبدانكم وحياتكم.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: من إله ومعبود سوى الله من آلهتكم ومعبوداتكم وغيرها، بزعمكم، يأتيكم بنهار ونور بتسخيره الشمس؟! كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥].

والجواب: لا إله غير الله يأتيكم به.

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ الاستفهام: إنكاري، أي: أفلا تسمعون سماع فهم وانتفاع ما يتلى عليكم من الآيات البينات، فتقرون بوحدانية الله تعالى، وأنه لا إله غيره؛ كما أنه لا رب سواه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: إن صيّر الله عليكم النهار ﴿سَرْمَدًا﴾؛ مستمرًّا دائمًا بلا انقطاع إلى يوم القيامة.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: من إله غير الله من آلهتكم وغيرها.

﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، أي: تستريحون فيه من كثرة الحركة والعمل والأشغال بالنهار.

والجواب: لا إله غير الله يأتيكم به.

ووصف الليل بقوله: ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ ولم يصف النهار بشيء- والله أعلم- لكثرة منافعه، واختلاف أنواعها، وعدم حصرها.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا تبصرون هذه الأشياء الدالة على عظيم صنع الله إبصار تَفَهُّم وانتفاع، تهتدون به إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، وأنه لا إله غيره؛ كما أنه لا رب سواه.

وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقال في النهار: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ والله أعلم؛ لأن سلطان السمع في الليل أقوى من سلطان البصر، وسلطان البصر في النهار

أقوى من سلطان السمع.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

بعد أن ذكرهم بنعمة تعاقب الليل والنهار، وخوَّفهم من سلبها، بيَّن لهم أن ذلك من رحمته بهم.

قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ متعلق بـ«جعل»، وقُدِّم عليه للاهتمام بمنة الرحمة، و«من»: سببية؛ أي: وبسبب رحمته بكم وبجميع المخلوقات.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: خلق لكم الليل والنهار، وجعلهما يتعاقبان ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ اللام في الموضعين: للتعليل، أي: لتسكنوا في الليل، أي: تستريحوا فيه من النصب والتعب بعد العمل بالنهار.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أي: ولأجل أن تطلبوا من فضل الله؛ أي: من عطائه ورزقه في النهار، بالحركة والعمل والأشغال والأسفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وهذا من باب اللف والنشر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على إنعامه عليكم بتعاقب الليل والنهار، باستحضار هذه النعمة العظيمة ونسبتها إلى مسديها وهو الله عز وجل، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقال ﷺ: «**إن الله يبسط يه في الليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار؛ ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ

---

(١) سبق تخريجه.

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، وبيان بطلان شركهم، وعجز شركائهم.

ولأهمية هذا النداء، والتحذير من الشرك أكَّد هذا السؤال مرة ثانية في هذا الموضع، وقد سبق في الآية [٦٢].

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: وأخرجنا من كل أمة من الأمم المكذبة بعد جمعهم يوم القيامة ﴿شَهِيدًا﴾؛ يشهد عليهم، وعلى ما جرى منهم في الدنيا من الكفر، وتكذيب الرسل، والشرك بالله، وغير ذلك.

واختلف في المراد بهذا الشهيد، فقيل، هو نبيهم، وقيل: هو كبيرهم وزعيمهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي فقلنا تحديا لهم: أعطونا دليلكم وحجتكم على ما زعمتم من الشركاء لله، وهل أمرناكم بذلك؟ أو هل كان فيهم من يستحق العبادة من دون الله؟ أو يغني عنكم شيئًا؟

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فعلموا أن الحق في العبادة لله تعالى وحده، حين لا ينفعهم ذلك، فأُخرسوا فلم يحيروا جوابًا، ولم ينطقوا بكلمة.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: وذهب وغاب عنهم الذي كانوا يفترونه في الدنيا، أي: الذي كانوا يختلقونه من الكذب والشرك والشركاء.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة وصف الربوبية إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

٢- إثبات تمام قدرته عز وجل، وأنه وحده الذي يخلق ما يشاء من المخلوقات؛ لأنه الرب المتفرد بالخلق وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

وهذا يوجب عبادته وحده، وبطلان عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾.

٤- اختياره عز وجل واصطفاؤه واجتباؤه ما يشاء من خلقه، من الأشخاص والأزمان والأماكن، والأوامر والأحكام، وغير ذلك؛ لأنه الرب المالك المدبر وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾.

٥- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لأن الاختيار مبني على الإرادة، كونية أو شرعية.

٦- أنه ليس لأحد أن يختار لنفسه إلا ما اختاره الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.

والمعنى: ما كان لهم الخيرة المطلقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وليس في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي أن يكون للإنسان اختيار- كما تقوله الجبرية. قال الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].

فأثبت عز وجل للإنسان إرادة ومشيئة واختياراً. لكن اختيار الإنسان وإرادته ومشيئته وفق ما اختاره الله تعالى وأراده وشاءه له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

٧- تنزيهه عز وجل لنفسه، وتعظيمه لها، عما يشرك المشركون به من الأصنام والأنداد، وعن شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٨- علم الله تعالى التام بما يُسِر الخلائق في قلوبهم وما يعلنون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾. وهذا يوجب مراقبة الله في السر والعلن.

٩- إثبات تفرده عز وجل وحده بالألوهية، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- اختصاصه واستحقاقه عز وجل المحامد كلها في الدنيا والآخرة؛ لما له من صفات الكمال، ولما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾.

١١- تفرده عز وجل بالحكم في الدنيا والآخرة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

١٢- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٣- الامتنان على العباد بخلق الليل والنهار، وجعل النهار مضيئًا ووقتًا للعمل، والليل مظلمًا ساكنًا ووقتًا للراحة والسكون، وبين تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

١٤- تخويف العباد وتحذيرهم من تغيير هذه النعمة عليهم؛ بجعل الليل عليهم سرمدًا إلى يوم القيامة، فلا إله غيره يأتيهم بضياء، أو بجعل النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، فلا إله غيره يأتيهم بليل يسكنون فيه.

١٥- تحدي المشركين أن تجلب لهم معبوداتهم من دون الله نفعاً، أو تدفع عنهم ضرًّا.

١٦- الإنكار على المكذبين وتقريعهم وتوبيخهم على عدم سماعهم الآيات سماع تفهم وتدبر وانتفاع؛ وعدم تبصرهم وتأملهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

١٧- تفرده عز وجل وحده بالخلق والأمر، لكمال ربوبيته ووحدانيته؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١٨- أن النعم إنما تقاس بضدها، وتعرف بفقدها، فلا يعرف قيمة الإنعام إلا من تذوق مرارة الحرمان، وكما قيل: «الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى»، «وبضدها تتميز الأشياء»؛ لهذا يجب على العبد أن يوازن بين ما هو فيه من

النعم بفقدها؛ ليعرف تمامًا موضع المنة وقدر النعمة، فيشكر الله تعالى على ذلك.

١٩- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الآية.

٢٠- أن من رحمته عز وجل بعباده أن خلق لهم الليل والنهار؛ ليسكن الناس في الليل، وليطلبوا من فضله ورزقه في النهار، ويشكروه على تعاقب الليل والنهار، بطاعته، وطلب مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

٢١- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وأحكامه، وأن منها ما هو قدري، كالعلة في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ومنها ما هو شرعي، كالعلة في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٢- أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها: أن جعل الليل وقتًا للسكن والراحة والنوم، وجعل النهار وقتًا للعمل وطلب المعاش، وهذا هو الأصلح والأصح لقوى الإنسان البدنية والعقلية والنفسية، فمن عكس الأمر أضر بجميع هذه القوى.

٢٣- إثبات صفة الرحمة الذاتية لله تعالى، والرحمة الفعلية التي يوصلها إلى عباده.

٢٤- أن الفضل والرزق والعطاء كله من الله تعالى.

٢٥- الترغيب بشكر نعمة الله عز وجل بجعل الليل والنهار خلفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

٢٦- نداء الله عز وجل للمشركين، وسؤاله إياهم عن شركائهم الذين أشركوهم معه: أين هم؟ وأين نفعهم لهم ودفعهم عنهم؟ إنكارًا عليهم، وتقريعًا وتبكيتاً لهم، وبيانًا لعجز شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

٢٧- إخراجه عز وجل من كل أمة من الأمم المكذبة- بعد جمعهم يوم القيامة- شهيدًا عليهم بأعمالهم السيئة من تكذيب الرسل والكفر والشرك، وغير ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

٢٨- مطالبتهم بالإتيان ببرهانهم وحجتهم ودليلهم على ما زعموا من الشركاء لله؛ تحديًا لهم وتبكيتًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

٢٩- عجزهم عن الإتيان ببرهان على ما زعموه من الشركاء لله تعالى، وعلمهم تمامًا ذلك اليوم أن الحق في العبادة لله تعالى وحده، وأن لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، وبطلان ما كانوا عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

٣٠- ذهاب وغياب ما كانوا يفترونه ويختلقونه كذبًا من الشرك والشركاء، وشفاعتهم لهم، وتخليهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في تكذيبهم الحق، وتعاظمهم بجاههم وأموالهم؛ كما في قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقولهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

كما وبخهم على هذا في مواضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: ١١]، وقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ﴾

[المدثر: ١١-١٦].

قوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، أي: من قوم موسى بني إسرائيل، صدقه وآمن به، قال أكثر المفسرين: هو ابن عم موسى.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: طغى وتجاوز حده في الكبر والعلو والتجبر عليهم؛ مغترًا بكثرة ماله.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، أي: وأعطيناه من الخزائن والأموال الشيء الكثير العظيم.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾؛ «ما»: اسم موصول في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ«آتيناه»، أي: الذي إن مفاتحه، و«إن»: للتوكيد، و«مفاتح»: جمع «مِفْتَح» بكسر الميم وفتح التاء؛ وهو: آلة الفتح، ويسمى «مِفْتاحًا»، وجمعه: «مفاتيح».

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لَتَثْقُل بالعصبة؛ أي: تُثْقِلُهم، أي: يثْقُل حملها على العصبة، أي: على الجماعة الكثيرة، التي يعصب بعضها بعضا.

﴿أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: أصحاب القوة، أي: على الجماعة الكثيرة القوية من ثقل حملها هذه المفاتح، فما بالك بالخزائن؟!

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، أي: حين قال له قومه المؤمنون، ناصحين له، ومحذرين له من الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، أي: لا تفرح فرح بطر وأشر وتكبر، ومرح وفخر واختيال وبغي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ تعليل للنهي عن الفرح، أي: لأن الله لا يحب الفرحين بما أوتوا فرح بطر وأشر واختيال، وانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى، وعن شكره.

وليس من هذا أن يفرح المؤمن بنعمة الله تعالى عليه الدينية والدنيوية؛ اغتباطا منه بذلك، واعترافًا بفضل الله ورحمته، وشكرا له على ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فهذا فرح محمود يؤجر عليه المؤمن.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾، أي: والتمس واطلب في الذي أعطاك الله من الأموال الكثيرة والكنوز العظيمة.

﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: ما يقربك إلى الله تعالى، وتنجو به من النار وتفوز به بالجنة.

وذلك باستعماله في طاعة الله تعالى، والاستعانة به على ذلك، والإنفاق منه في سبيل الله، والتصدق به في أنواع القربات.

قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] فالمراد بالدار الآخرة الجنة.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: ولا تترك حظك من الدنيا باستعمال بعض ما آتاك الله وصرفه فيما أباح الله لك من المآكل والمشارب، والملابس، والمساكن والمراكب، والمناكح، وغير ذلك.

كما في حديث أبي جحيفة رضي الله عنه: أن سلمان الفارسي قال لأبي الدرداء رضي الله عنهما: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعطِ كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»(١).

وقال ﷺ **لعبد الله بن عمرو** بن العاص رضي الله عنهما: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فاعط كل ذي حق حقه»(٢).

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾؛ «ما»: مصدرية، والكاف: للتعليل، أي: وأحسن في عبادة الله تعالى، وأحسن إلى عباد الله؛ كما أحسن الله إليك بما وهبك من هذه الأموال.

ويؤخذ من فحوى هذا: تحذيره من مقابلة الإحسان بالإساءة.

﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: ولا تبغ الفساد في الأرض بالعلو والتكبر، والأشر والبطر والاختيال، والمعاصي ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٥، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩١، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ تعليل للنهي عن ابتغاء الفساد في الأرض، أي: لأن الله لا يحب المفسدين.

وإذا كان عز وجل لا يحبهم فهو يبغضهم؛ لأن الصفات المنفية تدل على إثبات ضدها، ومن أبغضه الله عاقبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال قارون رادًّا لنصيحة قومه، كافرًا بنعمة ربه، مغترًّا بنفسه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: إن ما أعطيته من الكنوز والأموال الكثيرة، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، أي: على علم عندي بوجوه المكاسب، ومعرفتي وحذقي، وحولي وقوتي، وعلم الله أني مستحق لذلك؛ لفضلي ورضاه عني.

قال ابن القيم: «أي: على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجبه، وأستأهله»(١).

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أستحقه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقرير. وجملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ سدت مسد مفعولي

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٧- ٣٥٨.

«يعلم».

أي: أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك من قبله من الأمم المكذبة الباغية.

﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ أي في بدنه، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؟ أي: أكثر جمعًا للمال وتحصيلاً، وأكثر مالًا منه، أي: أنه قد علم ذلك، وتجاهله.

فلم يكن إعطاؤهم القوة والأموال دليلًا على رضا الله تعالى عنهم، ومنزلتهم عنده، واستحقاقهم لذلك، وإنما كان ابتلاءً واختبارًا لهم واستدراجًا؛ كما لم يمنع ما أعطوه من القوة والأموال من إهلاكهم لَمَّا خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله، وكفروا وطغوا وبغوا.

وفي هذا تهديد لقارون بسبب بغيه وطغيانه، وكفره وعدم شكره، ورد لزعمه كذبًا أن ما أوتيه من المال لعلمه وفضله، واستحقاقه لذلك.

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ المجرمون: مرتكبوا الجرائم، من الكفر والمعاصي، أي: لا يسألون سؤال استخبار؛ لعلم الله تعالى بهم وبذنوبهم؛ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩].

لكنهم يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ وتبكيت وتنديم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾، أي: فخرج قارون ذات يوم على قومه من بيته.

﴿فِي زِينَتِهِ﴾؛ في أبهى وأجمل وأرفع ما يكون من الملابس والمراكب؛ في خدمه وحشمه وغير ذلك؛ أي: في زينته التي كان يفخر بها على قومه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الذين منتهى إرادتهم وغاية مبتغاهم ورغبتهم ومطلبهم الحياة الدنيا وزينتها، ليس لهم إرادة سواها.

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾، أي: نتمنى أن يكون لنا مثل الذي أعطي قارون من الكنوز والأموال ومتاع الدنيا وزينتها.

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ تعليل لتمنيهم أن يكون لهم مثله، أي: لأنه ذو حظ عظيم، أي: إنه لصاحب نصيب عظيم، فغبطوه على ما هو فيه؛ مما لا يغبط عليه؛ بسبب نظرتهم القاصرة، وإرادتهم الدنيوية الحقيرة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: الذين أعطاهم الله العلم، وانتفعوا بعلمهم، وعرفوا حقائق الأشياء، وعرفوا عظم ما وعد الله به في الآخرة- مخاطبين الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون:

﴿وَيْلَكُمْ﴾؛ كلمة زجر وتعجب، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾، أي: جزاء الله في الدنيا والآخرة مما لا يقدر قدره، أو جزاء الله في الآخرة في الجنة.

﴿خَيْرٌ﴾؛ مطلقًا مما أوتي قارون في الدنيا.

﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، أي: للذي آمن بقلبه، وعمل عملًا صالحًا بجوارحه.

كما قال ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]» (١).

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾، أي: ولا يتقبل هذه النصيحة ويوفق للعمل بها، أو لا يوفق لهذه الخصلة، وهي الإيمان والعمل الصالح، أو لا يوفق للجنة التي هي أعظم ثواب الله.

﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾؛ الذين وفقهم الله للصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ

---

(١) سبق تخريجه.

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

لما ذكر ما وصل إليه حال قارون من البغي والاختيال بزينته والافتخار، أخبر بما أعقب ذلك من العقوبة والنكال.

قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ الفاء: عاطفة، والخسف: جعل بعض ظاهر الأرض في باطنها؛ أي: فخسفنا بـ «قارون» وبداره الأرض؛ أي: غيبناه وداره في الأرض.

وإنما كانت عقوبته بالخسف؛ لبغيه وعلوه وتكبره، والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**بينما رجل يجر إزاره خيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجِّل جمته؛ إذ خسف به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته؛ فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٣).

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي؛ أي: فما كان له أيُّ فئة، أي جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾، أي: يدفعون عنه عذاب الله قبل وقوعه ويمنعونه، ويرفعونه عنه بعد وقوعه، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله؛ لأنه هو الذي حكم عليه كوناً

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٨٥، والنسائي في الزينة ٥٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس ٥٧٨٩، ومسلم في اللباس والزينة ٢٠٨٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٠ بإسناد حسن.

بالعذاب وأوقعه فيه، فلا ناصر له من دونه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أي: وما كان من المنتصرين بنفسه لنفسه، أي: فلا نُصِر من غيره، ولا انتصر لنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾، أي: وصار الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: بالزمن القريب بقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾؛ بعد أن خسف الله به وبداره الأرض متعظين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ «ويك»: كلمة تأسف وتوجع وتعجب، قال عنترة:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

أو: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: ألم تر أن الله، أو أولا ترى أن الله.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: يوسع الرزق والعطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: للذي يشاء من عباده.

﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ معطوف على «يبسط»، أي: ويضيق الرزق على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ضيق.

قال ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم؛ كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب**»(١).

والمعنى: نعلم ونقر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسب مقتضى حكمته، وأن ما أعطاه الله لقارون من الكنوز ليس دليلًا على فضله، وحسن حظه، ونأسف على تمنينا مثله، وقولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ قرأ يعقوب وحفص بفتح الخاء والسين: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، وقرأ الباقون بضم الخاء وكسر السين: «لَخُسِفَ بِنَا».

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

«لولا»: حرف شرط غير جازم، ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، أي: لولا منّ الله، أو منته علينا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لولا مَنُّه عز وجل علينا ولطفه بنا وفضله علينا، لخسف بنا الأرض؛ كما خسف بقارون؛ لأننا تمنينا أن نكون مثله.

فصار هلاكه عبرة وعظة لهم، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: ألم تعلم أنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟ بالله ونعمه، أي: أن قارون كان كافرًا، ولا يفلح الكافرون، أي: لا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا عوقب بالخسف.

الفوائد والأحكام:

١- الإخبار بحال قارون، وأنه كان من بني إسرائيل، فطغى وتجبر عليهم مغترًّا بما آتاه الله من الأموال الكثيرة، وضرب المثل به للمشركين في تعاظمهم بجاههم وأموالهم، وتكذيبهم الحق؛ تحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ الآية.

٢- أن الغنى سبب للطغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧٦]. فالابتلاء كما يكون بالفقر يكون أيضًا بالغنى، بل الابتلاء بالغنى أشد، لأن المبتلى بالفقر قد يصبر، لكن المبتلى بالغنى قلَّ أن يشكر.

٣- عظم ما أعطاه الله لقارون من الكنوز وخزائن الأموال، حتى إن مفاتحه ليُثقل حملها الجماعة القوية من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

٤- تحذير قومه له من الفرح بما أوتي فرَحَ بطر وأشر واختيال وبغي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٥- نفي محبة الله عن الفرحين فرح بطر وبغي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٦- أن من حسن الدعوة إلى الله أن تقرن الأحكام بالدليل أو التعليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

٧- إثبات المحبة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ فمفهوم هذا أنه عز وجل يحب من قيَّد نعمة الله تعالى بالشكر، ولم يطغ، ولم يتكبر.

٨- نصحهم وموعظتهم له بأن يطلب بما آتاه الله مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾. وفي هذا ما يشير إلى أنه كان ينفق المال في غير الوجه الشرعي، من الفساد والمعاصي وغير ذلك.

٩- ينبغي لمن أنعم الله عليه بالمال البذل والإنفاق منه في الوجوه المشروعة؛ طلبًا لرضا الله، والدار الآخرة.

١٠- أن المعطي والمانع للمال وغيره هو الله تعالى، فلا ينبغي أن يبخل العبد بما أتاه الله، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

١١- إثبات الدار الآخرة والجنة.

١٢- لا لوم على الإنسان أن يتمتع بشيء مما آتاه الله في المباحات؛ من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب وغير ذلك، بل يجب ذلك في حدود الحفاظ على النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

١٣- نصحهم له بالإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله؛ شكراً لله تعالى على إحسانه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾. وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

١٤- نهيهم إياه عن ابتغاء الفساد في الأرض بما آتاه الله من الأموال؛ بالعلو والتكبر، والأشر والبطر والاختيال، والمعاصي والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

١٥- التحذير من الفساد، وبيان عدم محبة الله تعالى للمفسدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: بل يبغضهم ويكرههم.

١٦- إثبات محبة الله تعالى للمصلحين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٧- كفر قارون بنعمة ربه وإنكاره فضل الله عليه، ورده موعظة قومه ونصيحتهم

له، واغتراره بنفسه، وأن ما أوتيه لعلمه بوجوه المكاسب وحذقه، واستحقاقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

١٨- إنكار الله تعالى على قارون زعمه أن ما أوتيه من مال على علم عنده؛ وتقريره عز وجل إياه، بأنه يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون المكذبة من هم أشد منه قوة وأكثر أموالًا، فلم يكن ما أعطوه دليلًا على رضا الله تعالى عنهم، ولم يمنع ذلك من إهلاكهم لَّما كذبوا رسل الله وكفروا وطغوا وبغوا، وفي هذا تهديد ووعيد له؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ﴾.

١٩- أن المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم سؤال استفسار، واستخبار؛ لأن الله أعلم بهم وبذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وفي هذا تهديد لهم.

٢٠- استمرار قارون في بغيه وطغيانه، وخروجه على قومه ذات يوم في كامل زينته، متكبرًا مختالًا، مظهراً العظمة والأُبهَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾.

٢١- اغترار من قصرت هممهم على إرادة الحياة الدنيا بما أوتي قارون من المال والزينة، وتمنيهم أن يكون لهم مثله، وغبطتهم له في حظه، مما لا يغبط عليه، بل يرثَى لصاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

٢٢- زجر الذين أوتوا العلم، وعرفوا حقائق الأشياء، للذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، وبيانهم لهم أن ما عند الله من الثواب خير من ذلك وخير من الدنيا وما فيها، لمن آمن وعمل صالحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾.

٢٣- فضل العلم وأهله العارفين بالله، وما يجب له، وما أعده لأوليائه.

٢٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وبيان عظم ما أعد الله من الثواب، الذي لا يناله إلا من آمن وعمل صالحًا.

٢٥- شتان بين ثواب الله تعالى لمن آمن وعمل صالحًا، وبين من أعطي من زينة الدنيا وزهرتها الفانية ما أعطي، حتى لو ملك الدنيا بحذافيرها، وشتان بين من كانت غاية همه وإرادته الدنيا الحقيرة الزائلة، وبين من كان همه ومراده ما عند الله من الثواب العظيم في الآخرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان[1]

وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم[2]

٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح.

٢٧- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٨- أنه لا يتقبل النصيحة ويعمل بها، ولا يوفق للإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾؛ الذين وفقهم الله للصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

٢٩- عقاب الله تعالى وأخذه الشديد لقارون؛ بسبب بغيه وطغيانه، وأشره وبطره واختياله، بخسف الأرض به وبداره، وعظم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

٣٠- عدم وجود من ينتصر له لما أحل الله به عقوبته، وعدم قدرته على الانتصار لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾.

٣١- سوء عاقبة البغي والكبر والتجبر وكفر النعم، ووجوب الحذر من ذلك.

٣٢- اتعاظ واعتبار الذين تمنوا أن يكون لهم مثل قارون لما خسف الله به، وأحل به عقوبته، وندمهم على غبطتهم له، وتمنيهم مثله، وإقرارهم بأن الله يبسط الرزق لمن

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص١١).

(٢) البيتان للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢٧٢).

يشاء، ويضيقه على من يشاء، وأن العطاء ليس دليل الرضا، وليس بحول الإنسان وقوته، واعترافهم بمنة الله تعالى وفضله، حيث لم يصبهم ما أصابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾.

٣٣- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٣٤- حكمة الله تعالى البالغة في بسط الرزق لمن يشاء من عباده، وتضييقه على من يشاء؛ وهو العليم الحكيم.

٣٥- أن الله يبتلي بالنعم والسراء؛ كما يبتلي بالنقم والضراء، وليس عطاؤه دليلًا على رضاه، ولا منعه دليلًا على سخطه.

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم(١)

٣٦- إثبات كفر قارون، وأنه لا يفلح الكافرون، فلا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المرهوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ومفهوم هذا أن الفلاح للمؤمنين.

* * *

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص٥٧٧).

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

لما ذكر قارون وما كان عليه من البغي والبطر والتجبر، والاختيال والعلو والتكبر، وعقوبته الدنيوية بخسف الأرض به وبداره بسبب بغيه وكفره، أتبع ذلك بذكر عقوبته الأخروية هو وغيره من أهل العلو في الأرض والفساد فيها؛ بما هو أشد وأعظم؛ وهو حرمانهم ثواب الآخرة في الجنة، وإذا حرموا في الآخرة الثواب فليس لهم فيها إلا النار والعذاب.

قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾، أي: تلك الدار الآخرة العظيمة، أي: الجنة، دار السلام وما فيها من النعيم المقيم.

﴿نَجْعَلُهَا﴾، أي: نصيرها دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يريدون بغيًا وتكبرً في الأرض، ببطر الحق، والتعاظم على الخلق.

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**وأن الله أوحى إليَّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(١).

(١) أخرجه مسلم في الجنة ونعيمها ٢٨٦٥، وأبو داود في الأدب، باب التواضع ٤٨٩٥، وابن ماجه في الزهد، البراءة من الكبر ٤١٧٩.

﴿وَلَا فَسَادًاۚ﴾، أي: ولا يريدون في الأرض فسادًا بالكفر والمعاصي؛ لأن الكفر والمعاصي سبب لفساد الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾، أي: والعاقبة المحمودة، العقبى، والنهاية الحسنة، عاجلاً وآجلاً، في الدنيا والآخرة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، عاجلاً وآجلاً، وتواضعوا لله تعالى، ولم يتعالوا عن قبول الحق، ولا على الخلق.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ «من»: شرطية في الموضعين، والباء: للمصاحبة في الموضعين؛ أي: من جاء بالحسنة مصطحبًا لها يوم القيامة.

أي: من عمل الحسنة، بفعل مأمور، أو ترك محظور، قولًا أو فعلًا أو بذلًا، وجاء بذلك يوم القيامة، ولقي الله تعالى به، ولم يعمل ما يحبطه؛ لأن الأعمال بالخواتيم.

﴿فَلَهُۥ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فله ثواب وجزاء ﴿خَيْرٌ مِّنْهَاۖ﴾ خيرية مطلقة، كمية، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، فضلًا منه عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ومضاعفتها أكثر من ذلك إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به**»(١).

وخير منها كيفية بدوام جزائها، ففعل الحسنة ليس بدائم، وجزاؤها دائم، لا ينقطع فضلاً من الله عز وجل.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، أي: ومن جاء بالسيئة مصطحبًا لها يوم القيامة من غير توبة. والسيئة: ضد الحسنة.

﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أو مصدرية، و«السيئات»: الأعمال السيئة، أي: فلا يجزى الذين عملوا الأعمال السيئات إلا الذي كانوا يعملونه، أو إلا الذي عملوا؛ عدلًا منه تعالى؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

والمعنى: ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٩٠].

وقال ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتب الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٨٥﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إن الذي أنزل عليك القرآن، وأوجب عليك تلاوته، وتبليغه لأمتك، والعمل بما فيه.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمرجعك والخلائق كلهم إلى معاد، وهو يوم القيامة؛ للحساب والجزاء؛ ليجازي كلًّا بعمله؛ إذ لا يليق بحكمته عز وجل أن يكلف الخلائق بالقرآن والعمل به، ثم لا يحاسبهم فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ كما قال قبل هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٨٤﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان- باب إذا هم العبد بحسنة ١٣١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا معنى قول من قال من السلف: «لرادك إلى الجنة»؛ لأن معاده ﷺ- بلا شك- إليها.

وفي هذا إشارة إلى أنه عز وجل سيسأل النبي ﷺ عن تبليغ هذا القرآن، كغيره من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وحمل بعض المفسرين قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: إلى بلدك مكة فاتحًا بعد إخراجك.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ قال: إلى مكة»(١). وهذا القول بعيد؛ لأن السورة مكية، فكيف يقال له وهو في مكة: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: لرادك إلى مكة.

والقول الأول هو الصحيح وهو المناسب؛ لصدر الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أن الله لم ينزل عليك القرآن ويوجب عليك تلاوته وتبليغه واتباعه؛ عبثًا، بل؛ ليعيد الخلائق ويحاسبهم ويجازيهم.

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين المكذبين لك: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى من عنده: أهو أنا أم أنتم؟ وبمن هو المهتدي منا: أهو أنا أم أنتم؟

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وهو عز وجل أعلم بمن هو منا في ضلال مبين، أي: في ضلال بين واضح، أهو أنا أم أنتم؟

وهذا من باب التنزل معهم، وإلا فهو ﷺ يعلم، ويعلم أن ربه يعلم أنه هو الذي جاء بالهدى من عنده، وأن المكذبين له هم الذين في ضلال مبين.

وهذا كقوله ﷺ فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٧٣، والطبري في «جامع البيان» ١٨، ٣٥٠.

ولم يقل: «ممن لم يأت بالهدى، أو ممن لم يأت به»، وأتى بـ «في» الدالة على الظرفية فقال: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منغمس في الضلال محيط به من كل جانب كقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وأيضا: فإنه ليس بعد الهدى إلا الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي: وما كنت تؤمل وتطمع أن ينزل عليك هذا القرآن العظيم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: لكن رحمة من ربك بك وبالأمة أنزله عليك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أي: فاغتبط بهذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة من ربك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فلا تكونن معينًا لهم على كفرهم، بل اصدع بما جاءك من الحق بينهم، وجاهدهم به جهادًا كبيرًا.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: ولا يصدنك هؤلاء الكفار، أي: لا يصرفنك عن آيات الله الشرعية وما جاءك فيها من الحق بعد إنزالها إليك، ولا تبالهم ولا تكترث بمخالفتهم لك، فإن الله معك ومؤيدك، ومظهر ما جئت به من الحق. وفي قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ تذكير له ﷺ بهذه الحجة، وهو أنها منزلة من عند الله، وتثبيت له ﷺ.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: واستمر في دعوة الناس إلى توحيد ربك، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ الذين أشركوا مع الله غيره.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: ولا تعبد مع الله معبودًا آخر، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لأنه لا إله إلا هو، أي: لا معبود بحق سواه.

وهذا بيان لحقيقة الشرك، وتأكيد للنهي عنه، وبيان لحقيقة التوحيد.

وليس في نهيه ﷺ عن أن يصدوه عن آيات الله، وعن أن يكون من المشركين، وعن أن يدعو مع الله إلهًا آخر، ليس في هذا كله ما يدل على حصول ذلك منه، ولا توقع حصوله ولا جواز حصوله لا شرعًا ولا كونًا؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك كله، وكذا غيره من الرسل عليهم السلام.

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ﴾؛ تعليل للنواهي السابقة، أي: كل شيء فانٍ زائل، ومضمحل ومعدوم بعد الوجود ﴿إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾؛ «إلا» أداة استثناء، ﴿وَجۡهَهُۥۚ﴾؛ مستثنى منصوب، أي: إلا إياه، أو: إلا هو عز وجل، فعبر بالوجه عن الذات.

فهو عز وجل الحي الذي لا يموت، القيوم الدائم الباقي وحده، والخلائق كلهم يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فهو عز وجل الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء.

كما أن كل شيء باطل إلا ما أريد به وجهه عز وجل؛ ولهذا قال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

وقوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ﴾، أي: مما كتب الله عليه الهلاك والفناء، دون ما كتب الله له البقاء وخلقه لذلك؛ كالجنة والنار؛ فإن الله خلقهما للبقاء لا للفناء.

﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، أي: له عز وجل وحده الحكم كله: الحكم الكوني بمعنى: التصرف والتدبير، وله الحكم الشرعي، وله الحكم الجزائي، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون بعد البعث يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، أيام الجاهلية ٣٨٤١، ومسلم في الشعر ٢٢٥٦، والترمذي في الأدب ٢٨٤٩، وابن ماجه في الأدب، باب الشعر ٣٧٥٧، وأحمد ٢/ ٢٤٨، ٣٩٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

كما أن إليه مصير الأمور كلها، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الدار الآخرة، وتعظيمها؛ لما فيها من الحساب والجزاء، وإثبات الجنة وتعظيمها لما فيها من الثواب العظيم والنعيم المقيم للمتقين المتذللين لربهم، المتواضعين لعباده، الذين لا يريدون علوًّا ولا فسادًا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

٢- امتداح أهل التذلل والإصلاح؛ لعظيم ما وعدهم الله به، وذم أهل العلو في الأرض والإفساد؛ لحرمانهم من ثواب الآخرة ونعيم الجنة، ومَن حرم من ذلك فليس له إلا النار وبئس القرار.

٣- أن مدار الأعمال على النيات.

٤- أن الكفر والمعاصي سبب لفساد الأرض، وخراب البلاد.

٥- أن العاقبة الحسنى، والمآل الحسن لمن اتقى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وفي هذا ترغيب بالتقوى، وبيان فضلها.

٦- فضل الله عز وجل وجوده وكرمه؛ لمجازاته من جاء بالحسنة بخير منها، كمية وكيفية، ومضاعفتها بما لا حد له ولا عد فضلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل؛ لمجازاته من جاء بالسيئة بمثلها فقط دون زيادة؛ عدلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾. فمن اتبع الحسنة بما يبطلها لم يجز عليها، ومن اتبع السيئة بما يمحها لم يعاقب عليها.

٩- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

١٠- الترغيب في عمل الحسنات، والترهيب من عمل السيئات.

١١- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ، وأوجب عليه تلاوته وتبليغه والعمل به هو وأمته؛ ليجازيهم على العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١٢- إثبات رسالته ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ الآية.

١٣- إثبات البعث والمعاد، والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١٤- أن الله عز وجل أعلم بمن جاء بالهدى من عنده؛ وهو نبيه ﷺ، لا المكذبون له، وأعلم بمن هو في ضلال مبين؛ وهم المشركون المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ كما أنه ﷺ يعلم ذلك، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- ليس بعد الهدى إلا الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٧- أنه ﷺ ما كان يظن أو يؤمل أو يطمع أن ينزل عليه القرآن، ولكن رحمة من ربه عز وجل به وبالعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وفي هذا رد على الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إذ لو كان كما يقولون لكان متطلعًا إليه.

١٨- أن القرآ، رحمة من الله عز وجل للخلق في دنياهم وأخراهم، به حياة قلوبهم في الدنيا وصلاح أحوالهم، وبه نجاتهم من النار ودخولهم الجنة في الآخرة.

١٩- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يكون ظهيرًا للكافرين، وعن أن يصدوه عن

القرآن وتبليغه بعد أن منَّ الله عليه بإنزاله إليه، ونهيه عن أن يكون من المشركين، وعن أن يدعو من دون الله إلهًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

وفي هذا كله تقوية لقلبه للثبات على دعوته، والصبر في مواجهة المكذبين له، والاستمرار في دعوته، وعدم الاكتراث ولا المبالاة بمن خالفه، وفي هذا كله نهي لأمته عن ذلك.

٢٠- تحريم مظاهرة الكافرين، ووجوب الحذر من محاولتهم صد المؤمنين عن دينهم، ووجوب الدعوة إلى الله، والحذر من الشرك؛ لأن الخطاب له ﷺ ولأمته.

٢١- أن حقيقة الشرك: دعوة إله آخر وعبادته مع الله تعالى.

٢٢- إثبات توحيد الألوهية، وأنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله؛ كما أنه لا رب للعالمين سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

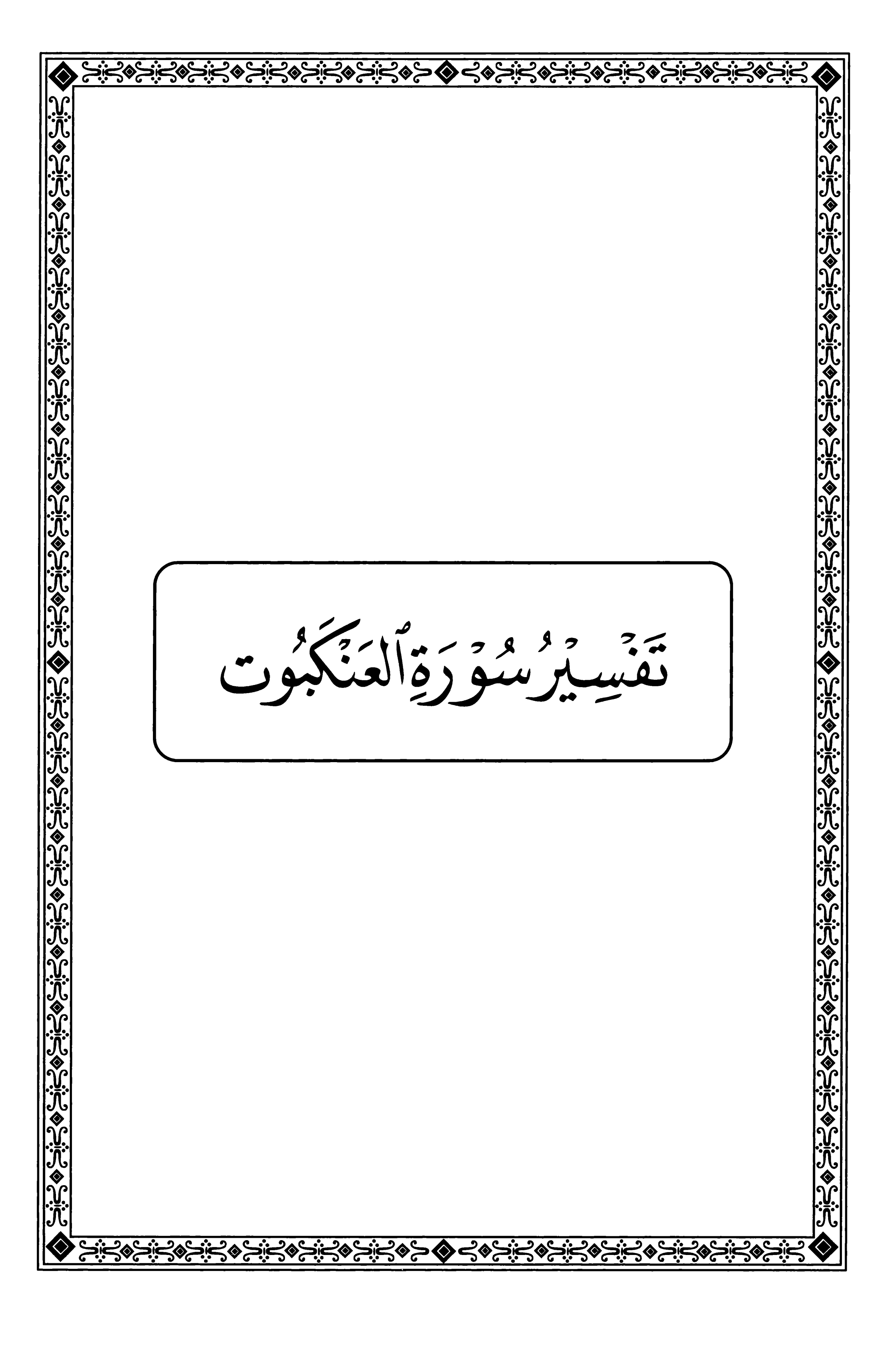
٢٣- أن كل شيء هالك فانٍ إلا الله عز وجل، فهو سبحانه الحي الذي لا يموت، الباقي الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وذلك من أعظم دلائل وحدانيته، وموجبات توحيده.

٢٤- إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ وهذا لا ينافي أن يكون المراد بالوجه في الآية: ذاته كلها؛ لأن الوجه يطلق على الذات كلها.

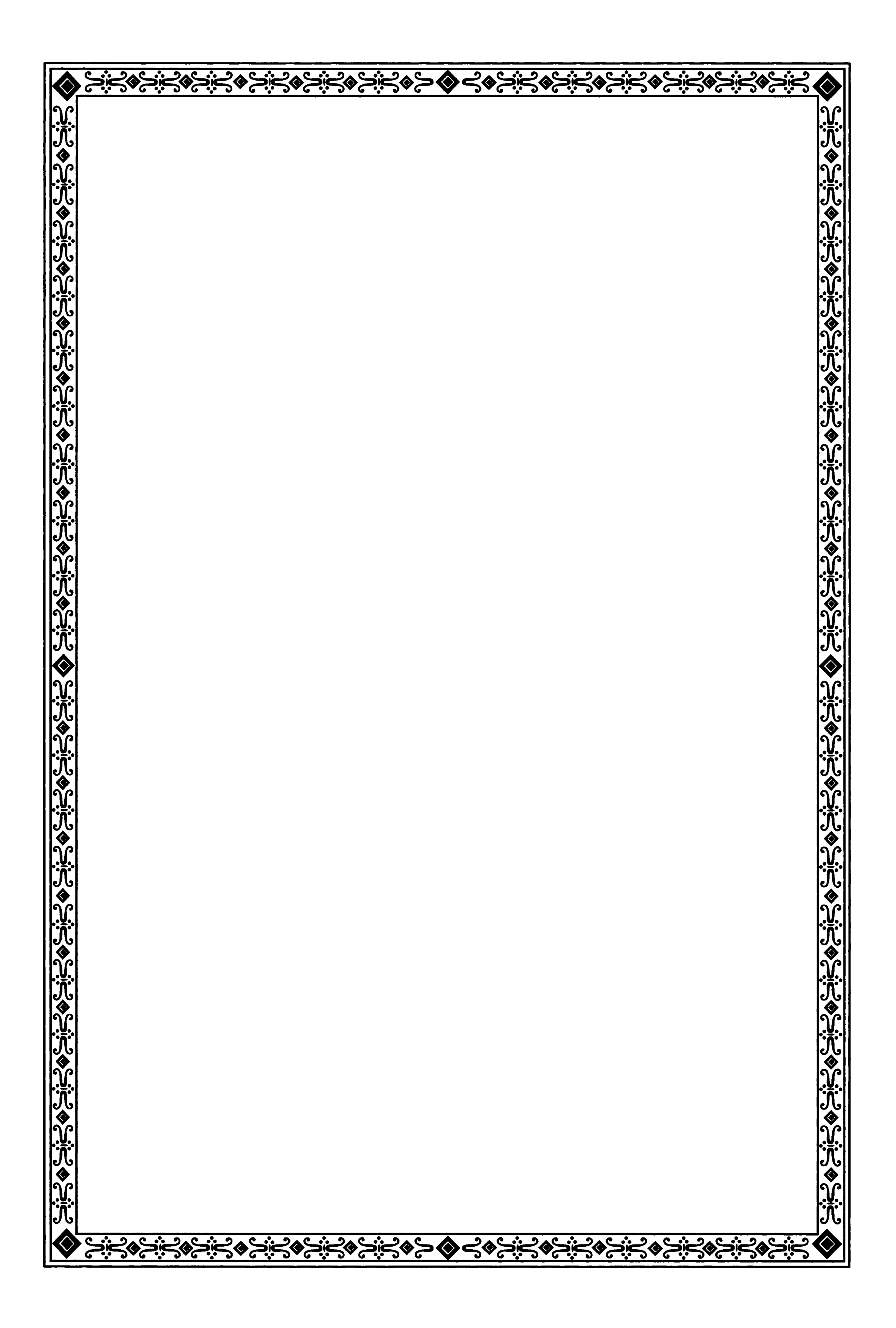
٢٥- أن لله عز وجل وحده الحكم والتدبير والتصرف في الكون؛ كما أن له الحكم الشرعي، والحكم الجزائي، لا يسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾.

٢٦- أن مرجع الخلائق كلهم ومردهم إلى الله تعالى، إليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ ومصير أمورهم إليه لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلعَنْكَبُوت



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة العنكبوت»؛ لذكر العنكبوت فيها في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ-موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ للدلالة على إعجاز القرآن الكريم، ثم شرعت في الحديث عن تكاليف الإيمان، وما يترتب عليه من الابتلاء، كما هي سنة الله تعالى في السابقين لتمحيص المؤمنين؛ ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وإبطال ظن الذين يعملون السيئات أنهم يسبقون الله أو يعجزونه، وبيان سوء حكمهم الجائر.

٢- بشارة من كان يرجو لقاء الله واستعد لذلك اللقاء، بأن أجل الله آت وهو السميع العليم؛ يسمع أقوال العباد، ويعلم أعمالهم وسيجازيهم عليها، وبيان أن من جاهد وبذل طاقته في طاعة الله تعالى وتقواه؛ بفعل المأمورات وترك المحظورات، فإنما جزاء جهاده لنفسه؛ لأن الله غني عن العالمين.

٣- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بتكفير سيئاتهم ومجازاتهم بأحسن الذي كانوا يعملونه، وإدخالهم في الصالحين.

٤- وصية الله عز وجل الإنسان بالإحسان إلى والديه، وعدم طاعتهما إن أمراه بالإشراك بالله ومصاحبتهما في الدنيا معروفًا، فإليه عز وجل مرجع الجميع، فينبئهم بأعمالهم ويجازيهم عليها.

٥- ذم فريق من الناس يقولون: آمنا بالله، فإذا أوذي في ذات الله تراجع؛ لضعف إيمانه، وجعل ما يصيبه من أذى الناس وفتنتهم له بسبب إيمانه كعذاب الله، ولئن جاء نصر من الله للمؤمنين ليقولن: إنا كنا معكم، وهو كاذب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

٦- بيان غرور الكافرين، وشدة ما هم عليه من التكذيب، والصد عن دين الله، وإنكار البعث والحساب والجزاء؛ لقولهم كذبا للذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ والرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

٧- ذكر قصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم، منهم: نوح وإبراهيم ولوط وشعيب، عليهم السلام، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وإنجائهم وأتباعهم المؤمنين، وإهلاك المكذبين، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم، وفي ذلك تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، وتحذير وتهديد للمكذبين له.

٨- ذكر عاد وثمود الذين تشهد مساكنهم على إهلاكهم بسبب ضلالهم، وذكر قارون وفرعون وهامان وقد جاءهم موسى عليه السلام بالبينات فاستكبروا في الأرض، فأهلكوا وما كانوا سابقين.

٩- بيان أخذه عز وجل كلًّا من المكذبين بالعقوبة المناسبة لذنبه؛ فمنهم من أرسل الله عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف الله به الأرض، ومنهم من أغرقه الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾.

١٠- تحقير آلهة المشركين التي اتخذوها من دون الله أولياء، والتهكم بها، وتشبيههم وضعف معبوداتهم بالعنكبوت التي تتخذ بيتًا هو أوهن البيوت، وبيان علمه عز وجل بما يدعون من دونه من شيء، وهو العزيز الحكيم، والتنويه بضربه عز وجل الأمثال للناس، وبيان أنه لا يعقلها إلا العالمون.

١١- بيان أنه عز وجل خلق السموات والأرض بالحق، وأن في خلقهما آية للمؤمنين على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

١٢- أمره عز وجل له ﷺ بتلاوة ما أوتي الكتاب وقراءته على الناس واتباعه، وإقام الصلاة، وبيان أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾.

١٣- نهي المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

منهم، وأن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾، وبيان أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما أن من العرب من يؤمن به، وما يكفر به ويجحد إلا الكافرون من الفريقين.

١٤- الرد على من يزعمون أن النبي ﷺ افترى القرآن واختلقه من عنده، ويجحدون آيات الله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٥- اقتراح الكفار المكذبين المعاندين إنزال الله تعالى آيات على النبي ﷺ، وأمر الله عز وجل له أن يقول لهم: إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين، وتوبيخهم لما لم يكفهم أن الله أنزل عليه ﷺ القرآن يتلى عليهم، فيه الرحمة والذكرى لقوم يؤمنون.

١٦- بيان كفايته عز وجل شهيداً بينه ﷺ وبينهم: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

١٧- استعجالهم بالعذاب تكذيباً به: ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، وتأكيد إتيانه إليهم بغتة، وإحاطة جهنم بهم، وغشيان العذاب لهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وتقريعهم.

١٨- بيان سعة أرضه عز وجل؛ ترغيباً بالهجرة من الأرض التي لا يستطيع المسلم فيها إقامة شعائر دينه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

١٩- حكم الله وقضاؤه بالموت على كل نفس، ثم بعث الخلائق ورجوعهم إليه للحساب والجزاء، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإسكانهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار، وامتداح أجرهم والثناء عليهم بعملهم وصبرهم وتوكلهم على ربهم.

٢٠- تكفله عز وجل برزق جميع الدواب، وجميع الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

٢١- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وأنه عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبيان تفرده عز وجل ببسط الرزق وتضييقه على من يشاء، وعلمه بكل شيء،

والتعجب كيف يُصرفون عن عبادته وحده، فيشركون معه غيره، مع إقرارهم بربوبيته! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٢- بيان حقارة الدنيا، وأن الدار الآخرة هي الدار الحقيقية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٣- إخلاص المشركين الدعاء لله حال الشدة إذا ركبوا في الفلك، فإذا نجاهم إلى البر رجعوا إلى الشرك وكفروا نعمة الله عليهم، وتهديدهم ووعيدهم.

٢٤ الامتنان على مشركي قريش بأن جعل عز وجل لهم حرمًا آمنًا، لا يُعتدى عليهم فيه، في حين يُتخطفُ الناس من حولهم قتلا وسلباً، والإنكار عليهم وتوبيخهم على إيمانهم بالباطل وكفرهم نعمة الله تعالى.

٢٥- لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذب بالحق لما جاءه، والوعيد والتهديد بكون جهنم مثوًى للكافرين.

٢٦- وعد الله عز وجل- الذي لا يُخلف وعده- للذين جاهدوا في الله، وأحسنوا بهدايتهم سبله الموصلة إلى مرضاته وجنته: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة، وبيان الحكمة فيها في الكلام على مطلع سورة البقرة.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾؛ الاستفهام للإنكار، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب»، أي: أظن الناس أن يتركوا، ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾؛ في تأويل مصدر في محل جر بلام أو بباء محذوفة، أي: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا.

﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بقلوبنا، وانقدنا بجوارحنا، ودخلنا في الإسلام، واتبعنا الرسول.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يفتنون، أي: لا يختبرون، ولا يمتحنون بالشدائد؛ ليتبين المؤمن من المنافق.

أي: لا يحسبوا ذلك ولا يظنوه؛ إذ لا بد من الابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤١ - ١٤٢].

وقال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»(١).

وقال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(٢).

وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، والله إني لأحبك، فقال: «**انظر ماذا تقول**» قال: والله إني لأحبك. فقال: «**انظر ماذا تقول**»، قال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، فقال: «**إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا؛ فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه**»(٣).

ولقد لاقى أصحاب رسول الله ﷺ صنوفًا من الابتلاء والأذى على أيدي المشركين؛ كما فُعل ببلال وخباب وعمار بن ياسر ووالديه رضي الله عنهم، وغيرهم.

واستمر المشركون في الأذى بالقول والفعل والتعذيب لكل من آمن والتضييق عليهم، حتى اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم الهجرة صحبة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: ولقد امتحنا وابتلينا الذين من قبلهم من الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكما فعل أصحاب الأخدود في تحريقهم المؤمنين في النار، قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، الصبر على البلاء ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن، الصبر على البلاء ٤٠٢٣، وأحمد ١/ ١٧٢، ١٧٤، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٠، وقال: «حديث حسن غريب».

شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾ [البروج: ٤ - ٨].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(١).

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ الفاء عاطفة، وكذلك الواو، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون فيهما للتوكيد، أي: فليعلمن الله الذين صدقوا في دعواهم الإيمان، وقولهم: ﴿آمنَّا﴾، أي: يظهر علمه فيهم، فيثيبهم بما ظهر منهم، وينجيهم من الفتنة.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾؛ في قولهم ودعواهم الإيمان، أي: يظهر علمه فيهم، فيعاقبهم بما ظهر منهم ويزيغ قلوبهم؛ لأن الله قد علم أزلًا ما هم عاملون، وكتبه وقدره قبل أن يعملوه، لكنه لا يجازيهم على ذلك إلا بعد أن يعلم وقوع ذلك منهم، أي: بعد أن يعملوه.

فالابتلاء بأنواع الفتن والمحن، وبالضراء والسراء، والشدة والرخاء، من سنن الله الكونية في الأمم السابقة وفي هذه الأمة؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وليظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، ومن يثبت على الحق أمام الفتن والشبهات والشهوات، ممن يزيغ ويتزلزل بسبب ذلك.

نسأل الله الثبات على دينه، وأن يثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب، أي: أظن الذين يعملون الأعمال السيئة؛ من الشرك والكفر، والصد عن دين الله، وأذية المؤمنين

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٢، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٩.

وتعذيبهم، وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لما للمعاصي من آثار سيئة على العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي: «حسب». ومعنى ﴿يَسْبِقُونَا﴾: يعجزونا ويفوتونا بأنفسهم، ويفلتوا من عذابنا.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ «ساء»: فعل ماضٍ لإنشاء الذم، أي: بئس ما يحكمون، و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: ساء حكمهم، أو ساء الذي يحكمونه؛ من ظنهم أنهم سيعجزوننا ويفلتون من عذابنا، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الزمر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

فهذا ذم لحسبانهم، وإبطال له، وتقرير لمعنى الإنكار عليهم، وتوكيد له.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: من كان يرجو ويؤمل لقاء الله رغبة وطمعًا في ثوابه، فاستعد للقاء ربه بالإيمان والأعمال الصالحة.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، واللام: للتوكيد، أي: فليبشر؛ فإن أجل الله والوقت الذي حدده للبعث ووعده ولقاءه آتٍ لا محالة، وكائن ولا بد، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، أي: وهو السميع لأقوال عباده المجيب لدعائهم، الذي وسع سمعه جميع الأصوات.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم وأحوالهم وبجميع المخلوقات، الذي وسع كل شيء علمًا.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، أي: ومن بذل جهده في فعل ما يقربه إلى الله تعالى من الطاعات، وفي الابتعاد عما يغضب الله من المعاصي والسيئات، وجاهد نفسه وشيطانه وأعداء الله.

﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، أي: فإنما جهاده لنفسه؛ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ الجملة تعليلية، واللام للتوكيد، أي: لأن الله غني عن العالمين، فمن جاهد منهم فنفْع جهاده وثمرته لنفسه؛ لأن الله غني عنهم، ليس به حاجة إليهم، ولا تنفعه طاعة المطيع منهم، ولا تضره معصية العاصي.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ اللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنمحونَّ عنهم سيئاتهم ونذهبها ونتجاوز عنها؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النساء: ٣١].

وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[1].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: ولنجزينهم ثواب أحسن الذي كانوا يعملونه، وهو كل ما عملوه ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته من الواجبات والمندوبات، وما تركوه خوفًا منه من المنهيات، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٢- لا بد من ابتلاء الناس، وبخاصة المؤمنين، وامتحانهم بالضراء والسراء والشدة والرخاء، وصنوف المحن؛ حكمة لله عز وجل؛ ليميز الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾.

٣- أن الابتلاء والامتحان من سنن الله الكونية في الأمم كلها؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

٤- إحاطة علم الله تعالى بالذين صدقوا وبالكاذبين، وأنه عز وجل لا يحاسب الخلائق على ما علمه أزلًا وكتبه وقدره عليهم، وإنما يحاسبهم بعد أن يظهر علمه فيهم فيثيبهم ويعاقبهم بما ظهر منهم.

٥- أن طريق الإيمان والجنة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل فيه العقبات والأشواك؛ ولهذا قال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[١].

وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود

٦- الوعيد للذين يعملون السيئات، ويظنون أنهم سيفلتون من عذاب الله، وتهديدهم والإنكار عليهم، وأنهم لن يعجزوا الله هربًا، ولن يفلتوا من عذابه أو يفوتوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾.

٧- ذم حسبانهم ذلك وإبطاله، وتقرير الإنكار عليهم وتوكيده؛ لقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

٨- البشارة لمن كان يرجو لقاء الله رغبة في ثوابه، مع الاستعداد لذلك بالإيمان والعمل الصالح؛ بأن أجل الله آتٍ لا محالة، وكائن ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

٩- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى، ومحاسبته العباد ومجازاته إياهم على أعمالهم.

١٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وأنه عز وجل ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١١- في اقتران صفة السمع الواسع، وصفة العلم الواسع في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

١٢- الترغيب في طاعة الله تعالى وعبادته، ومجاهدة النفس والشيطان والأعداء في طلب مرضاة الله، وأن ثمرة ذلك تعود للمرء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾.

١٣- غنى الله التام عن الخلق كلهم، وعدم حاجته إلى أحد منهم، وأنه لا تنفعه طاعة المطيع؛ كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٤- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بمحو سيئاتهم، ومجازاتهم أحسن الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾، وفي هذا ترغيب في الإيمان والعمل الصالح.

١٥- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح.

١٦- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.

١٧- أن التخلية قبل التحلية، فتكفير السيئات والتطهير منها قبل الجزاء.

١٨- أن الجزاء من جنس العمل، بل أحسن منه وأفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

سبب النـزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: «حلفت أم سعد ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب؛ قالت: زعمتَ أن الله أوصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا.

قال: مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد! فقام ابن لها، يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾»[1].

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ «حسنًا»: مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر، والتقدير: أحسن إليهما حسنًا، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إيصاء ذا حسن.

والوصية: العهد بأمر مهم، والمعنى: أمرنا الإنسان وأوجبنا عليه الإحسان بوالديه والبر بهما؛ قولًا وفعلًا وبذلًا، ومحبةً واحترامًا وتقديرًا وإجلالًا، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضائل سعد بن أبي وقاص ١٧٤٨، والترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة العنكبوت ٣١٨٩، وأحمد ١/ ١٨١، ١٨٥ - ١٨٦.

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وإنما عظّم الله تعالى حق الوالدين، وأكّده، وقرنه بحقه في مواضع كثيرة من كتابه؛ لعظم فضلهما وإحسانهما- بعد الله تعالى- إلى الولد، فهما سبب وجوده، وقد قاسى كل منهما من المشقة والتعب والعناء- وبخاصة الأم- ما لا يعلمه إلا الله.

وما يقدم لهما من البر والإحسان- مهما كان- ليس بكثير في حقهما؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا يجزي ولد والدًا، إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه، فيعتقه**»(١).

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾.

أوصى عز وجل بالإحسان إلى الوالدين رأفة ورحمة بهما، وتعظيمًا لحقهما، ثم أتبع ذلك بنهيه عن طاعتهما إذا أمراه بالشرك بالله، تعظيمًا لأمر الشرك وخطورته، وحتى لا يظن ظان أن من برهما طاعتهما في هذا الأمر الخطير.

والمعنى: وإن بذلا جهدًا في دعوتهما لك؛ لأجل أن تشرك بي، أي: لأجل أن تدعو معي شريكًا آخر.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ «ما» موصولة، أي: الذي ليس لك به علم. أو نكرة موصوفة، أي: شيئًا ليس لك به علم، وهذا بيان للواقع، وهو أن كل شرك بالله لا علم للإنسان به.

والمعنى: وإن جاهداك لأجل أن تدعو معي شريكًا ليس لك به علم، أي: لا تعلم صحته ولا جوازه، بل تعلم بطلانه وحرمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم في العتق ١٥١٠، وأبو داود في الأدب ٥١٣٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٦، وابن ماجه في الأدب ٣٦٥٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الحج: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف:٣٣].

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فلا تطعهما في الإشراك بي؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: إلي مردكم أنتم وآباؤكم وجميع الخلائق.

﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فأخبركم بعملكم، أو بالذي كنتم تعملونه، وأحاسبكم وأجازيكم عليه.

وفي هذا وعد وترغيب بالإحسان إلى الوالدين وطاعتهما بالمعروف، ووعيد وترهيب من عقوقهما، أو طاعتهما في معصية الله تعالى، كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الآية:١٥].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ بيّن عز وجل فيما سبق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يكفر الله عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، وذكر هنا جزاءً آخر؛ وهو إدخالهم في الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لندخلنهم في الجنة في جملة عباد الله الصالحين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾:

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، أي: ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم كذبًا: ﴿آمَنَّا﴾، أي: صدقنا وانقدنا، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ

ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فإذا حصل له أذى بسبب إيمانه بالله، بتعيير وسب، أو ضرب، أو أخذ مال، ونحو ذلك- ابتلاء وامتحانًا من الله له- لم يصبر ولم يثبت، بل: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: صيَّر واعتبر ﴿فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: عذابهم وأذاهم له ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: مثل عذاب الله الدنيوي والأخروي، فارتد عن دينه، أو ترك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعمل الخير.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ الواو عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: ولئن جاء نصر من ربك يا محمد لك وللمؤمنين على أعدائكم؛ من فتح مكة، وتمكين وغلبة ومغانم، ونحو ذلك.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن هذا الفريق من الناس الذين آمنا بألسنتهم، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: معكم في الإيمان، فأشركونا في الغنيمة.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣].

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ الاستفهام فيه معنى الإنكار عليهم في قولهم كذبًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ﴾، وفيه معنى

التقرير، أي: تقرير علم الله بها في صدور العالمين.

والمعنى: أوليس الله بأعلم بالذي في صدور العالمين؟ أي: بالذي في قلوبهم من صدق الإيمان أو عدمه، أي: بلى هو أعلم بما في صدورهم؛ ولهذا فضحهم وبين حالهم.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ الواو: عاطفة في الموضعين، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: وليعلمن الله الذين آمنوا باطنًا وظاهرًا، أي: بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وفي هذا وعد لهم.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم وجوارحهم، ويبطنون الكفر، وفي هذا وعيد لهم.

ومعنى «ليعلمن»، أي: يظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، وليس المراد: علمه السابق وكتابته ذلك وتقديره عليهم؛ لأنهم قد يحتجون على الله بأنهم لو ابتلوا لثبتوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾، أي: اتبعوا ديننا، واسلكوا طريقنا، أي: اكفروا وارجعوا عن دينكم.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ الواو عاطفة، واللام: لام الأمر، أي: ولنحمل نحن عنكم ذنوبكم وآثامكم، إن كان ثمة ذنوب وآثام. والمراد بالأمر هنا الخبر، أي: ونحن نحمل خطاياكم.

وإنما جعلوا الخبر بصيغة الأمر؛ لإظهار التزامهم بذلك، فكأنهم يقولون: ونحن نأمر أنفسنا ونلزمها بذلك، ومرادهم: اتبعوا سبيلنا، ولا شيء عليكم.

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ الجملة اعتراضية، و«مِن»- في قوله: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾- زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: وما هم بحاملين عنهم من خطاياهم أيّ شيء، مهما قل أو صغر؛ لأن ذلك ليس بأيديهم، فلا أحد يتحمل ذنب أحد فهذا ممتنع قدراً وغير جائز شرعاً.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: إنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فأكد عز وجل كذبهم بكون الجملة اسمية وبـ«إن»، ولام التوكيد.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

لما كذبهم في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ الآية؛ لئلا يُتوهّم براءة هؤلاء المضلين من تبعة دعائهم إلى الضلال، فبين أنهم يحملون أثقال ضلالهم، ويحملون أثقال دعائهم إلى الضلال.

قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ليحملن يوم القيامة ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾، أي: أوزارهم بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها بأنفسهم، وسميت الذنوب أثقالاً؛ لشدة ثقلها على صاحبها.

﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، أي: وليحملن أثقالًا أخرى مع أثقالهم، أي: أوزارًا مع أوزارهم، بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

وقال ﷺ: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا**»(١).

وقال ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٣٦، ومسلم في القسامة ١٦٧٧، والنسائي في تحريم الدم ٣٩٨٥، والترمذي في العلم ٢٦٧٣، وابن ماجه في الديات ٢٦١٦؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: وليسألن يوم القيامة، سؤال توبيخ وتقريع عن افترائهم، أو عن الذي كانوا يفترونه، أي: عن الذي كانوا يختلقون من الإفك والكذب والبهتان: من دعوى الإيمان مع ما هم عليه من الكفر، والصد عن سبيل الله، وزعمهم حمل أوزار من اتبعهم، وغير ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- عظم حق الوالدين، ووجوب الإحسان إليهما، والبر بهما؛ قولًا وفعلًا وبذلًا ومحبة واحترامًا وتوقيرًا وإجلالًا، وطاعتهما بالمعروف، ولو كانا كافرين؛ لما أسدياه إلى أولادهما من الإحسان والمعروف والجميل؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

٢- رحمة الله تعالى حيث أوصى الإنسان بوالديه، كما أوصى الوالدين بأولادهما.

٣- عظم أمر الشرك، وشدة خطره؛ لأن الله قرن الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالنهي عن الشرك تحذيرًا من طاعتهما إن أمرا الولد بالشرك؛ كما إذا كانا مشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

٤- لا طاعة للوالدين ولا لغيرهما من الخلق في معصية الله تعالى.

٥- بطلان الشرك، وأن من أشرك بالله فلا علم عنده، ولا حجة له، ولا برهان ولا دليل على صحة أو جواز الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٦- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

٧- إخبار كل عامل بعمله يوم القيامة من والد وولد وغيرهم، ومحاسبة ومجازاة كل منهم بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- إثبات علم الله تعالى، وإحاطته بالعباد وأعمالهم.

٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ وكما يدين المرء يدان.

١٠- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنة في جملة الصالحين؛

لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾، وفي هذا فضيلة الصالحين.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وبين العمل بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- أن منزلة الصالحين من أعظم المنازل عند الله تعالى؛ ولهذا وعد الله تعالى بها من آمن وعمل صالحًا، ويدخل في الصالحين: الأنبياء والصديقين والشهداء، وغيرهم من المؤمنين على اختلاف درجاتهم.

١٣- فضح وذم فريق من الناس يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم، مع عدم ثباتهم عند الابتلاء، وجعلهم ما يصيبهم في ذات الله من الناس من الأذى كعذاب الله، وارتدادهم عن دينهم، أو تركهم ما كانوا عليه من عمل الخير، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

١٤- حكمة الله تعالى في ابتلاء العباد؛ لأن الابتلاء هو المحك الذي يتبين به الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

١٥- شتان بين عذاب الناس وعذاب الله؛ فعذاب الله أشد وأشق وأكبر وأعظم وأدوم؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ - ٢٦].

١٦- أن النصر من الله، ومن عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٧- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بربوبيته عز وجل له ربوبية خاصة، وإضافة اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

١٨- مبادرة هذا الصنف من الناس عندما يحصل نصر للمؤمنين وفتح ومغنم- بقولهم كذبًا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ ليشاركوا المؤمنين في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

١٩- تقرير وإثبات علم الله تعالى بما في صدور الخلائق كلهم، والإنكار على

هؤلاء المذكورين قولهم كذبًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولهم للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾، مع إضمارهم بقلوبهم خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٢٠- إحاطة علم الله تعالى بالذين آمنوا، وبالذين نافقوا، أي: بما في القلوب من الإيمان والكفر، ووعده للمؤمنين، ووعيده للمنافقين، وأنه سبحانه إنما يحاسب الخلائق بعد ظهور علمه الأزلي فيهم، فيثيبهم ويعاقبهم على ما ظهر منهم وعملوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾. فعلم في السابق ما سيقع منهم، وعلم في اللاحق أنه وقع، وجازاهم عليه.

٢١- أن الحكمة من الابتلاء تمييز المؤمن من الكافر.

٢٢- إثبات النفاق، وأنه خلاف الإيمان.

٢٣- الحث على الإيمان والإخلاص، والتحذير من النفاق.

٢٤- سعي الذين كفروا جهدهم لرد المؤمنين عن دينهم، وأمرهم لهم باتباع سبيلهم، ووعدهم إياهم كذبًا وزورًا بحمل خطاياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾، وفي قولهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ كذب وتهكم، أي: أنه لا شيء عليكم.

٢٥- نفي الله ما ادعوه من حمل خطايا المؤمنين، وبيان كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، فليس ذلك بجائز شرعاً، ولا واقع قدراً.

٢٦- أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

٢٧- حمل هؤلاء الكفار يوم القيامة أوزارهم وأوزارًا أخرى بسبب من أضلوا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾.

٢٨- كمال علم الله تعالى، وتمام عدله،؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾.

٢٩- خطورة الدعاء إلى الضلال؛ لأن الداعي إلى ذلك يحمل مع وزره وزر دعوته غيرَه إلى ذلك، ووزر دعوة من تبعهم إلى يوم القيامة.

٣٠- سؤالهم في ذلك اليوم سؤال تقريع وتوبيخ عما كانوا يختلقون من الإفك والبهتان، ودعوى الإيمان كذبًا، والكفر، ودعوة المؤمنين لاتباع سبيلهم، وزعمهم زورًا حمل خطاياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٣١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾:

لما ذكر عز وجل ما عليه الكفار من الكذب والافتراء، وتوعدهم بسؤالهم يوم القيامة عن ذلك، أتبع ذلك بالتسلية والبشارة له ﷺ؛ بذكر ما جرى للرسل عليهم السلام قبله من أممهم من التكذيب، وإنجائه رسله وأتباعهم المؤمنين، وإهلاكه أعداءهم المكذبين، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين له ﷺ، وبشارة وعدة للمؤمنين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: ولقد أرسلنا عبدنا ونبينا ورسولنا نوحًا عليه السلام إلى قومه، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد أن حدث فيها الشرك.

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، أي: فمكث وأقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وتقواه، وترك الشرك واجتنابه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾ [نوح: ١ـ ٢٤].

إلى أن دعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

فمع طول لبثه عليه السلام فيهم، وتنويعه في أساليب دعوته لهم؛ لم ينجع ذلك فيهم، ولم يؤمن منهم إلا القليل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، أي: فأهلكهم وأغرقهم الطوفان، وهو الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، الذي غطى الأرض كلها، سهولها وأوديتها، ومرتفعاتها وجبالها؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر: ١١، ١٢].

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ الجملة حالية، أي: وهم ظالمون بكفرهم ومكرهم واستكبارهم

وفجورهم وضلالهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فأنجينا نوحًا من الغرق، ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ أي: وأنجينا أصحاب السفينة، أي: أهل السفينة، الذين ركبوا معه فيها ممن آمن به من أهله وغيرهم، وهم قليل، وممن حمل معه من الأزواج من الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: وجعلنا قصة إنجائه عليه السلام من الغرق، ومن ركب معه في السفينة، وإغراق قومه بالطوفان عظة وعبرة للعالمين، تدل على كمال قدرة الله تعالى، ونصرته لرسله وأوليائه المؤمنين، وانتقامه من أعدائه الكافرين.

ويحتمل: أن يعود الضمير في «جعلناها» إلى السفينة، أي: إلى نوع السفينة وتسخير السفن تجري في البحر على ظهر الماء، ولا تغرق مع ثقل حمولتها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ ففي كل منهما دلالة على كمال قدرة الله، وعظة وعبرة، ونعمة من الله تعالى على العباد.

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾ [يس: ٤١ - ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن

قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾، أي: واذكر إبراهيم عبدالله ورسوله وخليله حين قال لقومه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له العبادة وأطيعوه، وامتثلوا أمره.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، أي: وخافوه بترك الشرك، واجتناب نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٧].

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، أي: عبادة الله تعالى وتقواه خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم، وخير لكم مما أنتم عليه من الشرك؛ لأنه لا سبيل إلى نيل رضا الله والسعادة في الدنيا والآخرة إلا بعبادة الله تعالى وتقواه.

وهذا من استعمال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنه لا خير مطلقًا في ترك عبادة الله وتقواه، بل ذلك شر محض.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ العلم الذي تنتفعون به وتهتدون به إلى الحق، وتعلمون به أن عبادة الله تعالى وتقواه خير لكم. وفيه حث على هذا العلم، أي: اعلموا ذلك.

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾؛ لما أمرهم بعبادة الله تعالى وتقواه، ونهاهم عن عبادة ما سواه، بيَّن لهم نقص ما يعبدونه من دون الله من الآلهة، وأنها لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تملك لهم رزقًا، ولا تملك من الأمر شيئًا، ولا تضر ولا تنفع.

قوله: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: ما تعبدون من دون الله إلا أوثانًا، أي: أصنامًا.

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾، أي: تفترون وتختلقون كذبًا، بصناعتكم هذه الأصنام بأيديكم وتسميتها آلهة، وإشراكها مع الله وعبادتها من دونه.

كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال هود عليه السلام: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم

﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ «رزقًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لا يملكون أيّ رزق مهما قل؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا.

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، أي: فاطلبوا عند الله وحده الرزق؛ لأن الرزق بيده وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣].

﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾، أي: واعبدوه وتوكلوا عليه وحده يرزقكم، ويدر عليكم النعم، ويدفع عنكم النقم؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾، أي: واشكروا له على رزقه لكم، وما أولاكم من النعم، وما دفع عنكم من النقم، بنسبة ذلك إليه وحده، واستعماله في طاعته، والاستعانة به على ذلك.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: إليه وحده تردون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾، أي: وإن تكذبوا بما جئتكم به من الحق، وما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتقواه، وأن ذلك خير لكم، وبطلان ما تعبدون من دونه، وأن رزقكم عليه عز وجل، ورجوعكم إليه.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ فلستم بدعًا من المكذبين؛ فقد كذب أمم كثيرة من قبلكم لرسلهم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

هذا يحتمل أن يكون تتمة من كلام إبراهيم عليه السلام؛ لقوله في الآيات التالية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ويحتمل أن يكون استئنافًا من كلام الله تعالى؛ تسلية للنبي ﷺ.

قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾، أي: وما على الرسول تجاه المرسل إليه.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البلاغ البين الواضح، أي: إلا إبلاغهم، أي: إيصالهم رسالة ربه، وأما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب؛ كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «ترَوْا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَرَوْا۟﴾.

والاستفهام للإنكار، والكلام: إما مستأنف من كلام الله عز وجل، أو تتمة من

كلام إبراهيم عليه السلام، أي: أولم يشاهدوا في أنفسهم وفي غيرهم من المخلوقات، ويعلموا ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، أي: كيف ينشئ الله الخلق ويوجده من العدم؛ كما أنشأهم وأوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا؟ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، أي: ثم يعيد الخلق مرة أخرى، وخلقًا آخر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [الروم: ١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: بدءُ الخلق ثم إعادته، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل يسير عليه عز وجل؛ لتمام قدرته فلا يعجزه شيء؛ ولأنه هو الذي بدأ الخلق أول مرة، فهو على إعادته أقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات:١٩، النازعات:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[القمر:٥٠].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾أنكر عليهم عدم النظر والتأمل في بدئه عز وجل الخلقَ وإعادته، وبيَّن يسر ذلك عليه، ثم أمرهم بالسير في الأرض والتأمل في ذلك، أي: سيروا في الأرض بأبدانكم ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾؛ بأبصاركم، وتأملوا واعتبروا ببصائركم وقلوبكم.

﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، أي: كيف أنشأ الله الخلق أول مرة شيئًا فشيئًا، وأوجد هذا الخلق العظيم: السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها: «النَّشَاءَةَ»، وقرأ الباقون بإسكان الشين من غير ألف: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

أي: ثم الله يخلق ويوجد ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، أي: الخلق الآخر، فيعيدهم مرة أخرى خلقًا جديدًا.

وسميت نشأة، وهي إعادة؛ لاختلاف حياة الآخرة اختلافاً كثيراً عن حياة الدنيا، وقد قال عز وجل في ذكر أطوار الجنين في بطن أمه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ الجملة تعليلية، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بالخبر «قدير»، وقدِّم عليه؛ لتأكيد شمول قدرته عز وجل لكل شيء؛ من بدء الخلق وإعادته وغير ذلك، وأنه لا يعجزه شيء؛ وكما قدر على ابتداء الخلق، فقدرته على إعادته من باب أولى.

والقدرة يقابلها العجز، ولا يوصف بها إلا ذو شعور، بخلاف القوة التي يقابلها الضعف، فإنه يوصف بها ذو الشعور وغيره، فيقال: رجل قوي، وحديد قوي، وبناء قوي، ونسيج قوي وغير ذلك.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ بعدله وحكمته، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾؛ بفضله وحكمته، له الخلق والملك والتدبير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو الحكم العدل، ذو الجود والفضل.

و«من» موصولة في الموضعين.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون وترجعون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، فاستعدوا للقائه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الباء: زائدة للتوكيد، أي: وما أنتم أيها المكذبون بمعجزين الله، أي: بفائتين ومفلتين من عذابه في الأرض ولا في السماء، أي: في أيِّ مكان كنتم؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله، ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ «من» و«لا» كل منهما زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لكم غير الله أيُّ ولي وأيُّ نصير، والولي: من يجلب النفع والخير، والنصير: من يدفع الضر والشر.

أي: وما لكم غير الله من ولي يجلب النفع والخير لكم، ولا نصير يدفع الضر والشر عنكم، فيدفع عنكم عذاب الله أو يرفعه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: جحدوا وكذبوا، ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية والكونية ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾، أي: وكذبوا بلقائه؛ بإنكار القيامة والبعث والحساب، والجزاء على الأعمال. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق:٦].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾، أي: يئسوا وقنطوا من رحمتي، أي: من جنتي، ومن أن أرحمهم ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا بفقدان السعادة الحقيقية، وأنواع المصائب والعقوبات، وفي الآخرة في النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، أي: فما كان جواب قوم إبراهيم عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله تعالى وتقواه، ومحضهم النصيحة، وأقام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾، أي: إلا أن أجابوه بشر جواب، وعدلوا إلى استعمال جاههم وقوتهم وجبروتهم؛ مما يدل على شدة كفرهم وعتوهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل «قالوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان» مؤخر، أي: إلا قولهم:

﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ بالنار، فاقتلوه بأبشع وأشنع قتلة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: ٩٧].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: فسلمه الله من النار، بأن جعلها عليه بردًا وسلامًا،

فخاب سعيهم، وبطل كيدهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار، وجعلها عليه بردًا وسلامًا، وإبطال كيد قومه الكافرين.

﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لدلالات بينات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ بالله وبتمام قدرته ووحدانيته، وبصدق إبراهيم، وصحة ما جاءهم به.

﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال إبراهيم عليه السلام في جملة ما قاله في نصحه لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس: «مَوَدَّةُ»؛ بالرفع من غير تنوين، و«بَيْنِكُمْ»؛ بالجر على الإضافة إلى «مودة»، و«مَوَدَّةُ» على هذه القراءة مرفوعة خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا «مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ»، أي: هي مودة بينكم في الائتلاف والاجتماع على هذا الحنث العظيم.

وقرأ حمزة وحفص وروح: ﴿مَّوَدَّةَ﴾؛ بالنصب من غير تنوين، و﴿بَيْنِكُمْ﴾؛ بالجر على الإضافة، وقرأ الباقون: «مَوَدَّةً»؛ بالنصب مع التنوين، ونصب: «بَيْنَكُمْ». و«مودة»؛ على قراءتي النصب مفعول لأجله، أي: لأجل المودة بينكم.

و«ما» في قوله: ﴿إِنَّمَا﴾؛ كافة ومكفوفة، أي: إنما جعلتم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله ﴿أَوْثَـٰنًا﴾، أي: أصنامًا وآلهة تعبدونها؛ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: محبة وألفة بينكم في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، ثم سرعان ما تنتهي تلك المودة، وتنقطع وتضمحل، وتعقبها الحسرات والندامة والعداوة.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ثم نتيجة ذلك يوم القيامة يتبرأ بعضكم من بعض، وينكر بعضكم بعضًا، فيتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، وينكر كل منهما الآخر ويعاديه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا

يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، أي: ويلعن كل من العابدين والمعبودين، والأتباع والمتبوعين الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: ومصيركم جميعًا العابدين والمعبودين، ومستقركم النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى، أي: وما لكم أيّ ناصرين ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾:

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فآمن لإبراهيم لوط، أي: صدقه،

وهو ابن أخي إبراهيم هارون بن آزر- فيما ذكر أكثر المفسرين- ولم يؤمن بإبراهيم سواه، وسارة امرأة إبراهيم عليهم السلام.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: وقال إبراهيم: إني مهاجر إلى ربي، وذلك حين كذبه قومه وآذوه، اختار المهاجرة من بين أظهرهم، وترك أرضهم أرض السوء، إلى أرض الشام المباركة.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾، أي: ابتغاء مرضاته، وفي سبيل الدعوة إلى توحيده، والتمكن من إظهار وإقامة شعائر دينه، قال ﷺ: «**من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»(١).

ومن حلمه عليه السلام ورحمته لم يدع على قومه كما دعا بعض الأنبياء، ولم يكن الله ليجري عليهم بسببه عذابًا عامًّا، ومما يدل على ذلك: أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه.

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى «لوط»؛ لأنه أقرب مذكور، وقد هاجر مع إبراهيم عليهما السلام.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: إن ربي هو العزيز، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فله عز وجل العزة التامة؛ يعز رسله وأولياءه، ويذل أعداءه وأعداءهم، وله الحكم التام، والحكمة البالغة في هداية من شاء، وإضلال من شاء، وفي جعل بعض الأرض أرض سوء، وجعل بعضها أرضًا مباركة، يختار ما يشاء من الأشخاص والأماكن والأزمان، فيبارك فيه، ويختار منها ما يشاء لغير ذلك، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أي: ووهبنا لإبراهيم عليه السلام، أي:

---

(١) سبق تخريجه.

أعطيناه بعدما هاجر إلى الشام إسحاق ويعقوب.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]، فإسحاق ولد له لصلبه، و«يعقوب» ولد لابنه إسحاق في حياة جده إبراهيم.

ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى مبشرًا لزوجته سارة: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**»[(١)].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وجعلنا في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب، وقدم الجار والمجرور: ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِ﴾ للدلالة على الحصر، أي: جعلنا الأنبياء بعده كلهم من سلالته والكتب فيهم، فأنبياء بني إسرائيل كلهم إلى آخرهم عيسى بن مريم كلهم من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وآخر الرسل وخاتمهم وأفضلهم وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ ولهذا يكنى إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء».

و«الكتاب» اسم جنس، أي: الكتب السماوية؛ كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾؛ بإنجائه من النار، ونصره على أعدائه، وبالولد الصالح والزوجة الحسنة الصالحة، والرزق الواسع والثناء الجميل.

كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٩٠؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[آل عمران:٦٧].

وبالذكر الحسن؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠].

ومن ذلك أن كل مصلٍّ يذكر في التشهد صلاة الله تعالى وبركاته على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وإنــما المــرء حــديث بعـــده فكــن حـديثًا حسـنًا لمـن وعـى[1]

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، أي: أكمل الصالحين وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ، واللام: للتوكيد.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾.

٢- طيلة لبث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى توحيد الله، وترك الشرك، وشدة معاناته ومعالجته لهم؛ حيث لبث في دعوته إياهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، مما لم يلبثه نبي غيره، ومع ذلك لم ينجع ذلك فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

٣- شدة عتوهم وتماديهم بالاستكبار والكفر، والمكر والظلم، وإغراقهم وإهلاكهم بالطوفان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

٤- إنجاء الله عز وجل نوحًا من الغرق ومن معه في السفينة من أهله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾.

٥- جعله عز وجل إهلاك قوم نوح بالغرق، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة عبرة وعظة للعالمين؛ ليحذروا من سلوك طريق المكذبين، وليسلكوا طريق المهتدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (١/ ١٩٤).

٦- أن في إزجاء الفلك وتسييرها على ظهر البحر تمخر عبابه دون أن تغرق، مع ما تحمله من الأثقال العظام- آيةً من آيات الله الدالة على عظيم قدرته وتمام نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧- إثبات رسالة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ودعوته قومه لعبادة الله تعالى وحده، وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

وفي التذكير به عليه السلام وبغيره من الرسل ثناء عليهم، وإعلاء لمرتبتهم، ودعوة للاقتداء بهم واتباعهم، والصبر كما صبروا؛ كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

٨- وجوب عبادة الله تعالى وحده وتقواه، وأن ذلك خير مطلقًا لمن وفقه الله، وكان ذا علم اهتدى به إلى عبادة الله وتقواه، ومعرفة أن ذلك خير له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٩- أن اسم التفضيل قد يستعمل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

١٠- توبيخ المشركين وتسفيه عقولهم في عبادتهم من دون الله أوثاناً لا تستحق العبادة، اختلقوها وصنعوها بأيديهم، وسموها آلهة، وأشركوها مع الله كذبًا وافتراءً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

١١- أن هذه المعبودات من دون الله لا تملك لعابديها رزقًا ولا غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾. وهذا استدلال بالمحسوس على المعقول.

١٢- أن الرزق كله بيد الله، فيجب طلب الرزق منه تعالى وحده؛ مع بذل السبب، وعبادته والتوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾.

١٣- وجوب شكر الله تعالى على رزقه، وعلى جميع نعمه الظاهرة والباطنة بنسبتها إلى الله، واستعمالها في طاعته، والاستعانة به على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾.

١٤- أن العبادة سبب للرزق، والشكر سبب لبقائه وزيادته وديمومته.

١٥- إثبات البعث والمعاد، والرجوع إلى رب العباد، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾.

١٦- بيان إطباق كثير من الأمم على تكذيب الرسل، والتحذير مما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾.

فليس تكذيب قوم إبراهيم له، ولا تكذيب المشركين للنبي ﷺ بدعًا في الأمم؛ فأكثرهم كذبوا رسلهم، وصار مصيرهم الهلاك.

١٧- أنه ليس على الرسول إلا إبلاغ أمته رسالة ربه بلاغًا بيِّنًا، وأما هداية القلوب فأمرها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٨- الإنكار على المشركين تكذيبهم بالبعث، وإنكارهم قدرة الله تعالى عليه، مع أنهم يرون ويشاهدون كيف بدأ الله الخلق وأنشأه من العدم، فكيف ينكرون قدرته على الإعادة؟! لأنه إذا كان قدر على بدء الخلق فقدرته على إعادته خلقًا آخر من باب أولى لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾.

١٩- أن إعادة الخلق مرة أخرى أمر يسير على الله تعالى؛ كما بدأه أول مرة؛ لتمام قدرته، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٢٠- أمر العباد بالسير في الأرض بأبدانهم، والنظر بأبصارهم، والتأمل بقلوبهم، فيستدلوا بالمبدأ على المعاد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

٢١- إثبات قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢٢- أن الخلق والأمر لله تعالى، يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي هذا إثبات الأفعال

الاختيارية لله عز وجل.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة.

٢٤- تهديد المكذبين ووعيدهم، وأنهم لن يعجزوا الله هربًا، ولن يفلتوا أو يفوتوا من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾.

٢٥- ضعف الخلق، وأنه لا ملجأ لهم ولا مفر من الله إلا إليه.

٢٦- أنه لا ولي للكفار من دون الله يجلب لهم النفع، ولا نصير لهم يدفع عنهم الضر، ويقيهم عذاب الله أو يرفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

٢٧- تيئيس الذين كفروا بآيات الله ولقائه من رحمة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

٢٩- إثبات رحمة الله تعالى وجنته.

٢٨- إثبات رؤية الله تعالى ولقائه يوم القيامة ووجوب الإيمان بذلك.

٣٠- تهديد الذين كفروا بآيات الله ولقائه بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

٣١- شدة عتو قوم إبراهيم واستكبارهم وعنادهم؛ لعدولهم- لما قامت عليهم الحجة فيما دعاهم إليه إبراهيم من عبادة الله تعالى وتقواه، وترك الشرك- إلى استعمال جاههم وقوتهم وجبروتهم؛ لقتله أو إحراقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾.

٣٢- عناية الله تعالى التامة بإبراهيم، وحفظه إياه، وإنجاؤه من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾، بل جعلها الله عليه بردًا وسلامًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

٣٣- أن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار وجعلها عليه بردًا وسلامًا- وهي من طبيعتها الإحراق- دلالات واضحة لقوم يؤمنون، فيستدلون بذلك على تمام قدرة الله تعالى، وصدق إبراهيم عليه السلام وصحة ما جاء به من الحق، وإنجاء الله تعالى لأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

٣٤- أن الأسباب لا تفعل فعلها إلا بارادة الله تعالى وإذنه، فمهما قويت الأسباب فإن الله قد يمنع تأثيرها، كما جعل النار برداً وسلامًا على إبراهيم.

٣٥- أنه لا ينتفع بالآيات الكونية والشرعية إلا المؤمنون.

٣٦- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله من الأوثان وغيرها، غاية ما فيه الاجتماع والتواد على هذا الأمر الباطل في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية؛ ثم يوم القيامة يعقب ذلك الندامة والحسرات، والعداوة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين، ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

٣٧- انقلاب كل خلة في الدنيا عداوة إلا ما كان في الله ولله؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧].

٣٨- أن مأوى المشركين ومعبوداتهم جميعًا النار وبئس القرار، ولا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

٣٩- إيمان لوط لإبراهيم عليهما السلام، واتباعه إياه، ومهاجرته معه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾.

٤٠- هجرة إبراهيم عليه السلام إلى ربه؛ ابتغاء مرضاته، وفي سبيل الدعوة إلى عبادته تعالى وحده، وإقامة شعائر دينه، إلى أرض الشام المباركة، وتركه أرض قومه؛ لأنها أرض سوء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾.

٤١- وجوب الهجرة من بلد الشرك الذي لا يتمكن فيه المسلم من إظهار شعائر دينه إلى بلد الإسلام.

٤٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم ولوط عليهما السلام؛ لقوله تعال: ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾.

٤٣- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزيز» و«الحكيم»، وأنه عز وجل ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٤٤- هبة الله تعالى لإبراهيم- بعد أن هاجر إلى الشام- ابنه إسحاق، ويعقوب بن إسحاق في حياة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٤٥- أن ابن الابن ابنٌ؛ لأن الله جعل «يعقوب» موهوباً لإبراهيم، وهو ابن ابنه إسحاق، وقد قال ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيداً**»[1].

٤٦- منة الله تعالى العظمى، ونعمته الكبرى، على إبراهيم بجعل الأنبياء بعده كلهم من سلالته، والكتب كلها فيهم؛ لفضله وعظم منزلته عند ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

٤٧- إيتاؤه أجره في الدنيا، بإنجائه من النار ونصره على أعدائه، والزوجة الحسنة الصالحة، والذرية الصالحة، والرزق الواسع، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

٤٨- جعله في الآخرة من الصالحين، بل أكملهم وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٤٩- إثبات الأجر والجزاء الدنيوي.

٥٠- إثبات الآخرة والجزاء الأخروي.

٥١- فضل الصلاح، وفضيلة الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى، واتباع شرعه.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٥٥٧، من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، أي: واذكر نبي الله وعبده ورسوله لوطًا عليه السلام حين قال لقومه، ناصحًا ومحذرًا لهم، وموبخًا لهم، ومنكرًا عليهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب بهمزة واحدة على الإخبار المستعمل في التوبيخ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾.

وقرأ الباقون بهمزتين: همزة الاستفهام الإنكاري، وهمزة «إن»: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ».

واللام في قوله: ﴿لَتَأْتُونَ﴾؛ للتوكيد، أي: لتفعلون وترتكبون الفاحشة الكبرى، التي هي أعظم الفواحش: «فاحشة اللواط».

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بالتعريف؛ لأنها كانت معلومة لديهم، ولتعظيم شناعتها وقبحها وفحشها عند الله، وعند الخلق كلهم؛ ولهذا قال تأكيداً لشناعتها:

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب،

مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما سبقكم إلى فعل هذه الفاحشة الشنيعة المخالفة للفطرة أيُّ أحد من العالمين كلهم؛ ولهذا قال الوليد بن عبدالملك بن مروان: «لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكرا»[١].

ولهذا لا يوجد في الحيوانات كلها- التي لم تخرج عن الفطرة السوية- أن ذكرًا منها يعلو ذكرًا مثله.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾؛ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، واللام للتوكيد، أي: أئنكم لتفعلون الفاحشة في أدبار الرجال؟!

﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾، أي: وتقطعون الطريق باعتراض المسافرين؛ لنهب أموالهم، وفعل الفاحشة بمن تختارون منهم، وقذف المارة وأذيتهم، وغير ذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾؛ النادي: المكان الذي ينتدي فيه الناس، أي: يجتمعون ويجلسون، أي: وتأتون في مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

﴿الْمُنكَرَ﴾، أي: ما ينكره الشرع والفِطَر السليمةْ، والعقول المستقيمةْ؛ من فعل الفاحشة، والسخرية بالناس، وقذف المارة وأذيتهم، وغير ذلك مما لا يليق.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، أي: فما كان جواب قومه له لما دعاهم إلى عبادة الله، وتصديقه عليه السلام فيما جاءهم به، وإنكاره عليهم فعل هذه الفاحشة العظيمة، وقطع السبيل، وفعل المنكر في مجالسهم.

﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان» مؤخر، أي: فما كان جواب قومه إلا قولُهم.

﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: عجِّل لنا عذاب الله إن كنت من الصادقين فيما تقول، يقولون هذا على سبيل التحدي والتعجيز.

وهذا يدل على شدة كفرهم، وتكذيبهم وعتوهم، وعنادهم واستكبارهم وسخريتهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط داعيًا الله عليهم، ومستنصرًا به.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/ ١٦٣).

﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾، أي: يا رب، انصرني ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ في الأرض بكفرهم وتكذيبهم، وفعلهم الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل.

أي: أظهرني واجعل الغلبة لي عليهم، وعذبهم وأهلكهم؛ ليظهر لهم صدقي، ويرتاح العباد والبلاد منهم ومن فسادهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ الواو: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين» متضمن معنى الشرط، أي: وحين جاءت رسلنا من الملائكة إبراهيم.

﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ الباء: للمصاحبة، أي: بالخبر السار، وهو البشارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: ٧١].

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قالوا له فيما أخبروه من سبب مجيئهم.

﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾، أي: أهل قرية: «سدوم»؛ وهم قوم لوط عليه السلام، استجابة لدعاء لوط عليه السلام، وفي الإشارة إلى قريتهم بـ«هذه» دليل على قربها من إبراهيم.

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ بالكفر والتكذيب للوط عليه السلام، وإتيان الفاحشة، وقطع السبيل، وفعل المنكر في مجالسهم، وغير ذلك، وهذا تعليل وبيان لسبب إهلاكهم.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾، أي: فكيف تهلكون أهلها

ولوط بين أظهرهم؟

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾، أي: قال الرسل من الملائكة: نحن أعلم بالذين فيها، ممن هم ظالمون يستحقون الإهلاك، وممن ليسوا كذلك؛ ولهذا قالوا:

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الجيم مع سكون النون الثانية: «لَنُنْجِيَنَّه»، وقرأ الباقون بتشديد الجيم وفتح النون: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لننجين لوطًا، أي: لننقذنه من الهلاك ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾؛ وهما ابنتاه، حيث أمره الله عز وجل أن يسري بهم بقطع من الليل.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا زوجته ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، أي: من الباقين في العذاب الهالكين؛ لكفرها، ومساعدتها قومها على فعل الفاحشة، وإخبارها لهم بأضياف لوط عليه السلام.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾«لما»:ظرفية شرطية، و«أن»: زائدة للتوكيد، والباء: للسببية، أي: سيء بسببهم، أي: ساءه مجيئهم.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ «ذرعاً» تمييز، أي: ضاقت قوته وحيلته بهم؛ خوفًا عليهم من قومه؛ لأنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل.

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾، أي: أخبروه أنهم رسل الله، وقالوا له: لا تخف ولا تحزن.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «مُنْجُوكَ» بسكون النون، وقرأ الباقون بفتحها وتشديد الجيم: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، والجملة تعليلية، أي: لا تخف ولا تحزن؛ لأنا منجوك وأهلك، وفي هذا إشارة أيضا إلى أن مما جعله يستاء لمجيئهم ويضيق بهم ذرعاً مخافة أن يعمه العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي: «مُنَزِّلُونَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿مُنزِلُونَ﴾.

﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: عذابًا شديدًا من السماء.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى؛ بكفرهم وتكذيبهم لوطًا، وارتكاب الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل.

فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [الآية: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، أي: ولقد تركنا وأبقينا من عقوبتهم، وآثار قريتهم ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، أي: علامة ظاهرة، وعظة وعبرة واضحة.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم ذوي عقول نيرة، تهديهم إلى التأمل والتفكر في الآيات والعظات والعبر، والانتفاع بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

حيث جعل الله مكان قريتهم بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلًا ونهارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ – ١٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وفضله والثناء عليه.

٢- إنكاره المؤكد الشديد عليه السلام على قومه إتيان فاحشة اللواط، بإتيان الرجال في أدبارهم، وقطعهم السبيل، وإتيانهم في مجلسهم المنكر؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾.

٣- أن فاحشة اللواط أشد من فاحشة الزنا؛ لهذا لا تذكر فاحشة اللواط إلا معرفة بـ«ال»: «الفاحشة»، بينما تذكر فاحشة الزنا أحيانًا منكرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

٤- أنه لم يسبق قومَ لوط إلى فعل فاحشة اللواط بركوب الذكر الذكر أحد من بني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ بل ولم يعهد ذلك في سائر الحيوانات.

٥- شدة تكذيب قوم لوط وكفرهم، وعتوهم وعنادهم، واستكبارهم وسخريتهم؛ حيث قابلوا دعوة لوط لهم إلى عبادة الله تعالى، وتصديقه فيما جاءهم به، وإنكاره ما هم عليه من الأفعال القبيحة، بطلبهم منه إتيانهم بعذاب الله إن كان من الصادقين؛ تعجيزًا له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٦- أن لوطاً عليه السلام حذرهم وخوفهم عذاب الله؛ لقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٧- دعوة لوط عليه السلام عليهم؛ بسؤاله ربه أن ينصره عليهم، وتبرؤه منهم؛ لإفسادهم في الأرض بالكفر والتكذيب، وفعل الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٨- أن المعاصي من أعظم أسباب الفساد في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

٩- جواز الدعاء على أهل الكفر والشر والفساد والعناد، وقد قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

وقال نبينا ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**»[1].

١٠- أن اللواط من أعظم الفساد في الأرض.

١١- حاجة الأنبياء- كغيرهم من البشر- إلى دعاء الله واللجوء إليه، وضرورتهم

---

(١) سبق تخريجه.

إليه، وغيرهم من باب أولى.

١٢- بشارة رسل الله تعالى من الملائكة لإبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ الآية.

١٣- أن من طبيعة البشر الفرح بالولد؛ الأنبياء ومن دونهم.

١٤- إثبات أن من الملائكة رسلاً، وتشريفهم بإضافتهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾.

١٥- استجابة الله تعالى لدعاء لوط عليه السلام بنصر الله تعالى له على قومه.

١٦- إخبارهم إبراهيم بأنهم جاؤوا لإهلاك قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، وفي هذا دلالة على فضيلة إبراهيم، وأنه أفضل من لوط عليه السلام.

١٧- إفصاح رسل الله من الملائكة لإبراهيم عن سبب إهلاكهم قوم لوط، وهو ظلمهم بالكفر، وتكذيب لوط، وإتيان الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل، ونحو ذلك؛ لقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

١٨- أن الهلاك إذا نزل قد يعم الصالح وغيره؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام للملائكة- شفقةً منه وحلمًا-: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾؛ كما قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٣، ٩٤].

١٩- طمأنة الملائكة لإبراهيم، بإخبارهم له بعلمهم عن القرية من يستحقون الإهلاك ومن لا يستحقون النجاة، وإخبارهم إياه بإنجاء إبراهيم وأهله إلا امرأته؛ لكونها من الباقين في العذاب المهلكين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

٢٠- إثبات القول والعلم للملائكة، وفي هذا دلالة على أن لهم عقولا ونطقاً، وأجساداً، خلافاً لمن نفى ذلك.

٢١- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ

ٱلْقَرْيَةِ﴾، وقولهم: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾؛ فنسبوا الإهلاك والإنجاء إلى أنفسهم، مع أن المهلك والمنجي هو الله تعالى.

٢٢- أن زوجة الرجل داخلة في أهله؛ لقول الملائكة: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾، ثم استثنوا من ذلك امرأته، فقالوا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

وفي هذا رد على الرافضة أخزاهم الله، الذين يخرجون أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، ويقعون فيهن.

٢٣- أنه لا يشفع لأحد عند الله نسبُه ولا حسبُه، فامرأة لوط لم ينجها من العذاب كونها زوجته عليه السلام.

٢٤- أن العذاب إذا نزل عم الظالمين ومن أعانهم على ظلمهم وأيدهم؛ كما حصل لامرأة لوط عليه السلام.

٢٥- استياء لوط عليه السلام بمجيء الرسل من الملائكة إليه وضيقه بهم ذرعاً، وطمأنتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

٢٦- أن الرسل كغيرهم من البشر تعتريهم العوارض البشرية من الاستياء، وضيق الذرع ونحو ذلك.

٢٧- الاستدلال على الأحوال بالملامح، لقول الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ الآية؛ لأنه ظهر لهم من ملامحه- والله أعلم- أنه استاء منهم وضاق بهم.

٢٨- إهلاك قوم لوط بعذاب من السماء، بقلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وإتباعها بالحجارة، بسبب فسقهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

٢٩- أن من سنن الله الكونية إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإيقاع العذاب بالمكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٣٠- إثبات العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾.

٣١- إثبات الأسباب، وأن الفسق سبب للعقوبة.

٣٢- بقاء عقوبة قوم لوط وآثار قريتهم آية بينة، ودلالة واضحة على تمام قدرة الله تعالى، وعظة وعبرة للمعتبرين من ذوي العقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾؛ مما يوجب الحذر من هذه الفعلة الشنيعة، الموجبة لغضب الله وسخطه، وأليم عقابه.

وعلى من ابتلي بها التوبة والإنابة إلى الله، والخوف من عقابه، وسؤاله العصمة والحفظ منها ومن غيرها من الفواحش والذنوب.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

٣٣- شدة عقاب الله تعالى لقوم لوط؛ لما هم عليه من الإفساد في الأرض والكفر والظلم والفسق، وإتيان الفاحشة التي لم يسبقهم إلى فعلها أحد من العالمين، ووجوب الحذر من مسلكهم.

٣٤- أنه إنما ينتفع بالآيات، والعبر والعظات، ذوو العقول الراجحة، الذين تهديهم عقولهم إلى النظر والتأمل بالآيات وأخذ العظات والعبر منها؛ بخلاف غيرهم ممن لم ينتفعوا بذلك، وإن كانت لديهم العقول التي هي مناط الإدراك، فهم لا يعقلون.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: وأرسلنا إلى أهل مدين البلدة المعروفة المشهورة، أو القبيلة المعروفة المشهورة، أخاهم شعيبًا.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، أي: وارجوا واطلبوا بعبادتكم ثواب الله، واخشوا وخافوا عقابه في اليوم الآخر يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تفسدوا في الأرض، أي: ولا تسعوا في الأرض مفسدين؛ بالبغي والكفر وبخس المكاييل والموازين، وقطع الطريق، وصد الناس عن سبيل الله وغير ذلك من الفساد الحسي، والفساد المعنوي المؤدي إلى الفساد الحسي؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الآية: ٨٥].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية: ٨٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوا شعيبًا في رسالته وفيما دعاهم إليه من عبادة الله تعالى وحده، رجاءً في ثوابه، وخوفًا من عقابه، وفيما نهاهم عنه من السعي بالإفساد في الأرض.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، أي: فأهلكتهم الزلزلة الشديدة، والصيحة التي رجفت منها الأرض لشدتها.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، أي: فصاروا في دارهم صرعى هالكين ميتين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾، أي: وأهلكنا عادًا وثمود، أو: واذكر عادًا وثمود.

﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾؛ الواو: حالية، و«قد»: حرف تحقيق.

أي: والحال أنه قد تبين لكم من مساكنهم، أي: وقد تبين لكم إهلاكهم، وأخذنا إياهم من آثار مساكنهم التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: حسن لهم الشيطان أعمالهم السيئة؛ من الكفر والشرك بالله، وتكذيب رسله، والاستكبار والعناد، حتى ظنوا أنهم على الحق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: فصرفهم عن سبيل الله وعن صراطه المستقيم، وطريقه القويم.

وعرّف السبيل وأفرده؛ لأن طريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣].

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أي: وكانوا ذوي بصائر وعقول، يستطيعون أن ينظروا بها آيات الله ودلائل هدايته، ومعرفة الحق، لكنهم يتعامون عنها اتباعًا لأهوائهم، وتقديمًا لشهواتهم وملذاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧].

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ﴾.

ضرب الله مثلًا لقريش بالأمم المكذبة للرسل، وكيف انتقم الله منهم، ثم ضرب مثلًا لصناديد قريش، مثل: أبي جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبي لهب، وأمثالهم، بصناديد الكفر في عهد موسى عليه السلام، كيف أهلكهم الله وانتقم منهم؟!

أي: وأهلكنا قارون، أو: واذكر قارون، الذي آتاه الله الكنوز العظيمة، وفرعون، وهو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام، وهامان وزير فرعون.

قيل: وقدم «قارون»؛ لعلو نسبه؛ لأنه من بني إسرائيل، وهم أشرف من الأقباط الذين منهم فرعون وهامان.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والحجج والدلائل الواضحات، على صدقه وصحة ما جاء به من الحق، والباء: للمصاحبة.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ فكذبوا موسى ورموه بالسحر، وردوا ما جاء به من الحق، وتكبروا على الخلق، وآذوهم وأذلوهم.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾، أي: وما كانوا سابقين لله ولا معجزين له، ولا مفلتين من عذابه ولا فائتيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٥٧].

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾، أي: فكلًا من هؤلاء وغيرهم من الأمم المكذبة، ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾، أي: عاقبناه عقوبة مناسبة بقدر ذنبه، وبسبب ذنبه، من الكفر والشرك وغير ذلك؛ لأنهم اجتمعوا كلهم على تكذيب الرسل، والكفر والشرك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ «من» في المواضع الأربعة موصولة، أي: فمنهم الذي أرسلنا عليه حاصبًا، أي: ريحًا ترميهم بالحصباء؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: ١٩ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ [الذاريات: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، أي: ومنهم الذي أهلكته الصيحة، وهم ثمود قوم صالح عليه السلام، أهلكوا بالصيحة، وهي صوت من السماء شديد، قطع قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: ٥]، أي: الصيحة الشديدة.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: ومنهم الذي خسفنا به الأرض، أي: غيبناه فيها، وهو قارون الذي طغى وبغى، ومشى في الأرض مرحًا، فعاقبه الله بإذلاله بخسف الأرض به.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾، أي: ومنهم الذي أغرقناه، وهو فرعون ووزيره هامان

وجنوده، حيث كان فرعون يفتخر بالأنهار والماء بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأهلكه الله ووزيره وجنوده بالماء.

والسياق بهذا الترتيب من باب اللف والنشر، فذكر عز وجل الأمم المكذبة وهم في هذا السياق: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، ثم ذكر عقوباتهم.

وقد قيل: المراد بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: قوم لوط، وبقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾: قوم نوح، وبقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: قوم شعيب.

والأول أقرب وأظهر؛ لأن الله قد ذكر قوم نوح وقوم لوط وقوم شعيب وعقوباتهم كلًّا منهم على حدة قبل هذا في هذه السورة، وقد طال الفصل بينهما أيضًا.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ اللام: لام الجحود أو الإنكار، والمصدر المؤول: «أن يظلمهم» في محل جر باللام متعلق بمحذوف خبر «كان»، أي: وما كان الله في عقابه إياهم ظالمًا لهم، ولا يكون منه ذلك، ولا يليق به.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ بسبب كفرهم وشركهم، وتكذيبهم للرسل، واستكبارهم وعصيانهم؛ حيث عرضوها لعقاب الله تعالى.

و«أنفسهم»: مفعول لـ«يظلمون»، وقدم عليه؛ مراعاة للفواصل، ولإفادة الحصر، وأنهم ما ظلموا إلا أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزخرف:٧٦].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى مدين، وأنه أخوهم في النسب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- دعوته عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ كما هي دعوة غيره من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾.

٣- إثبات اليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء، ووجوب الاستعداد له بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، رجاء ثواب الله، وخوفًا من عقابه.

٤- نهيه عليه السلام لهم عن السعي في الأرض بالبغي والفساد، بالكفر والشرك، ونقص المكاييل والموازين، وقطع الطريق، وصد الناس عن سبيل الله؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

٥- أن الكفر والشرك والمعاصي من أعظم الفساد في الأرض؛ لأن ذلك سبب لخراب البلاد، وهلاك الحرث والنسل.

٦- تكذيبهم له، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر، وبخس الكيل والوزن، وغير ذلك، وإهلاكهم بالرجفة والصيحة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم، فصاروا في دارهم جثثًا هامدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

٧- التذكير بإهلاك عاد وثمود، بسبب تكذيبهم رسل الله، وبقاء آثار مساكنهم الخاوية- التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا- شاهدة على ما حل بهم من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾.

٨- تحسين الشيطان لهم ولغيرهم من المكذبين أعمالهم السيئة؛ من الكفر، وتكذيب الرسل، والاستكبار، ومخالفة أمر الله، وصدهم عن سبيل الله وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٩- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبر على أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فنسب الأعمال إليهم، فدل على أنها باختيارهم.

١٠- أن الأعمال السيئة سبب للضلال عن طريق الحق؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين:١٤].

١١- ذم هؤلاء المكذبين؛ لاختيارهم الباطل على الحق؛ اتباعًا لأهواهم، وإيثارًا لشهواتهم، وعدم التأمل والانتفاع بما منحهم الله من البصائر والعقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾.

١٢- وجوب الاعتبار بأحوال الماضين من المكذبين وعقوباتهم، والحذر من الشيطان، وتزيينه الأعمال السيئة، ووجوب التأمل والتفكر في آيات الله، بما منحنا الله من العقول؛ لمعرفة الحق واتباعه، واجتناب الباطل.

١٣- التذكير بإهلاك قارون وفرعون وهامان وذمهم؛ لتكذيبهم ما جاء به موسى من البينات، واستكبارهم عن اتباع الحق، وعلوهم على الخلق، وأذيتهم لهم، وأنهم ما

كانوا معجزين لله، ولا مفلتين من عقابه، وفي هذا تهديد للطغاة من المشركين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾.

١٤- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وبني إسرائيل.

١٥- أن من أعظم أسباب الاستكبار: المال والجاه والرئاسة؛ فقارون استكبر بسبب المال، وفرعون وهامان استكبرا بسبب الرئاسة والجاه والمنصب.

١٦- أنه لا أحد يستطيع أن يعجز الله، أو يفوته، أو يفلت من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾.

١٧- عقوبة الله تعالى كل أمة بقدر ذنبها وبما يناسبه؛ عدلًا منه تعالى؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾.

١١٨- كمال عدل الله عز وجل في عقابه المكذبين، وأنه ما كان ظالمًا لهم حين عذبهم، ولا يكون منه الظلم لأحد من خلقه، ولا يليق به؛ لأنه سبحانه الحَكَم العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

١٩- أن سبب إهلاك الأمم المكذبة: هو ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل والكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فعاقبهم الله عز وجل بقدر ذنوبهم وبسببها.

٢٠- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، للمكذبين الظالمين، من المشركين وغيرهم من هذه الأمة عامة، ولرؤوس الكفر منهم خاصة، أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم.

٢١- أن النفس وديعة عند الإنسان، يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها، ويحرم عليه أن يظلمها ويوقعها فيما فيه هلاكها وشقاؤها بفعل المعاصي.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾﴾:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في عبادتهم من دون الله آلهة يوالونها، ويرجون نفعها لهم، ودفعها عنهم، وهي في غاية الضعف والعجز، أوهى من نسج العنكبوت؛ كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ «مَثَل»: بمعنى شَبَه، أي: مثل المشركين الذين جعلوا غير الله أولياء لهم، أي: آلهة يعبدونهم من دونه، ويوالونهم، ويرجون منهم جلب النفع لهم؛ من النصر والرزق وغير ذلك، ودفع الضر والشر عنهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، أي: كمثل العنكبوت، وهي: دويبة صغيرة ضعيفة، ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ﴾، أي: جعلت لنفسها بيتًا أشبه بالخيمة وبيت الشعر، من لعابها، يكون خيوطًا منسوجة مشدودة بين طرفين، تحتجب فيه، وتفرخ فيه.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، أي: أضعفها وأوهاها، ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾؛ اللام للتوكيد، وإنما كان بيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه لا يحتمل مس أدنى

الحيوانات، ولا أخف الرياح، ولا يقي من الآفات، ولا من حر ولا برد؛ ولهذا ما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا.

وكذلك هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم، ويوالونهم، ويستنصرون بهم، وهم في غاية الضعف والعجز، لا يملكون لهم نفعاً، ولا دفعاً، ولم يزدادوا بعبادتهم إياهم إلا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى وهنهم.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ «لو»: شرطية غير جازمة، أي: لو كانوا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويعلمون حقيقة ضعف هذه الآلهة ما اتخذوها أولياء من دون الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؛ قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالغيب، وقرأ الباقون: «تَدْعُونَ» بالخطاب.

و«ما»: نافية، و«من» في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾؛ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: إن الله يعلم أنهم ما يدعون ويعبدون من دونه عز وجل أيَّ شيء، وإنما يدعون عدمًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

وعلى هذا المعنى يكون السياق انتقل من بيان ضعف آلهتهم غاية الضعف إلى ما هو أبلغ، وهو أنها ليست بشيء؛ لأنه عند التحقيق يتبين بطلانها وعدمها.

ويحتمل أن تكون «ما»: موصولة، أي: إن الله يعلم الذي يدعون ويعبدون غيره من أي شيء كان من الأنداد والشركاء، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: وهو ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وفي هذا تهديد للمشركين بأخذه الشديد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، «الحكيم» في خلقه وقدره وشرعه، الذي يضع الأمور مواضعها، «الحكيم» في إمهاله المشركين والمكذبين، وعدم معاجلتهم بالعقوبة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ «الأمثال»: جمع «مثل».

و«ضرب المثل»: تشبيه أمر معنوي معقول بأمر حسي؛ لتقريب المعنى وزيادة الإيضاح والبيان؛ كما في تمثيل آلهة المشركين الذين اتخذوهم من دون الله أولياء بالعنكبوت باتخاذها بيتًا.

وكقوله تعالى في تمثيل مضاعفة أجر المنفقين أموالهم في سبيل الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهي مما امتن الله به على الناس؛ لما فيها من تقريب المعاني وبيانها؛ ولهذا أشار إليها بإشارة البعيد: «تلك»؛ امتنانًا بها، وتعظيمًا لشأنها، أي: وتلك الأمثال العظيمة نضربها في القرآن، أي: نجعلها أمثالا لأجل الناس؛ تقريبًا للمعاني لهم، وإقامة للحجة عليهم.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾، أي: وما يعقل الأمثال ويتدبرها ويفهمها، ويطبقها على ما ضربت له.

﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أهل العلم الذين أنار الله بصائرهم بالعلم، ووفقهم للانتفاع بعلمهم، وفي هذا امتداح من الله تعالى لهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: «عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل»(١).

وعن عمرو بن مرة، قال: «ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٠٣.

سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: خلق الله السموات والأرض بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، أي: لعبادته وتوحيده وإقامة شرعه، وظهور تمام قدرته وحكمته وعدله في مجازاة كل بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الإشارة إلى خلق السموات والأرض بالحق، واللام للتوكيد، أي: إن في خلق السموات والأرض دلالة بينة على تمام قدرة الله تعالى وعظمته وحكمته، ونعمته، وكمال ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتأملون في آيات الله، وينتفعون بها، وتهديهم إلى الحق.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: اقرأ الذي أوحي إليك من القرآن واتبعه، وأمر أمتك بقراءته واتباعه، والاهتداء بهديه، والعمل به، بتطبيق أحكامه، وتدبر معانيه، وتصديق أخباره.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾؛ هذا من عطف الخاص على العام؛ لعظم أمر الصلاة، فهي أعظم العبادات، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، والأمر له ﷺ ولأمته، أي: وأقم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٣٠٦٤.

الصلاة إقامة تامة، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها؛ الفرائض منها والنوافل.

والصلاة في اللغة: الدعاء.

في الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال مخصوصة، مبتدأة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ تعليل للأمر بإقامتها، أي: لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، إذا أقيمت كما شرعها الله عز وجل.

و«الفحشاء»: كل ما فحش وقبح في الشرع، وفي عرف المسلمين، وفي العقول السليمة، والفطر المستقيمة، كالزنا واللواط والسرقة وشرب الخمور، ونحو ذلك.

و«المنكر»: كل ما أنكره الشرع وعرف المسلمين، والعقول السليمة، والفطر المستقيمة، وهو أعم من الفحشاء، فعطفه عليها من عطف العام على الخاص، فكل فحشاء منكر، وليس كل منكر فحشاء.

فمن أعظم مقاصد الصلاة وأهم ثمراتها: أنها تحمل على فعل الخير، وترك الشر والفواحش والمنكرات إذا أقامها العبد كما شرعها الله، وذلك لأنها تنير قلب المؤمن، وتطهر فؤاده، وتزيد إيمانه، وتقوي رغبته في الخير، وتضعف داعي الشر في النفس، فهي بمثابة الواعظ الناهي المذكر بالله تعالى على الدوام.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر؛ لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدًا»(١).

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولذكر الله بالقلب واللسان والجوارح، والتعبد له في الصلاة التي هي أعظم العبادات، أو خارجها بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك، ﴿أَكْبَرُ﴾، أي: أعظم وأفضل من كل شيء.

وأيضًا: ولذكر الله تعالى للذاكرين له عز وجل أكبر وأعظم وأفضل من ذكرهم له؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني،**

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/ ٤٠٨.

فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾؛ «ما» موصولة، أي: والله يعلم الذي تصنعونه. أو مصدرية، أي: يعلم صنعكم.

أي: يعلم الذي تعملونه من الأعمال، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، خيرها وشرها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها أكمل الجزاء وأوفاه.

الفوائد والأحكام:

١- تحقير المشركين وما اتخذوه من دون الله من آلهة يوالونها، ويرجون نفعها وشفعها هي في غاية الضعف والعجز، ولا تجدي عنهم شيئًا؛ لأن الله مثَّلهم في اتخاذهم لها بالعنكبوت باتخاذها بيتًا هو أوهن البيوت وأضعفها؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾.

٢- لا ينبغي أن يقال: هذا البيت أوهن من بيت العنكبوت؛ لأن الله قال: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ لكن يجوز أن يقال: هذه الحجة أو هي، أو أوهن من بيت العنكبوت.

٣- ذم الشرك وأهله وتجهيلهم، وأنهم لو كانوا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويعلمون حقيقة ضعف هذه الآلهة ما اتخذوهم أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

٤- علم الله تعالى بأن المشركين ما يدعون من دونه أيّ شيء، وإنما يدعون عدمًا وباطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾؛ وهذا على اعتبار «ما»: نافية.

٥- تهديد المشركين بإحاطة علمه تعالى بكل الذي يدعون من دونه من أيّ شيء كان، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه في الأدب ٣٨٢٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىۡءٍۚ﴾؛ وهذا على اعتبار «ما»: موصولة.

٦- إثبات اسم الله عز وجل: «العزيز»، وأنه ذو العزة التامة، والقوة والقهر والغلبة والامتناع، وتحذير المشركين من أخذه عز وجل إياهم أخذ عزيز مقتدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وصفة الحكم التام له: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وصفة الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، وأنه عز وجل الحكيم في إمهاله المشركين والمكذبين، وعدم معاجلتهم بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٨- امتنان الله تعالى على العباد بضرب الأمثال في القرآن للناس، وتعظيم شأنها؛ لما فيها من تقريب المعاني المعقولة، وزيادة الإيضاح والبيان للناس، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾.

٩- أنه لا يعقل الأمثال ولا يتدبرها ويفهمها وينتفع بها إلا أهل العلم، الذين أنار الله بالعلم بصائرهم، ووفقهم للانتفاع بعلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾، وفي هذا ترغيب في العلم وفي تدبر الأمثال.

١٠- فضيلة العلم وأهله، الذين يتدبرون بعلمهم كلام الله، ويهتدون به وفضيلة العقل الذي يهتدي به صاحبه إلى الحق.

١١- إثبات أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وإثبات حكمته في خلقها، وأنه إنما خلقهما بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، ولعبادته وحده لا شريك له، وإقامة شرعه ومجازاة كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

١٢- استدلال المؤمنين بخلق السموات والأرض على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٣- أنه لا يستفيد من الآيات، ولا يتأمل فيها وينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٤- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه بوحي الله عز وجل إليه بالقرآن، وبخطابه عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٥- أمر الله عز وجل له ﷺ بقراءة القرآن، وتبليغه للناس واتباعه، والعمل به، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن لها به أسوة.

١٦- أمر الله تعالى له بإقام الصلاة: فرضها ونفلها، وهو أمر له ﷺ ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٧- وجوب تلاوة القرآن والعمل به واتباعه، ووجوب إقامة الصلاة.

١٨- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لأن الله خصها بالذكر من بين سائر العبادات، ولهذا فإن من لم يصل فهو كافر، لا حظَّ له في الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال ﷺ: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١).

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»(٣).

١٩- أن من حكمة الأمر بالصلاة وتخصيصها بالذكر: أنها تنهى من أقامها- كما شرعها الله تعالى- وحافظ عليها عن فعل الفواحش والمنكرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ ولهذا فإن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإنه لم يقمها كما أمر الله.

٢٠- أن ذكر الله تعالى بأنواع الذكر، بالقلب واللسان والجوارح، والتعبد له في

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨٢، وأبو داود في السنة ٤٦٧٨، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧٨؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٣، والترمذي في الإيمان ٢٦٢١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧٩ من حديث بريدة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الطهارة ٨٤؛ من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

الصلاة التي هي أعظم العبادات، أو خارجها بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وغير ذلك، أكبر وأعظم وأفضل من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٢١- إثبات علم الله تعالى الواسع بجميع أعمال العباد، وإحصائها عليهم، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم عليها، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

٢٢- إثبات الاختيار والفعل للعبد؛ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا رد على الجبرية والقدرية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٥٢ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾.

قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾، أي: ولا تخاصموا وتنازعوا، والنهي للأمة كلها.

﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ اليهود والنصارى، أي: ولا تخاصموهم في سبيل بيان الحق لهم، والرد على باطلهم.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بالطريقة والصفة التي هي أحسن، وذلك بحسن القصد، بحيث يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق، ونقض الباطل؛ مع قوة الحجة في المناظرة التي تندفع بها حجة الخصم، وتقوم بها عليه الحجة من دلائل الكتاب والسنة والآيات الشرعية والكونية، مع أدب المناظرة، وكون ذلك بالقول اللين، والكلام الطيب اللطيف، دون مغالبة أو استعلاء.

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ «إلا»: للاستثناء، أي: إلا الذين ظلموا من أهل الكتاب، فسعوا إلى إبطال الحق، وكذبوا وعاندوا، وحاربوا أهله، فهؤلاء يعاملون بالقوة والجلاد، والقتال والجهاد، مع القدرة على ذلك، ومع عدم القدرة على ذلك يتركون ولا يجادلون؛ فلا فائدة من جدالهم؛ لأنه قد ظهر عنادهم وظلمهم.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، أي: لتكن مجادلتكم لهم مبنية على هذا القول؛ لأنه من أحسن المجادلة؛ لما فيه من التوطئة والتمهيد، والتهدئة، والترغيب، أو الإلزام لهم، وردم الهوة بينكم وبينهم في الاختلاف، وبيان أن الأصل بينكم وبينهم الاتفاق على الأصول المهمة، وذلك طريق بل سبب للاتفاق على ما عداها.

أي: وقولوا: صدقنا بالذي أنزل إلينا، أي: بالقرآن الكريم على وجه التفصيل، وصدقنا بالذي أنزل إليكم؛ وهما: التوراة والإنجيل على وجه الإجمال.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾، أي: ومعبودنا ومعبودكم واحد، هو الله عز وجل وحده لا شريك له.

وفي هذا إرغام للنصارى في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة:٧٣]، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: ونحن له وحده مسلمون، أي: مستسلمون له بالتوحيد، منقادون لطاعته، مخلصون له عن الشرك.

ومفاد هذا: أنهم إذا أخبروكم بما لا تعلمون صدقه ولا كذبه، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم؛ كما قال ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَمَآ أُنزِلَ ....﴾ الآية»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾، أي: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، أي: القرآن الكريم، المصدق لجميع الكتب قبله، و«ال» في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد الذهني.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ من اليهود والنصارى، الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل قبل تحريفهما، وبما جاء فيهما من البشارة بمحمد ﷺ، أمثال: النجاشي وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم، الذين امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾[القصص: ٥٢-٥٤].

فالمراد بالإيتاء في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإيتاء الكوني والشرعي؛ لأن كثيرًا من أهل الكتاب وإن أوتوه كوناً فإنهم لم يؤتوه شرعاً؛ لأنهم كذبوا به؛ ولهذا كذبوا القرآن مع تصديق كتبهم به.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾، أي: يؤمنون ويصدقون بالقرآن ويتبعونه، ويحكّمونه؛ لتيقنهم بأنه مصداق ما أخبرت وبشرت به كتبهم، وأنه المصدق لها، وسلامتهم من الحسد والهوى؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾، أي: ومن هؤلاء العرب- من قريش وغيرهم-

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٤٨٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من يؤمن ويصدق به، أي: بالقرآن.

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وما يكذب بآياتنا وينكرها، ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الكافرون بالله من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، الذين دأبهم الكفر والجحود، وستر الحق بالباطل؛ عنادًا واستكبارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَا كُنتَ﴾، أي: وما كنت يا محمد، ﴿تَتۡلُواْ﴾، أي: تقرأ، ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾، أي: من قبل إنزال القرآن عليك، ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما كنت تقرأ من قبل إنزال القرآن عليك أيَّ كتاب.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾، أي: ولا تكتب أيّ كتاب بيمينك؛ لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ﷺ: «**نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»(١).

﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾؛ «إذًا»: حرف جواب، واللام: رابطة لجواب شرط مقدر بـ«لو»، أي: لو كنت تتلو قبله كتابًا أو تخطه لارتاب المبطلون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والمعنى: لو كنت تقرأ وتكتب لارتاب المبطلون، أي: لشك الذين يريدون إبطال الحق ونصرة الباطل، وقالوا: إنما أخذ هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء.

مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩١٣، ومسلم في الصيام ١٠٨٠، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هذا القرآن آيات بينات، مفصلات واضحات الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، وفي هذا امتداح للقرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⁦(٦)⁩﴾ [الفرقان: ٦].

﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾، أي: في صدور الذين أعطاهم الله العلم، فمنّ عليهم بحفظ القرآن في صدورهم، وتلاوته، وتعلمه وفهمه، والعمل به؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم»(١).

وفي هذا ثناء على أهل العلم، الذين يحفظون القرآن ويتلونه، ويفهمون معانيه، ويعملون به، ويتدبرونه حق تدبره. وليس الذين يقرؤونه ولا يجاوز تراقيهم، وما أكثرهم!.

وفيه امتنان عليهم بتيسير حفظه وتلاوته، وتفسيره لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⁦(١٧)⁩﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقيل: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، أي: بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، والأول أظهر.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: وما يكفر بآياتنا ويكذب بها.

﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الظالمون الذين بلغوا الغاية في الظلم؛ لكفرهم وشركهم، وإنكار حق الله عليهم، بل وصرفه لغيره، وتكذيبهم بآياته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ⁦(٥٠)⁩ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ⁦(٥١)⁩ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ⁦(٥٢)⁩﴾.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٩٥.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «آيةٌ» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع.

أي: وقال المشركون المكذبون: ﴿لَوْلَآ﴾ للتحضيض، أي: هلَّا أنزل على محمد ﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: دلالات وحجج وبراهين من ربه نشاهدها، تدل على صدقه وصحة ما جاء به؛ كناقة صالح وعصا موسى، ونحو ذلك.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وهم في هذا كاذبون، فقد أراهم ﷺ عدداً من الآيات الحسية؛ كانشقاق القمر، وتسبيح الطعام بين يديه، وتسبيح الحصى في يده(١)، وغير ذلك.

كما جاءهم بأعظم الآيات المعنوية وأكبر الآيات السماوية القرآن الكريم، ولكنهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قل لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ «إنما»: أداة حصر في الموضعين، أي: ما الآيات إلا عند الله، هو الذي إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها بمقتضى علمه وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾، أي: وما أنا إلا نذير، أي: محذِّر ومخوِّف، ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن النذارة والتحذير والتخويف.

والحصر هنا إضافي، أي: لا أستطيع أن آتيكم بالآيات، وإنما الذي أستطيعه هو

---

(١) سبق تخريجها.

إنذاركم وتحذيركم من عذاب الله إن عصيتم أمره، أو ارتكبتم نهيه، وليس عليّ من أمر الإتيان بالآيات شيء، وليس علي هدايتكم؛ كما قال تعالى: ﴿۞لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي: أولم يكف هؤلاء المكذبين- القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾- آيةً على صدقك وصحة نبوءتك: إنزالنا عليك القرآن يتلى عليهم، ويقرأ على الدوام؟ فهو آية مستمرة إلى يوم القيامة، وهو أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، عجزوا عن معارضته مع تحديه لهم؛ لبلوغه غاية الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره. وفيه كفاية وغنية عن كل آية، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٣].

ولهذا قال ﷺ: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**(١).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إنزال الكتاب عليك ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لرحمة خاصة لك وللمؤمنين، ورحمة عامة للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: تذكير وعظة لقوم يؤمنون؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكرى.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الباء: زائدة لإفادة التوكيد، أي: كفى الله ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾؛ عليَّ فيما بلغتكم من رسالته؛ ولهذا أيدني بالمعجزات، والدلائل الواضحات، ولو تقولت عليه لانتقم مني؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا

---

(١) سبق تخريجه.

مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧].

وشهيدًا عليكم فيما قابلتموني به من تكذيب رسالته إليكم وحاكمًا بيني وبينكم، وسيجازي كلًّا منا بما عمل.

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من المخلوقات، ومن الناس وأعمالهم ومنه حالي وحالكم، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبهم جميعًا على ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ الواو: استئنافية، و«الذين»: مبتدأ، وخبره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذا من الحكم بينه وبينهم.

و«الباطل»: ضد الحق، وهو كل ما عبد من دون الله؛ ولهذا قابله بقوله: ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

قال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ الجملة في محل رفع خبر «الذين»، وحصر الخسران وأكده فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين، مع ضمير الفصل «هم».

أي: الذين بلغوا الغاية في الخسران، في دينهم ودنياهم وأخراهم، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، ففاتهم المطلوب، ولم ينجو من المرهوب؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أي: ويستعجلك المشركون المكذبون يا محمد بالعذاب، أي: يطلبون منك دعاء الله بتعجيله؛ تحدياً؛ لشدة تكذيبهم وعنادهم وجهلهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥].

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، أي: ولولا وقت محدد معين مضروب، حدده الله تعالى ووقته لتعذيبهم في الدنيا، أو يوم القيامة.

﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ عاجلًا؛ كما استعجلوه. واللام: واقعة في جواب «لولا».

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: وليأتينهم فجأة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم لا يشعرون بمجيئه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ توكيد لما قبله، أي: يطلبون منك تعجيل العذاب، وهو واقع بهم لا محالة؛ ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾؛ الجملة تعليلية، واللام: للتوكيد، أي: وإن جهنم لمحيطة بالكافرين من كل جهة ومن كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، ولن يفلتوا منها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، أي: يغطيهم العذاب الحسي في جهنم من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ تشديداً عليهم.

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ قرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم بالياء: ﴿وَيَقُولُ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «وَنَقُولُ».

أي: ويقول الله تعالى تبكيتًا وتقريعًا وتوبيخًا لهم، وإهانة: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ذوقوا وتجرعوا جزاء الذي كنتم تعملونه، أو جزاء عملكم.

وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٣ – ١٦].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وما بعدها.

وإنما جعل الذوق للعمل في قوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

الفوائد والأحكام:

١- نهي المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، أي: إلا بالطريق والصفة التي هي أحسن؛ لأن ذلك أدعى لقبول الحق ونبذ الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢- وجوب المجادلة بالتي هي أحسن؛ لأن الله نهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وغيرهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥].

٣- بلوغ القرآن والتشريع الإسلامي الغاية في الحسن في دعوة الناس ومجادلة المخالفين؛ حتى مع أهل الكتاب أشد الناس عتوًّا ومخالفة للحق.

٤- حرص الشرع على تأليف القلوب للإسلام؛ لنهي القرآن عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فغيرهم من باب أولى.

٥- أن من ظلم من أهل الكتاب فسعى لإبطال الحق، وكذب به، وعاند وحارب أهله؛ لا يعامل بالتي هي أحسن، بل يعامل بالقوة والمحاربة والقتال مع القدرة على ذلك، أو يترك مع عدم القدرة على قتاله، فلا فائدة من جداله، وقد عاند وظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾.

٦- عدل الإسلام في النهي عن مجادلة أهل الكتاب عامة إلا بالتي هي أحسن، ما عدا الذين ظلموا منهم، فيعاملون بما يردعهم ويرد ظلمهم، وهكذا غير أهل الكتاب من الكفار. وفي هذا دلالة على أن من أهل الكتاب من ليس بظالم بل يريد الحق، ومنهم الظالم المعاند، وهكذا غيرهم من الكفار.

٧- أن لكل شخص أو طائفة ما يناسبه في دعوته إلى الله، أو إنكار ما هو عليه من باطل، فلا يساوَى بين الظالم وغيره، ونحو ذلك.

٨- أن مما أوجبه الله على سائر الأمم: الإيمان بجميع الكتب المنزلة، والإيمان بألوهيته وحده لجميع الخلق، والاستسلام والانقياد له وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

٩- أن الواجب قبول ما مع الخصم من الحق حتى ولو كان كافرًا، وعدم القدح في شيء مما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب؛ كما أن من حسن المناظرة وآدابها ذكر المسائل المتفق عليها أولًا؛ لتقريب الفجوة بين المتجادلين، ولإخراج المتفق عليه من المجادلة، وحصرها في المختلف فيه؛ ليكون ذلك توطئة، بل سببًا للاتفاق على المسائل المختلف فيها.

١٠- أن أهل الكتاب يؤمنون بالله ويقرون بألوهيته.

١١- ينبغي إذا أخبرنا أهل الكتاب بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ألا نصدقهم ولا

نكذبهم، بل نقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ كما أمرنا الله بذلك ورسوله ﷺ.

١٢- إثبات علو الله على خلقه بذاته وصفاته، وإنزال القرآن الكريم والتوراة والإنجيل من عنده، وأن القرآن كلام الله عز وجل، والرد على القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

١٣- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بإنزال القرآن عليه، وإثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بذلك وبخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾.

١٤- إيمان المنصفين من أهل الكتاب بالقرآن، وتصديقهم به؛ لشهادة كتبهم وتصديقها له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

١٥- إيمان بعض العرب من قريش وغيرهم، وتصديقهم بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

١٦- وضوح آيات الله تعالى ودلالتها التامة على أنها من عند الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعلى صدق من جاء بها، وأنه لا يجحدها ولا يكذب بها وينكرها إلا الكافرون المعاندون، الذين ينكرون ضوء الشمس في وضح النهار، الظالمون المعتدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٧- أن النبي ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب قبل إنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾.

١٨- أنه لو كان ﷺ يقرأ ويكتب قبل إنزال القرآن عليه لارتاب المبطلون الذين يريدون إبطال الحق، ونصرة الباطل، ولقالوا: إنما أخذ هذا من كتب الأنبياء قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

١٩- امتداح الله تعالى لكتابه القرآن الكريم، وأنه آيات بينات واضحات الدلالة على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

٢٠- ثناؤه عز وجل على أهل العلم الحافظين لكتاب الله في صدورهم، المتدبرين لألفاظه ومعانيه، العاملين به؛ لقوله تعالى: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

٢١- فضيلة العلم وأهله والترغيب فيه وفي حفظ القرآن الكريم.

٢٢- تعنت المشركين المكذبين باقتراحهم وطلبهم الآيات، معرضين عما جاءهم من الآيات، وعن القرآن الكريم أعظم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وإقرار المشركين بذلك؛ لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٢٤- أن الآيات عند الله، وأمر إنزالها إلى الله تعالى وحده؛ لتمام قدرته، وعلمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٢٥- أنه ﷺ ما هو إلا نذير بيِّن النذارة والتحذير من عذاب الله تعالى، وليس إليه أمر الآيات، ولا هداية الخلق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٦- الاكتفاء بذكر الإنذار؛ لأن المقام مقام محاجة للكافرين، وأيضا فإن من لازم الإنذار التبليغ، ببيان التكاليف، التي ينذر من خالفها، وفي المقابل يبشر من امتثلها.

٢٧- أن في إنزال القرآن على النبي ﷺ يتلى عليهم كفايةً عن جميع الآيات؛ لأنه أجل الآيات، وأكبر المعجزات، وفيه دلالة واضحة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به؛ لأهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٨- أن في إنزال القرآن رحمة خاصة له ﷺ، وللمؤمنين، ورحمة عامة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾.

٢٩- أنه إنما يتذكر بالقرآن وينتفع به المؤمنون خاصة، دون غيرهم من المعرضين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٠- كفاية الله عز وجل شهيدًا بينه ﷺ وبين المكذبين له، يشهد عز وجل على صدقه ﷺ فيما بلغهم من رسالة ربه، ويشهد على مقابلتهم له بالتكذيب، ويحكم بينه

وبينهم ويجازي كلًّا منهم بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

٣١- أن شهادة الله تعالى أعظم شهادة وأكبرها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:١٩].

٣٢- أن شهادة الله تعالى تكون بالقول، كما قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٦].

وتكون بالفعل بالتأييد والتمكين والنصر.

٣٣- علم الله عز وجل الواسع المحيط بما في السموات والأرض وبكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣٤- خسارة الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله غاية الخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ومفهوم هذا أن من كفر بالباطل وآمن بالله فهو الرابح حقًّا.

٣٥- استعجال المشركين المكذبين بالعذاب؛ لجهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

٣٦- حكمة الله تعالى، وأن كل شيء عنده بقدر وأجل، وأنه لولا وقت حدده الله وعيَّنه وضربه لتعذيبهم في الدنيا أو يوم القيامة؛ لجاءهم العذاب عاجلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

٣٧- تهديدهم ووعيدهم بإتيان العذاب إليهم فجأة وهم لا يشعرون به، وذلك أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٣٨- استعجالهم بالعذاب مع أنه واقع بهم لا محالة؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة بجهنم المحيطة بجميع الكافرين من كل جانب؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

٣٩- غشيان العذاب الحسي لهم، وإحاطته بهم من فوقهم ومن تحتهم؛ لقوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

٤٠- إثبات القيامة وجهنم وعذابها.

٤١- الجمع لهم بين العذاب الحسي في النار، وبين العذاب المعنوي المنصب على القلوب، بالتبكيت والتقريع والتوبيخ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ وكما يدين المرء يدان؛ لقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا إثبات عدل الله تعالى.

٤٣- إطلاق السبب على المسبب؛ لقوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهم يذوقون ما تسبب عن عملهم وهو العذاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾:

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، «يا»: حرف نداء، و«عباد»: منادى، وهو مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه.

والمراد بالعبودية هنا: العبودية الخاصة لله تعالى، وهي أشرف ما يوصف به البشر.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، صفة لـ«عبادي»، أي: الذين آمنوا وصدقوا باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وفي نداء الله تعالى لهم بوصف عبوديتهم له، وبوصف الإيمان، تشريفٌ وتكريمٌ لهم.

﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ امتنان عليهم بسعة أرضه عز وجل، وإعذار إليهم بأنه ما ضيق عليهم.

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾، أي: فاعبدوني وحدي، وهاجروا من الأرض التي لا تقدرون فيها على عبادتي وإقامة دينكم إلى أرضي الواسعة؛ حيث يمكنكم عبادتي وتوحيدي، وإظهار دينكم.

وهكذا فعل ﷺ وأصحابه الكرام حين كانت مكة دار شرك، فهاجر بعض

أصحابه الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم هاجر ﷺ وإياهم الهجرة الثانية إلى المدينة.

وقد توعد الله تعالى الذين تركوا الهجرة وأقاموا مع المشركين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

وقال ﷺ: «**أنا بريء من أي مسلم يقيم بين أظهر المشركين**»، قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»(١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ جاءت هذه الآية في سورة آل عمران: الآية:١٨٥، وفي سورة الأنبياء، الآية:٣٥، أي: كل نفس ميتة من بني آدم وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨].

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم فلَّ من جمع وأفنى من دول(٢)

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بالغيب: «يُرْجَعُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثم إلينا تردون بعد البعث للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ – ٢٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لابن دريد، من لاميته.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالثاء المثلثة، ساكنة بعد النون، وإبدال الهمزة ياء: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ»؛ من الثواء، وهو الإقامة، وقرأ الباقون بالباء الموحدة والهمزة: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ من التبوء، وهو المنزل.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنسكننهم وننزلنهم من الجنة غرفًا، أي: منازل ومساكن عالية؛ كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، السارحة بغير أخدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين وماكثين فيها إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يهرمون، ولا يخرجون منها؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: ١٠٨].

﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أي: نعم هذه الغرف والمنازل العالية في الجنة والتي تجري من تحتها الأنهار وهم خالدون فيها.

﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أي: جزاؤهم، وهذه مدح من الله تعالى لها، فأنعِم بها من غرف! وأكرم بها من منازل! وفيه ثناء عليهم؛ ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، أي: حبسوا أنفسهم على طاعة الله تعالى، فهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، ولازموا طاعته، وصبروا عن معصية الله تعالى، وصبروا على أقداره المؤلمة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: وعلى ربهم وحده دون سواه يعتمدون، ويفوضون أمورهم إليه في جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، مع تمام ثقتهم به عز وجل؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾، أي: وكم من دابة، أي: وكثير من الدواب.

﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾، أي: لا تستطيع أن تكتسب وتحصل رزقها، ولا تطيق جمعه وتحصيله، وادخار شيء منه لغد.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾، أي: يعطيها رزقها وييسره لها بأي سبب كان.

وقد ذكر أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، وخرجوا وهم بيض، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحًا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله له صغارًا من الحشرات كالبعوض، فيغشاه فيقتات منه تلك الأيام حتى يسود شعره، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأياه أبيض الريش نفرا منه، فإذا اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق؛ ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النعّاب[1] في عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض

﴿وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، أي: ويرزقكم وييسر رزقكم، فمن هاجر ابتغاء مرضاة الله لإقامة دينه أدرّ الله عليه الرزق أينما كان، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: ٦].

وقد أحسن القائل:

وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المذهب

فارحل فأرض الله واسعة الفضا ... طولًا وعرضًا شرقها والمغرب

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، أي: ذو السمع الذي يسمع ويجيب الدعاء، ويسمع جميع الأقوال والأصوات. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ ذو العلم الذي وسع كل شيء، ويعلم أحوال جميع الدواب، وحوائج جميع الخلائق ويرزقهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٦٣﴾:

---

(١) «النعّاب»: فرخ الغراب، سمي بذلك لكثرة نعيبه.

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾؛ الواو في الموضعين: استئنافية، واللام فيهما: موطئة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المشركين والمكذبين الذين آمنوا بالباطل، وكفروا بالله، واستعجلوا العذاب. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: من الذي أنشأ السموات والأرض وأوجدهما، وأتقنهما، وما فيهما من العوالم والمخلوقات؟ و«من» في الموضعين: اسم استفهام.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أي: ومن الذي ذلل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب دقيق لمصالح العباد ومنافعهم؟ كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن: الله الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: فكيف يؤفكون؟!. ومعنى «يؤفكون»: يُصرفون، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾[غافر:٦٩].

أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله تعالى، ويجعلون إفكًا وكذبًا آلهة يعبدونها من دونه، وهم يعلمون ويعترفون بأنه الرب الخالق المالك المدبر، وأن هذه الآلهة لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا؟!

فإقرارهم بربوبية الله تعالى وحده يوجب عليهم أن يعبدوه وحده، واعترافهم بأن

آلهتهم لا تملك من الأمر شيئًا يوجب الإقرار ببطلان عبادتها.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: الله عز وجل وحده يوسع الرزق والعطاء للذي يشاء ويريد من عباده كلهم، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن المراد بالعبودية هنا: العبودية العامة، قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾، أي: ويضيق الرزق للذي يشاء ويريد من عبادهم كلهم؛ لحكمة يعلمها، ابتلاءً وامتحانا، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠].

وليس توسيعه الرزق دليلًا على رضاه، ولا تضييقه دليلًا على سخطه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقُدِّم عليه؛ لتأكيد عموم علمه بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين: من الذي نزل من السماء ماءً وهو المطر.

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: فأحيا بهذا الماء- أي: بسببه- الأرض بالنبات والزروع والأشجار.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾، أي: من بعد قحطها وجدبها ويبسها؟

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الله الذي نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾؛ لما اعترف المشركون بتفرده عز وجل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وأنه ليس لآلهتهم شرك في ذلك، وكان ذلك موجبًا لإبطال إشراكهم مع الله بما لا يستطيعون إنكاره، والإقرار بالبعث؛ لأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لهذا أمر الله رسوله ﷺ بقوله:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، أي: الحمد لله على إقامته الحجة، وإيضاحه المحجة بأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وعلى قدرته التامة على البعث، وهو أمر له ﷺ ولكل مؤمن.

ومعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الثناء والوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، خاص بالله تعالى، مستحَق له وحده؛ لكمال ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثرهم لا يتأملون بعقولهم في آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته؛ ليهتدوا بذلك إلى وحدانيته في ألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.

٢- تشريف الله تعالى وتكريمه للمؤمنين بندائه لهم بوصف العبودية، الذي هو أجل وصف يوصف به البشر، وإضافتهم إليه في قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.

٣- وصفه عز وجل لعباده بوصف الإيمان؛ تشريفًا وتكريمًا لهم، وترغيبًا للاتصاف بهذا الوصف، وامتثال الأمر بعده، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان؛ كما أن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٤- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة.

٥- امتنانه عز وجل على العباد بسعة أرضه، والإعذار إليهم، بأنه ما ضيق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾.

٦- وجوب الهجرة من الأرض التي لا يتمكن فيها الإنسان من إقامة دينه، إلى أرض يتمكن فيها من عبادة الله تعالى وإظهار دينه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، وهكذا فعل ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؛ فهاجر بعضهم إلى الحبشة، ثم هاجر ﷺ بعد ذلك هو وكثير منهم إلى المدينة.

٧- وجوب إخلاص العبادة كلها لله تعالى وحده، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.

٨- أن كل نفس ميتة لا محالة من جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٩- إثبات البعث والقيامة، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، وفي هذا وعد ووعيد، وحث على

محاسبة النفس.

١٠- عظم ما أعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المنازل العالية، والغرف الرفيعة في الجنة، وما فيها من الأنهار والنعيم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

١١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

١٢- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وسنة نبيه ﷺ.

١٣- امتداح الله تعالى لما أعده للمؤمنين من الأجر العظيم؛ جزاء عملهم وصبرهم وتوكلهم على ربهم، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

١٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن العمل، بأن آمن وعمل صالحًا وصبر وتوكل على ربه؛ جوزي بأحسن الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

١٥- تكفل الله عز وجل بهذا الثواب للمؤمنين؛ لإقسامه على ذلك بقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾، وتسميته أجرًا في قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، مع أنه سبحانه لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه تكفل بذلك وأوجبه على نفسه؛ تفضلًا منه وكرمًا.

١٦- فضيلة الصبر وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

١٧- وجوب التوكل على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح والصبر والتوكل على الله عز وجل وحده؛ لعظم ما أعده عز وجل لمن آمن وعمل صالحًا، وصبر وتوكل على ربه.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

١٨- تكفل الله عز وجل برزق جميع الخلق، والدواب ضعيفها وقويها؛ لقوله

تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

١٩- أن الأرزاق كلها بيد الله، وهو الرزاق وحده، فيجب بذل السبب، والتوكل على الله.

عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم**»[1].

٢٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: السمع الواسع، والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فهو عز وجل يسمع الأقوال والأصوات، ودعاء السائلين ويجيبهم، ويعلم أحوال الخلق أجمعين ويرزقهم.

٢١- اعتراف المشركين بربوبية الله تعالى، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، ونزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢٢- إثبات ان الله هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها.

٢٣- الإنكار عليهم، والتعجب من صنيعهم؛ كيف يقرون بربوبية الله تعالى وحده، وأنه الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها دون آلهتهم، ومع ذلك يشركونها مع الله؟! لأن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

٢٤- أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي، فالمشركون مقرّون به ولم ينفعهم ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢١٤٤.

٢٥- تفرده عز وجل واختصاصه بتقسيم الأرزاق على الخلق، يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحكمته البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٢٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٨- علم الله تعالى المحيط بكل شيء من أحوال الخلق، وما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، من بسط الرزق، أو تضييقه، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

٢٩- إقرار المشركين المكذبين بالبعث بأن الله يحيي الأرض من بعد موتها، وفي هذا حجة عليهم، على قدرته على بعث الأجساد بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾.

٣٠- قدرة الله تعالى التامة وحكمته، ورحمته في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به، وإحياء الموتى وبعثهم.

٣١- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾.

٣٢- اختصاص الله عز وجل واستحقاقه للثناء والوصف بأكمل الصفات، ووجوب حمده؛ لإقامته الحجة، وإيضاحه المحجة، على وحدانيته في ألوهيته، وبطلان الشرك، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾.

٣٣- أن أكثر المشركين وأكثر الخلق لا ينتفعون بعقولهم في التأمل في آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته، فلا يستدلون بها على وحدانيته في ألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ الحياة الدنيا: بدايتها منذ خلق الله الخليقة إلى قيام الساعة، أي: ما قبل الآخرة، وهي بالنسبة للفرد: منذ ولادته إلى أن يموت.

وسميت: «دنيا»؛ لأنها قبل الآخرة زمنًا؛ كما أنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة؛ ولهذا أشار إليها هنا بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ للإشارة إلى حقارتها ودنو مرتبتها، كما وصفها عز وجل بأنها لهو ولعب، بينما وصف الآخرة بأنها الحيوان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

والمعنى: وما الحياة الدنيا في حقيقتها وقيمتها، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مجرد ﴿لَهْوٌ﴾؛ تلهو فيها القلوب، ﴿وَلَعِبٌ﴾؛ تلعب فيها الأبدان والجوارح؛ لما فيها من الفتنة والزينة واللذات والشهوات، وسرعان ما تزول وتنتهي.

كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾ [القصص: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾ [الشورى: ٣٦].

فمن قصد الدنيا وأرادها فليس له منها إلا اللهو واللعب، لكن من عرف حقارتها، وجعلها مطية للعمل للآخرة، فهي نعمت المطية والمحل لعمارة الدار الآخرة.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لهي الحياة الكاملة حقًّا؛ لاكتمال حياة البدن والقلب والنفس فيها، وجميع القوى، ولأنها دائمة باقية أبد الآباد، لا زوال لها ولا انقضاء.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم، أي: لو كان الخلق يعلمون فرق ما بين الدارين، وحقارة الدنيا، وعظم منزلة الآخرة، لما اختار كثير منهم الدنيا على الآخرة، ولآثروا ما يبقى على ما يفنى، وجدّوا واجتهدوا للعمل للآخرة؛ كما قال الرجل المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: ٣٩].

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

ذكر اعتراف المشركين فيما تقدم بأن الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر هو الله، وأن الذي ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها هو الله، ثم ذكر اعترافهم أيضاً بلسان حالهم ومقالهم أنه لا يفرج الكرب والشدة إلا الله دون آلهتهم.

قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: فإذا ركب المشركون في السفن، وأحاطت به أمواج البحر المتلاطمة وأحدق بهم الخطر والهلاك، واشتد بهم الحال، وضاق عليهم الأمر.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: دعوا الله تعالى وسألوه وحده مخلصين له الدين اضطرارًا دون شركائهم؛ لعلمهم أنه لا ينجيهم في هذا الموقف إلا الله تعالى وحده.

كما ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل؛ أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة خرج فارًّا منها، فلما ركب البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال

أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا ينجي ههنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضًا، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا، وكان كذلك»(١).

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«لما» ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط، أي: فلما نجاهم عز وجل إلى البر، وزالت عنهم الشدة.

﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ «إذا»: هي الفجائية، أي: سرعان ما أعرضوا، ونسوا دعاءهم إياه، وإنجاءه إياهم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وقالون بإسكان اللام: «وَلْيَتَمَتَّعُوا»، وقرأ الباقون بكسر اللام: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾.

واللام في الموضعين: لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يكفروا بما آتيناهم ويتمتعوا.

وقال بعضهم: هي لام التعليل، باعتبار أن الله قيض لهم ذلك.

أي: ليكفروا بالذي أعطيناهم من الأمن في البلد الحرام والرزق، وإنجائهم من الغرق، ومن بعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق، وأعظِمْ بها من نعمة لو عرفوا قدرها.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾؛ أي وليتمتعوا في ملذاتهم وشهواتهم، وفسقهم وفجورهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ «سوف»: حرف استقبال، وهذا وعيد وتهديد لهم، أي: فسوف يعلمون عاقبة شركهم، وكفرهم بما آتاهم الله، وجحودهم نعمه، وإيثارهم التمتع

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٠٢.

باللذات والشهوات والفسق والفجور، وذلك حين يحل بهم عقاب الله عاجلًا أو آجلًا.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾؛ الاستفهام للإنكار، أي: أولم ير مشركو قريش، أي: يعلموا ويشاهدوا أنا صيرنا حرمًا آمنًا، وهو البلد الحرام، مكة شرفها الله تعالى؟!

﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، أي: ويؤخذ الناس من حولهم بالاعتداء عليهم بالقتل والنهب والسلب وغير ذلك، وهم آمنون مطمئنون، لا يعتدى عليهم في مقامهم لحرمة الحرم، ولا في أسفارهم لأنهم أهل الحرم.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ الاستفهام للإنكار، أي: أفبالباطل، وهو ما هم عليه من الشرك والكفر والفسوق والفجور، وكفر النعم ونحو ذلك، قال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ....(١)

﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون.

﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، أي: وبما أنعم الله به عليهم من الأمن في الحرم، وجلب الثمرات إليهم، وبعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق.

﴿يَكْفُرُونَ﴾، أي: يجحدون تلك النعم وينكرونها، ويكذبون بها، بإشراكهم مع الله غيره، وتكذيب رسوله. وفي هذا تهديد لهم مع الإنكار عليهم.

---

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلمًا، أي: وأشد عقوبة.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذبًا، بأن قال: إن الله أوحى إليّ، ولم يوح إليه شيء، أو قال على الله ما لا يعلم، أو نسب ما هو عليه من الضلال والشرك إلى الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾، أي: ولا أحد أشد ظلمًا من الذي كذب بالحق حين جاءه من عند الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ الاستفهام للتقرير، وفيه معنى الإنكار؛ كما في قول جرير(١):

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟!

أي: أليس في النار، وسميت النار بـ«جهنم»؛ لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٩٣).

﴿مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: مأوى لهم ومستقرًّا ومسكنًا.

والمعنى: فيها مثوى ومأوى ومستقر لهم، ومحل إقامة، خالدين فيها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة: ٣٧].

وفي قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم، وأنه سبب دخولهم النار، وليعم هذا الوعيد كل كافر.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

لما ذم المشركين المكذبين الكافرين، وأنكر عليهم كفرهم وعدم شكرهم، وتوعدهم بجهنم، أثنى على من جاهدوا في دينه عز وجل من المحسنين، ووعدهم بهدايتهم إلى سبيل مرضاته، ومعيته لهم معية خاصة؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾، أي: والذين بذلوا جهدهم وطاقتهم ﴿فِينَا﴾، أي: في سبيل الله ودينه، وابتغاء مرضاته، فجاهدوا أعداءه بالسيف والسنان، والحجة والبرهان، وجاهدوا أنفسهم بلزوم طاعة الله تعالى، والبعد عن محارمه؛ وهم الرسول ﷺ، وأصحابه، وأتباعهم على الإيمان إلى يوم الدين.

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنوفقنهم ونبصرنهم وندلنهم طرقنا الموصلة إلينا، وهي الأعمال الصالحة، الموصلة إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: وإن الله لمع المحسنين معية خاصة؛ بهدايته إياهم، وتوفيقه لهم، وعونه وتسديده، ونصره وتأييده.

و﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، ممتثلين قوله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

وأحسنوا إلى عباد الله تعالى بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا، وجمعوا بين الإحسان القولي، والإحسان الفعلي وهذه الآية؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨].

الفوائد والأحكام:

١- حقارة الدنيا ودنو منزلتها؛ لأنها مجرد لهو ولعب، وسرعان ما تزول وتنقضي، وتعقبها الندامة والحسرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾.

مما يوجب الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وأن يجعلها الإنسان مطية للآخرة، ويعمرها بالإيمان والأعمال الصالحة، فإن فعل ذلك أفلح ونجح، وكانت له نعم المطية.

٢- أن الدار الآخرة هي الحياة الحقة الكاملة، والحياة الدائمة الباقية، التي لا زوال لها ولا انقضاء؛ مما يوجب أن يحسب المرء لها كل حساب، ويستعد لها بكل استعداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾.

٣- أن الخلق لو كانوا يعلمون فرق ما بين الدارين، وحقارة الدنيا، وعظم منزلة الآخرة، لما اختار أحد منهم الدنيا على الآخرة، ولآثروا الحياة الباقية على الحياة الفانية؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

٤- أن من آثر الدنيا على الآخرة فهو لا يعلم، وإن أرعد وأزبد وادعى أنه يعلم، بل هو جاهل مركب، وأجهل من حمار أهله، لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم.

٥- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى وحده إذا اشتد بهم الحال عند ركوبهم البحر وتلاطم أمواجه، وإحداق الخطر والهلاك بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وفي هذا اعتراف منهم بلسان الحال- إن لم يكن بلسان- المقال بأن آلهتهم لا تنفعهم.

٦- أن اللجوء إلى الله تعالى عند الشدة أمر فطري .

٧- أن دعاء المسألة من الدين والعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٨- ذم المشركين بمبادرتهم بالرجوع إلى الشرك بالله بعد إنجائه إياهم إلى البر، ونسيانهم ما كانوا يدعون من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾.

٩- رجوع المشركين بعد إخلاصهم الدعاء لله حال الشدة إلى الشرك- بعد إنجائه

إياهم- وكفرهم وجحودهم لما آتاهم الله وأنعم به عليهم؛ من الأمن في الحرم وفي أسفارهم، وجلب الأرزاق لهم، وإنجائهم من الغرق، وبما آتاهم الله على لسان رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق. وإيثارهم للتمتع بما هم فيه من الملذات والشهوات والفسق والفجور؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾.

١٠- التهديد لهم بما يستقبلهم من العذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

١١- أن المشركين المتأخرين أشد شركًا؛ لأنهم يشركون في الرخاء والشدة.

١٢- الإنكار على قريش عدم شكرهم لنعمة الله تعالى في جعل مكة حرمًا آمنًا، يأمنون بسببه في إقامتهم، وفي أسفارهم؛ لأنهم أهل الحرم وسكانه، بينما يتخطف الناس من حولهم، بالقتل والسلب والنهب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

١٣- الإنكار عليهم في إيمانهم بالباطل؛ مما هم عليه من الشرك والكفر والظلم والافتراء والتكذيب، وكفرهم بنعمة الله في جعلهم آمنين في مقامهم في الحرم، وفي أسفارهم، وجلب الثمرات إليهم، وأعظم من ذلك وأهم- لمن عرف قدر ذلك- بعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

١٤- أن نعمة الأمن من أعظم النعم؛ لهذا امتن الله بها على قريش.

١٥- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله كذبًا بدعوى النبوة وهو كاذب، والقول على الله بلا علم، ونحو ذلك، أو كذب بالحق لما جاءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾.

١٦- تقرير وإثبات أن جهنم مثوى الكافرين، ومستقرهم ومأواهم، خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١٧- وعد الله تعالى- الذي لا يخلف وعده- للذين بذلوا جهدهم وطاقتهم في جهاد أعدائه بالسيف والسنان، والحجة واللسان، وفي لزوم طاعته، والبعد عن محارمه؛ بتوفيقهم وهدايته سبل مرضاته الموصلة إليه وإلى جنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

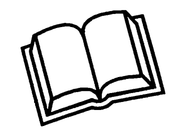
جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾، وفي هذا ترغيب وحث على المجاهدة في الله؛ ابتغاء مرضاته.

١٨- إثبات معية الله الخاصة للمحسنين، الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى، وإلى عباده، وأنه عز وجل معهم معية خاصة بالتوفيق والنصر والحفظ والتأييد لهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي هذا إغراء وترغيب بالإحسان.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

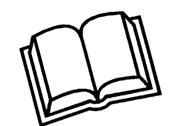
✍

✍

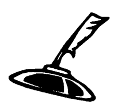
✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

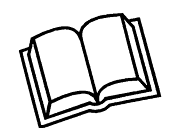
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة





دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958